

مكتبة الشريعة

محمد رسول الله
والذين معه



Bibliotheca Alexandrina



0114758

رسول إبراهيم

عبد الله جوده السحار

السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ
وَالَّذِينَ مَعَهُ

رُحْمَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ

عبد محمد جوده السخاوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا
انك انت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن لديننا امة
مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم * ربنا
وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة
ويؤكدهم ، انك انت العزيز الحكيم » *

(قرآن كريم)

قال صلى الله عليه وسلم : « انا دعوة ابي ابراهيم وبشرى عيسى ».

شمس تغيب ويقفوا إثرها قمر ، ونور صبح وبعده حلك ،
والقوافل تنساب في معبد الكون إلى الشمال ، والرياح تهب
من الجنوب ، والأرض وشى والنسيم معنبر ، قد صنع فصل
الربيع الرياض عقودا ، وحلى الثرى بنجوم الثريا ، والتفت
الفصول كتعاقب الأحباب ، وانتشر النوار الأصفر على جبين
الصحراء كتاج من الذهب النضار على رأس عروس ، ونبتت
العيون بماء زلال ، وسالت الأودية بالحياة ، وراح كل ركب
يلتسج الواحات في الطريق ليسعد بطيب ظل ظليل ، وترتاح
الأرواح في الأجساد .

وكانت صوامع الرهبان علامات على الطريق ، اعتكف فيها
أناس فروا من الحياة وضجيجها وانقطعوا للعبادة وهم يحسبون
أنهم يحسنون صنعا ، ما دار بخلداهم أن الانعزال عن الناس
انعزال عن الدين ، فالتقوى لا تعرف الأناية ، بل هي أن
يتجاوبوا مع أنفسهم ومع العالم كله في سبيل الخير الأسمى .
وانطلقت القوافل إلى دومة الجندل حيث سوقها السنوى ،
وقد نسي الناس أن أول من نزلها كانوا أبناء دوما ابن إسماعيل

وكان كل ما يذكرونه أن أكيدر غرس فيها الأشجار وأعاد بناءها ، وأن بنى كلب ينزلونها وأنهم يحسون السوق إذا ما غاب عنها أكيدر ملكها .

وجاء أول يوم من ربيع الأول فاجتمع الناس للبيع والشراء والأخذ والعطاء ، وكانت المبايعة بيع الحصاة ، يقول أحد المتبايعين للآخر : ارم هذه الحصاة فعلى أى ثوب وقعت فهو لك بدرهم . أو يبيعه من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة ، أو أن يقبض على كف من حصى ويقول : لى بعدد ما خرج فى القبضة من الشيء المبيع . أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول : لى بكل حصاة درهم . أو يعترض قطع من الغنم فيأخذ حصاة ويقول : أى شاة أصبتها فهم لك بكذا .

كانوا يقامرون بالنهار يأكل بعضهم أموال بعض بالباطل . ويعكفون فى الليل على الخمر والميسر والنساء ويمضون الوقت فى اللهو واللعب ، فثقلت أرواحهم بأوزار الأجساد وصاروا مجرد أشياء ، آمالهم محدودة بالعالم الأرضي الذى يتنفسون فيه ، وسعادتهم مادية هابطة لا تزيد على انفعالات تلالشى ولذة لا تدوم ، قد أوغلوا فى الحياة الحيوانية فانعدم انجاسهم مع إنسانية الإنسان .

أطلقوا عنان نزواتهم وعواطفهم فاتجهت شهواتهم ورغباتهم إلى غايات جسدية : فأهيفت أجنحة أرواحهم وانجذبت إلى الأرض ، وسيطرت عليهم أنانية مدمرة طاغية استبدت بهم

فتفككت الحياة الإنسانية ، بل صارت حياة ضارية لا تحترم
الخير الإنسانى العام . بل تقدس كل ما يجلب منافع ذاتية أو
يشبع شهوة عارمة . لا فرق بين تجارة أو مضاربة أو غارة
وسلب ونهب أو سفك دم برىء أو ظلم أو دعارة ، لا تمييز بين
الحلال والحرام ، قد ساد بينهم قانون الغاب .

وكانوا يتمسحون بأصنام الآلهة التماسا للرزق والعافية
فى الدنيا . وما كان محراب ربهم فى أغوار نفوسهم بل كان
حجرا يحملونه معهم إذا خرجوا أو يلتقطونه من هنا أو هناك ،
ومن سفاهة أحلامهم تعصبوا لتلك الحجارة التى لم يكن لها
عليهم سلطان .

وكانوا لا يؤمنون ببعث ولا حساب قد ذوى النور المقدس
فى قلوبهم وذبل ، وخفت الضوء الذهبى الذى يشرق بنور
ربه بعد أن قدموا البطون والشهوات على العقول ونقاء
النفوس والأرواح . فلم يكن للأخلاق جذور فى عين وجودهم ،
وما كانت لهم سلطة مقدسة تنفجر منها قوانين الخير والمحبة
وقواعد الأخلاق ، فسقطت كل القيم الإنسانية ، وظهر الفساد
فى البر والبحر وأصبحت حياتهم فراغا وأوقاتهم هباء .

قطعوا كل العلائق بالذات العلية ، وأغلقوا نوافذ قلوبهم
دون التور الإلهى ، فلم يروا داخل نفوسهم ، ولم يعرفوا
ذواتهم ليعرفوا ذات الله ، وعجزوا عن أن يسبروا أغوار الكون
ليرتقوا إلى ما فوق الطبيعة وإلى ما وراء عالمهم المادى .
فضلوا السيل واستكانوا للشر واستجابوا لعواطفهم الجائعة ،

وغذوا عصبيتهم وجاهليتهم بحطام أنبل المبادئ الإنسانية ،
فهاموا في طرق ملتوية لا تقود إلا إلى الظلام .

صار الإنسان مادة تافهة . لا يؤمن إلا بما يلمسه بيده
ويراه . بعينه ويذوقه بلسانه ويشمه بأنفه ويسمعه بأذنه .
فاستكان لحدوده فلم يحاول أن يصرع الشر أو يواصل حياة
ثانية بعد الموت ، فإن كان سيذا أسلم نفسه للشره في الأكل
والشرب والعواطف ، وإن كان عبدا للذل والجوع والحرمان ؛
قد ظلموا أنفسهم سادة وعبيدا .

وكانت القبائل متشاحنة قد نزلت البغضاء قلوبهم .
فالعداوات مشبوبة ، والحروب دائمة ، والثارات لا يخبر
أوارها ، والشعراء يهيمون في الأودية يؤججون نيران
الكراهية ، وسوس الفساد ينخر في المجتمع ويشيع التحلل
والانحطاط ؛ فصارت رحلة الحياة بلا هدف ، تشق طريقها في
شعاب القسوة ويبداء الضياع وغفن البشرية .

ونسى البشر أرض الله ، فصارت في أشد الحاجة إلى غيث
من السماء يطهرها لتستمر عليها الحياة الكريمة التي تليق
بالإنسان الذي قبل أن يحمل الأمانة ؛ إلى رسول من عند الله
مؤيد من الله يعيد البعث الروحي إلى الناس ، ويرتقى بالنظرة
إلى الحياة فيقتلع الشرور من نفوس البشر ويحقق انتصار
الإنسان .

وتقضت أيام سوبق دومة الجندل بما فيها من مقاومة وهضم
للحقوق وولوج في الدنايا التي تحط من قدر البشر ، فانتقلت

بعض القبائل إلى منازلها ، وانطلق بعض التجار إلى الحيرة وبلاد فارس ، ويسم بعض التجار إلى بلاد الشام وبلاد الروم ، وتوغل بعض تجار من كلب في البلاد الرومية حتى بلغوا عمورية .

كانت الثعالب السود تمرح في شعاب الجبال ، والأرانب البيض تفر مذعورة إذا ما عكر سكون الفضاء وقع حوافر الخيل على الأرض الصلبة ، وفاجت روائح المسك واعترى العرب سرور لا يدرون مبعثه ، فقد كان كل من يفد إلى هذه البلاد ينعم بنشوة تملأ جوانحه .

وانساب تجار كلب في أسواق عمورية ، كانت المتاجر كثيرة والبضائع من طرف وحرير ومصنوعات مكدسة هنا وهناك ، فراح التجار العرب يشترون بها معهم من عملات قيصر ، ويبيعون الطيب والسيوف النيبانية ، ويستبدلون العملات لدى الصيارفة الذين اتشروا في كل مكان ليستفيدوا من فروق أسعارها .

وكان سلسان الفارسي يعيش في عمورية على أمل أن يجد من يحملونه إلى أرض العرب بعد أن سمع من صاحبه أن قد أظل زمان نبى ، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب مهاجرة إلى أرض بين حرتين . فلما مر به التجار العرب هرع إليهم متفرحا وراح يحدثهم : فعلم أنهم من كلب فقال لهم وهو ينظر إلى بقراته وغنيماته :

- احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه
وغنياتي هذه .

قالوا والطمع يسيل مع لعابهم والجشع يطل من عيونهم :
- نعم .

وساقوا بقرات سلمان وغنياته إلى حيث أناخوا قافلتهم .
ثم حملوه معهم يكاد يطير من شدة الفرح وقد هان كل شيء
في عيني الباحث عن الحقيقة . فهو في طريقه إلى النور الذي
ينشده ، النور الذي هجر الأهل والخلان في سبيله . النور
الذي يبدد القلق والحيرة والشكوك وينزل بالقلب أنوار
اليقين .

انصرفت رغبته عن كل ما حصل من علم المجوس وعلم
النصرانية ، وعن الاستقرار الذي ذاق طعمه في عمورية ، وعن
البقرات والغنيات التي اقتناها إلى الخير الأسى الذي ينشده .
إلى جوهر الحقيقة التي صارت هدف حياته ، فقد زهد في
الدنيا وفي كل ما تجلبه من مسرات رغبة في سرور ، من رجا
في انشراح الصدر الذي ينيره قلب مؤمن أشرق بنور ربه .
إنه زاهد مطلق لا يحب إلا الله ولا يريد إلا وجهه . ترك
حظ نفسه في أصبهان وفي نصيبين وفي الموصل وفي عمورية .
وزالت عنه كل رغبة في جمع مال أو اقتناء أرض أو متاع أو
سلطة أو سلطان . ولم تبق له إلا رغبة واحدة : أن يلتقي بذلك
النبي العربي الذي بشر به وبشرت به الأنبياء ليأخذ بيده إلى
طريق الحق . وهل يقوده إلى الصراط المستقيم مثل نبي !

نبذ الدنيا ولم يتخذها ربا لكيلا تتخذهُ عبداً ، ونبذ الشهوة قرب شهوة أورثت حزنا طويلا ، وقطع كل علاقته بالماديات في سبيل غاية أسمى تجذبه إلى ملكوت السماء فأخرج من قلبه حب الدنيا وأدخل فيه حب الغاية التي ليس وراءها غاية ، فاختر جوع الدنيا على شبعها ، وفقر الدنيا على غناها ، وحزن الدنيا على فرحها ، وصبر على مكروهاها وصبر عن محبوبها طمعا في حياة روحية سامية تشبعه أبدا وتغنيه أبدا وتشرح صدره أبدا وتهون عليه مصائب الأيام ، فصار يرى بنور الله ويفكر بهدى رب العالمين الذي بات يحسه في عين ذاته ، وأصبحت كل آماله ومنتهى أمانيه أن يلتقى بذلك النبي ويؤمن به ويصدقه ليعيش في شعاع شمسهِ حواريا كحواري السيد المسيح عليه السلام .

إنه جرب الرهبة والعكوف في الكنائس وتمضية النهار والليل في المحاريب يردد ما لقن من ابتهالات ، غير أن طول السهر والقيام آتاء الليل وأطراف النهار والاجتهاد في الصلوات لم تشرح صدره ولم تكشف له عن لب الحقيقة ، فظلال الشك ترين على ما حاول أن يدخل قلبه من معتقدات ، وهو يريد لها حقيقة ناصعة نقية بلا ظلال من ريب . فما إن سمع عن قرب ظهور نبي يأتيه الخبر من السماء حتى زهد في الرهبة وفي الدين الذي وجده أفضل من دين قومه وإن لم يهده الطمأنينة الخالصة ، فهو راغب في الصفاء الذي لم تعكره أساطير الشعوب ولا أهواء الرهبان ولا مطامع القياصرة الذين

فرضوا إرادتهم على المجامع المسكونية التي شرعت في الدين
ما يرضى أصحاب النفوذ والسلطان .

وانطلقت القافلة ولسان بين الرجال وإن غاب عنهم بما في
قؤاده من أشواق وما في رأسه من أفكار . فلم يعد همه زينة
الحياة الدنيا بل صار يرى بعين بصيرته جمال الجبال . بعد أن
أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأصبح همه جوهر الحقيقة
ووجه الله .

وبلغت القافلة وادي القرى وقد غرت السعادة لسان ،
فهو في أرض العرب مبعث ذلك النبي الذي خرج في طلبه .
وزاد في سعادته أنه أحس أن الله أراد له الرشد والهدى .
طول التأمل والبحث والخيرة .

سار سلسان مع تجار كلب في السوق يتلفت وإذا بالرجال
الذين أعطاهم بقراته وغنيماته ليحصلوه معهم ينظر بعضهم إلى
بعض وقد أطل الغدر من أعينهم . فانقضوا عليه وأسروه
بضاعة وعرضوه بين ما عرضوا من رقيق .

ولف سلسان حزن عتيق . فقد في لحظة حرته وهو
لذي عاش طوال حياته حراً ينطلق من بلدة إلى بلدة كقراشة
ملليقة جريا وراء وجه الحقيقة ، وزاد في أساء أن هؤلاء العرب
الذين سيخرج منهم ذلك النبي الذي سيبعث بدين إبراهيم
عليه السلام قد ظلموه وباعوه لرجل يهودى عبدا . ولم
يستسلم لثورة عواطفه فما لبث أن أضاعت بصيرته حقيقة أن
الأنبياء لا يعيشون إلى أقوام صالحين ، فما رآه من هؤلاء النفر

من تجار كلب مذ غادر معهم عسورية إلى أن باعوه في وادى
القرى يؤكد حاجتهم إلى رسول يخرجهم من الظلمات إلى
النور .

وانطلق سلمان خلف سيده اليهودى مطرق الرأس يفكر
في حكمة أسره فلم يهتد عقله إلى السر الدفين ، فما كانت عنده
مفاتيح الغيب ليطلع على ما يخبئه له العليم الخبير ، وكان
الأسى يعتصر فؤاده ولكنه لم يدع اليأس يتسرب إلى قلبه .
وكيف يعرف اليأس طريقه إلى قلب أشرق بالنور ؟

وراح سلمان يعمل في أرض ذلك اليهودى ، ورأى النخل
فاستبشر ، فصاحبه قال له وهو يحدثه عن النبى العربى : يخرج
بأرض العرب . مهاجرة إلى أرض بين حرتين بينهما نخل ،
به علامات لا تخفى . فهرع سلمان يطوف بوادى القرى بحثا
عن الحرتين : عن الأرض ذات الحجارة السود وقد امتلأت
جوانحه بالأمل والرجاء ، ولكن فترت حماسته لما لم يجد
الصفة التى حدثه بها صاحبه وإن لم يعرف اليأس إلى قلبه
سيلا .

ومرت الأيام وسلمان يعمل في أرض سيده ، فيينا هو
عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة ، فلما
رأى سلمان أعجب به فابتاعه من سيده ، فلم يستشعر سلمان
أسى بل غمره شعور بالرضا ، فمن يدرى لعل الله قد بعث ذلك
القرظى ليحمله إلى مبعث ذلك النبى الذى ينتظره أو إلى
مهاجرة .

وخرج سلسان مع سيده الجديد وانطلقا إلى المدينة ، فراح
 سلسان يقلب وجهه فيها فإذا بنشوء عارمة تعمره ، وإذا بنفث
 في روعه يؤكد له أنها البلد الذي وصف له صاحبه . وما إن
 استقر في أرض بنى قريظة حتى هرع ليطوف بالمدينة فإذا بفرح
 فياض يتفجر ينابيع من عين ذاته . وإذا بسرور روحى عجيب
 يلقيه . إنها أرض بين حرتين بينهما نخل ، إنها مهاجرة ، إنها هي
 ولا ريب . وارتفعت الأسجاف عن عين بصيرته فرأى حكمة
 غدر تجار كلب به ، فخر إمام الزاهدين ساجدا لله يروي
 بدموعه الأرض ، وبات ينتظر في صبر ذلك اليوم الأغر الذي
 يجتمع فيه بالنبي الذي أظل زمانه .

كان اليمينيون يرحلون إلى الشمال ، وكان أهل الحجاز يرحلون إلى الجنوب إلى اليمن ، وقد كثرت هجرة اليمين إلى الحجاز وشمال الجزيرة العربية عقب النشاط التجارى الذى قام به الرومان فى البحر الأحمر ، وبعد انهيار سد مأرب . وعلى الرغم من الاتصال الدائم بين الشمال والجنوب ، واجتماع الشماليين بالجنوبيين فى مواسم الحج وفى الأسواق . فقد كان العداء مستحكما بين العدنانيين والقحطانيين من قديم حتى إن كلا منهما اتخذ لنفسه شعارا فى الحرب يخالف شعار الآخر ، فاتخذ المضربون العمائم الحمر والرايات الحمر ، واتخذ أهل اليمن العمائم الصفرة .

وكان توالى الحوادث والوقائع الحربية يزيد فى العداء ويقوى روح الشر بينهم ، وقد كان العداء شديدا بين الأوس والخزرج الذين خرجوا من اليمن بعد انهيار سد مأرب وبين العدنانيين سكان مكة . وكان بين القومين حزازات ومفاخرات كل يدعى أنه أشرف نسبا وأعز نفرا ، وكان اليمينيون أحق بالفخر لما لهم من حضارة قديمة وملك راسخ .

وكانت القبائل في عدااء دائم ، وكان المثل الأعلى للعربي الكامل أن يتحلى بالشجاعة الشخصية ، والشهامة التي لا حد لها ، والكرم إلى حد الإسراف ، والإخلاص التام للقبيلة ، والقسوة في الانتقام والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل ، وما كان أحد يفكر في إخضاع ملافه الشخصية ومنافع قبيلته للخير العام .

ولانت أسناء مشاهير العرب تزداد تألقا كلما زادت سفاهاتهم . وكلما زادت جراتهم على حرمة الجار بالقول أو الفعل . وكلما انتشرت في الأرض فواحشهم ، فكان الشعراء يتغنون بكرم لاعبي الميسر ، وشجاعة سافكي الدماء والذين يغيرون على القبائل الأمنة لسلب حرية الرجال والنساء والولدان . ويستندحون شاربى الخمر وكل عاهر يلعب بعقول الغواني ويطوف بدور البغاء .

وكانت بعض لمحات من الجود ومكارم الأخلاق تومض في ذلك الظلام الحالك . لا لفضيلة متأصلة في قلوب الناس بل طمعا في ذبوع الصيت وحسن الأحدثه وإرضاء لغرور السبادة الذين يريدون علوا في الأرض والارتقاء إلى قسم الأمجاد .

كان الفساد يجرى في شرايين المجتمع العربي مجرى الدم ، وكانت غارات المغامرين على القبائل تتعاقب تعاقب الليل والنهار ، وكان الذين ينتزعون النساء من أحضان أزواجهن أو من كنف أسرهن لا يتسترون على أفعالهم النكراء . بل

كانوا يتفاخرون في أشعارهم بما اقترفوا من آثام لتشيع بين الناس .

وكان في كل قبيلة فارس يشى في الأسواق ويدعو الإماء والفتيات إلى نفسه ، أو يشن الغارة على قبيلة ليخطف منها امرأة أعجبه دون حياء . وقد جمع عروة الورد العبي صعاليك قومه يغزو بهم القبائل من حوله . فإذا أخفقوا في غزواتهم كان يقوم بأمرهم فلقب عروة الصعاليك .

وأصاب الناس سنة شديدة فتركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف . وخرج عروة في صعاليكه وقد كنف على الناس الكنف (اتخذ لهم حظائر يأوون إليها) فانطلق للغارة والثناء شديد وعشيرته تكاد تهلك من الجوع . وبينما هو وصعاليكه يبحثون عن فريسة إذا بناقتين دهاوين ، فحز لهم إحداهما وحمل متاعهم وضعفاءهم على الأخرى . وجعل ينتقل بهم من مكان إلى مكان . وإذا برجل صاحب مائة من الإبل قد فر بها من حقوق قومه . فقتله وأخذ إبله وامراته . وكشفت المرأة عن وجهها فإذا بها من أحسن النساء ، فوقع جبالها في قلب عروة وفي قلوب صعاليكه فانقلبوا بنا معهم إلى أصحاب الكنيف فحلبوا لهم الإبل وحملهم عروة عليها ، حتى إذا دنوا من عشيرتهم أقبل يقسمها بينهم وأخذ مثل نصيب أحدهم . فقالوا :

— لا واللات والمزى لا نرضى حتى تجمل المرأة نصيبا فمن شاء أخذها .

فجعل يهم بأن يحبل عليهم فيقتلهم وينتزع الإبل منهم ثم يذكر انهم صنيعته وأنه إن فعل ذلك افسد ما كان يصنع ، ففكر طويلا ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل إلا راحله يحبل عليها المرأه حتى يلحق بأهله .

كانت المرأة التي سبها من بنى هلال بن عامر بن صعصعة . يقال لها ليلي بنت شعواء . فمكثت عنده زمانا وهي معجبة له تريه أنه تحبه . ثم استزارته أهلها فحملها حتى اتاهم بها . فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع معه ، وتوعده قومها بالقتل فانصرف عنهم فأقبل عليها فقال لها :

— يا ليلي ، خبري صواحبك عنى كيف أنا .

— ما أرى لك عقلا ! أترانى قد اخترت عليك وتقول

خبرى عنى !

وأخذ بنو عامر امرأة من بنى عبس ففخر عامر بن الطفيل بذلك وذكر أخذه إياها ، فراح عروة يعيرهم بأخذه ليلي الهلالية . كانت مثل هذه الأشعار التى تفخر بسلب الحرائر تنتشر بين الناس فيتلقفونها ليسمر بها السمار فى نواديهم ، فقد كان سبى النساء والعبث بهن أمرا مألوفا شاع فى كل القبائل .

وسبى عروة سلمى من بنى غفار ، وكانت ذات جمال فولدت له أولادا وكان شديد الحب لها . وذات يوم حملها معه إلى يثرب ونزل فى بنى النضير ، فلما رأى اليهود حسن سلمى طمعوا فى جمالها فقدموا إليه خمرًا معتقة فراح يشرب ، فلما

دعوة ابراهيم

انتشى منعه . وراح يطلب مزيدا من الخمر فالتمسوا منه فى
رقة أذ يدفع ثمن ما يشرب ، وما كان معه شيء إلا زوجه
فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى استحق اليهود الرهينة . فلما
أفاق قال لها :

— انطلقى .

قالت فى أسى :

— لا سبيل إلى ذلك قد أغلقتنى .

وأخذ اليهود سلمى الغفارية لما لم يقدر عروة على اقتكاكها
فى الوقت المشروط ، فقال عروة فى أسى :

سقونى الخمر ثم تكنفونى عداة الله من كذب وزور
وراحت سلمى تننى عليه فقالت :

— والله إنك ما علمت لضحك مقبلا ، كسوب مديرا ،
خفيف على متن الفرس ، ثقیل على العدو ، طويل العباد ،
كثير الرماد ، راضى الأهل والجانب^(١) ، فاستوص بينيك خيرا .
وانصرف عروة الصعاليك حرينا ، ثم ما لبث أن عاد حياة
الضعلكة يهاجم القوافل ويوزع ما يسلب على رجاله ، وينشد
الشعر وينال إعجاب المجتمع المريض ويفضله فى الجود على
حاتم الطائي .

ولم يكن المجتمع فى يشرب بأحسن حالا من المجتمعات
العربية الأخرى ، فقد دب الشقاق بين اليهود واليهود ووقعت

(١) الغريب ويراد به الضيف .

البيضاء في قلوب الأوس والخزرج . وكثيرا ما كانت المنازعات تنشب بين العرب واليهود . وكثيرا ما كانت تثار الحروب ولا تحقن الدماء إلا لفترة وجيزة . ثم سرعان ما تندلع السنة غيران الفتن لتخرق اليهود والعرب دون تمييز .

وفي ذلك الجو المشحون بالعداوات والقتال والخوف نراح ابن الهيثبان يجود بأخر أنفاسه ، وقد التف به ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسيد بن عبيد ، وهم نفر من بنى هذل ليسوا من بنى قريظة ولا النضير نسبهم فوق ذلك هم بنو عم القوم ، وقد لاح في وجود الرجال هم ثقيل . فابن الهيثبان رجل من يهود أهل الشام قدم عليهم ، حل بين أظهرهم ما رأوا قط رجلا أفضل منه .

كانوا إذا قحط عنهم المطر قالوا له :

— اخرج يا ابن الهيثبان فاستسق لنا .

فيقول :

— لا والله ، حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة .

فيقولون له :

— كم ؟

فيقول :

— صاعا من تمر أو مثدبين من شعير .

فيخرجونها ثم يخرج بهم إلى ظاهر حرتهم فيستسقى الله لهم ، فوالله ما يبرحوا مجلسه حتى يمر السحاب ويسقون .

وعرف ابن الهيثان أنه ميت ، فالتفت بعيون زائغة إلى من كانوا عنده وقال :

- يا معشر يهود ، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر
والخير إلى أرض البؤس والجوع ؟
قالوا :

- إنك أعلم .

قال في صوت خافت :

- فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكّف (أتتظر) خروج
نبي قد أظلم زمانه ، وهذه البلدة مهاجرة ، فكنت أرجو أن
يبعث فأتبعه ، وقد أظلمكم زمانه فلا تسبقن إليه يا معشر يهود
فإنه يبعث بسفك الدماء وسبى الذراري والنساء ، فمن خالفه
فلا ينعمكم ذلك منه .

ومات ابن الهيثان وحديثه يرن في أعماق قلوب الفتية
ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد بعد أن خفر
في أعماق نفوسهم ، ثم قبر ابن الهيثان وما أسرع أن نسى
الناس تلك العبرة المؤقتة التي ينزلها بالأفئدة رهبة الموت
وجلاله ، وعادوا إلى ما كانوا فيه من سعى للدنيا وكذب
وبهتان وزور ، وأكل الأموال بالباطل ، ومد العيون إلى نساء
الآخرين ، والاحتيال بالخمر والميسر على سرقة الأموال وسلب
الزوجات والحريات ، وإحالة السادة والحرائر إلى عبيد .

واستمرت الشرور بين العرب من الأوس والخزرج واليهود ،

- ٢١ -

وذاث يوم نال العرب من اليهود ما يكرهون : فقال لهم
اليهود :

— إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل
عاد وإرم .

وأحس الأوس والخزرج رهبة ، فكثيرا ما سمعوا ذلك
من اليهود وهم أهل كتاب عندهم علم ليس عند أصحاب
الأوثان ، ترى لو تحقق ذلك الوعيد وبعث ذلك النبي ، فماذا
يفعلون ؟ !

كانت الدولة الرومانية تترنح تحت حكم الامبراطور
خوقاس ، وكانت تعيش في ظل كابوس رهيب من القوضى
الهدامة والظلم الذى يئن من وطأته سكان القسطنطينية
يوسكان الممالك الخاضعة للنسر الرومانى على السواء ، فقيصر
الإله يضارب فى تجارة القمح لتكسب فى خزائنه الأموال ،
ورجال الدولة يقتربون كل الموبقات فى سبيل الثراء العاجل ،
خسبوت الأسر النبيلة على النشاط التجارى وعلى الملاهى
ودور البغاء وعلى كل ما يجلب الذهب والفضة ، فقامت بعض
الأسر بتربية الدواجن واختكرت تجارتها ، واختكرت أسرات
أخرى صناعة الأبسطة ، وسيطرت أسرات على حانات الخمر
ودور الدعارة ، حتى الكنيسة نفسها اهتمت بالمسائل المصرفية
وإقراض الأباطرة بأموال تصرف على حروبهم للفرس لقاء
خوائد باهظة ، فلا غرو أن صار الناس جميعا فى الامبراطورية
الرومانية عبيد المال .

وكانت مصر وسورية وبعض الممالك الأخرى التى أوقعها
سوء طالعها بين برائن الرومان ، تقاسى من ظلم جباة الضرائب

الذين يتزعجون ثمرات الجهود المضنية ليحملوها إلى خزائن الامبراطور الذى لا يشبع نهبه للذهب والفضة ، فلم يجد أهلها منفى للثورة على الاضطهاد غير معارضة القسطنطينية فى لاهوتها ، فكانت حركة وحدة طبيعة المسيح فى مصر وسورية تستلهم وحيها من العداء الذى تكنه للحكام الرومان أكثر منها للعداء للمذهب .

وكانت عبادة الدولة والامبراطور سائدة فى الامبراطورية التى كان سوس الفساد ينخر فى عظامها ، وقد استشرى الانحلال لما أبت الطبقة الأرستقراطية أن تنسجم مع تلك العبادة والخضوع خضوعا مطلقا لقيصر ، فأصحاب الأراضى الراسعة يشكلون مشكلة خطيرة استعصى حلها على الدولة ، فهم أصحاب نفوذ وسلطان وقوة ومنعة ، وقلما كانوا يلينون للدولة وقوانينها أو يخضعون لرغبات الامبراطور .

وزاد الأمر سوءا لما كثرت هجرات البرابرة إلى المقاطعات الرومانية ، فقد جلبوا معهم المتاعب وعاثوا فى الأرض فسادا ، ففضى ذلك على قيمة الأرض وتمزقت الضياع الكبرى شر ممزق ، ووهنت قوة أصحاب الأراضى المناوئين لنزوات رأس الدولة فخلأ للامبراطور وجه الشعب يرهقه كما يشاء ، ويمتص دمائه يروى بها أراضيه لتثمر مزيدا من الذهب والأموال .

وضربت القوضى فى جنبات عاصمة الامبراطورية بعد أن ضاق الشعب بأعباء الحروب الطاحنة الناشبة بين الامبراطوريتين المتنافستين على سيادة العالم ، وقد أرهقت تكاليف هذه

الحروب دافعى الضرائب ووضح أثرها فى القسطنطينية ،
فارتفعت الأسعار ، وزادت الضرائب وعاش فقراء العاصمة فى
ضنك شديد ، وراحت أحيائهم القذرة تزاحم قصور الأغنياء ،
ولم يبق شئ بلا ثمن غير السيرك الذى فتح ابوابه للجميع
ليشغل التعصب لأحد فريقى السيرك قلوب الناس ، وكان
الامبراطور يحسب أن فى ذلك اللهو منفسا لما يعانى الشعب
من حرمان وضيق ، ولم يدر بخلده أن الفتن الداخلية كانت
تجد لها مرتعا خصبا بين الحشود التى تتقاطر على السيرك
كل ليلة .

وأغلق فوقاس جامعة القسطنطينية وهو يحسب أنه يخنق
بذلك صوت المثقفين الذين يرفعون أعلام العصيان فى وجه
سياسته الخرقاء التى لا تنشأ إلا إشباع شهواته المادية ، وملء
خزائنه بالذهب معبود العصر المحبوب ، ولم يخطر له على
قلب أن السيناتو : مجلس شيوخ الامبراطورية قد تأمروا عليه
وبعثوا إلى هرقل ابن حاكم إفريقية يحرضونه على أن يقبل
بجيشه لتخليص البلاد من الامبراطور الجشع الذى يشتري
قمح البلاد لحسابه ، ثم يبيعه بما يشاء من أسعار باهظة فى زمن
المجاعات .

وحمل هرقل جنوده فى السفن وأقلع من إفريقية إلى
القسطنطينية لينقذ البلاد من التردى فى هاوية الفساد ، وليرفع
عن صدرها الكابوس الرهيب الذى جثم عليها منذ تولى الحكم
فوقاس المفتون بالمظالم وجمع المال ، ودارت معارك بين حامية

القسطنطينية التي لا تؤمن بما تعارب في سبيله وبين جنود آمنوا بأنهم ما جاءوا إلا لإتقاذ بلادهم من الطاغية . فدارت الدائرة على من كانت قلوبهم هواء ، ودخل هرقل القسطنطينية دخول الظافرين وهتافات الترحيب بالمنقذ تعالى من كل مكان .

وقتل فوقاس وبقتله انهارت أسرة يوسطيانوس ، وهرع شيوخ السيناتو للترحيب بالرجل الذي اختاروه سرا لتخليص البلاد من براثن الامبراطور الجشع الطماع ، وتأهبت القسطنطينية لتتويج المنقذ امبراطورا على البلاد التي أنهكتها حروبها مع غارس . ومزقت وحدتها اجتلافها في المسيح ووحدته وطبيعته وإرادته ، وإن كانت كل الممالك الخاضعة للنسر الروماني تدن بالديانة المسيحية .

وإمدان القصر ورفعت الأعلام خفاقة فوق الدور والحوانيت . وفي الشوارع والبيادين . ولبت كنيّة أيا صوفيا كنيّة الحكمة المقدسة أبهى حللها . وماجت الجواهر في الطريق بين القصر والكنيّة . وتعلق الشاب الأشجع . سليل . وتدفتت البغايا من حينه القريب إلى طريق الموكب الامبراطوري . مشاركة منهم في أفراح الشعب .

ونفخ في الأبواق . وسرعان ما فتح باب القصر وخرجت منه الموسيقىات والمشاة في ثيابهم المزركشة ، ودروعهم المعدنية تتألق في الشمس ، وفي أيديهم الرماح والمباريس ، وقد تدلت على جنوبهم السيوف . ومن خلفهم الفرسان على ظهور الجياد كأنهم في حصون . ثم خرجت عربات رجال القصر والدولة .

تم عربة الامبراطور تحف بها كوكبة من خيرة فرسان
الامبراطورية . وما إن وقعت أعين الجواهر على هرقل حتى
تعلت الهتافات مدوية بحياة المنقذ . ابن السماء .

وبلغ الركب الفخم ميدان أيا صوفيا ، وقد اصطف فيه
الجند ، ووقف عند باب الكنيسة رجال السيناتو ورجال الدين
وكبار الضباط والقضاة وكبار رجال الدولة في ثيابهم المزركشة ،
وهبط الامبراطور من عربته بين ترحيب المستقبلين الذين علا
وجوههم بشر واستبشار بفاتحة عهد جديد في حياة
الامبراطورية الرومانية الخالدة .

وسار هرقل يعلوه الوقار في الكنيسة التي كانت آية من
آيات الفن البيزنطى ، وتقدم بين الصفوف إلى حيث وقف
البابا هونوريوس الأول ومن خلفه كبار رجال الدين حتى إذا
ما بلغ المحراب أدى صلاة شكر الله ، ثم دوى في جنبات الكنيسة
الهائلة الصامتة صوت البابا يعلن تنويج هرقل امبراطورا على
الدولة الرومانية بكل ما في حوزتها من بلاد .

ودخل هرقل قاعة العرش وفتحت الأبواب لوفود المهنيين ،
وما انتهت مراسيم الاحتفال حتى بعث في طلب المنجمين
والعرافين ليروا ما يخبئه القدر ، فراح المنجمون يرصدون
النجوم ثم عادوا إليه مطأطئي الرؤوس بأسرى الوجوه ، فالأسرار
التي كشفت عنها النجوم كانت رهيبة لا يجرؤ أحد منهم على
أن يلتقى بها في وجه هرقل أمل الامبراطورية ومنقذها العظيم .
ودخل المنجمون والعرافون على الامبراطور وقد ملأت

النشوة جوانحه وتأهب لسمع ما يثلج الصدور وما يشرق عليه من بهجة من وراء الغيب ، وراح المنجيون يحاولون أن تنم أساريهم عن الطائنة والهدوء وإن كانت أفئدتهم تدوى بين ضلوعهم في فزع وخوف ، وتقدموا وهم يترنحون حتى إذا ما وقعت أعينهم على الامبراطور خروا له ساجدين وقد أرهفت حواسهم وتمنوا لو يطول السجود حتى لا يرى هرقل ما يكرم في وجوههم .

وأمرهم بالنهوض فرفعوا رؤوسهم وقد زادت الأبصار وانقبضت الصدور وظهر في لفتاتهم وحركاتهم خوف شديد ، وأحس هرقل ما هم فيه من قلق واضطراب فأوجس خي وقاله في صوت متهدج :

— ماذا قالت النجوم ؟

فتقدم كبير منجسي القصر في خطوات وجلة وقال في صوت بدا كأنما قد أتى من أغوار سحيفة :

— نفس ما قالته من قبل يا مولاي .

ب وما الذي قالته من قبل ؟

— سيدمر الامبراطورية شعب مختون .

فهب هرقل في ثورة وقال في حلق شديد :

— ومتى هذا البلاء إن كنتم صادقين ؟

وصت كبير المنجمين وإن كان يرتجف من الرأس إلى القدم ، وسرت في أبدان العرافين رعدة شديدة خوفا من بطش الامبراطور الغاضب الذي غاض إشراقه لما مست النيوء

المشؤمة أذنيه ، وتقدم هرقل من كيز المنجين خطوات وهو يقول :

— تكلم .

— الأمان يا مولاي .

— لك الأمان .

فراح الرجل يروى على مسامع الامبراطور نبوءة تقلص ظل النسر الرومانى عن الأرض التى يرفرف عليها ويؤكد اندحار الجيوش الرومانية أمام جحافل جيش الشعب المختون ، وأن ذلك البلاء ليس قريبا وليس بعيدا ^(١) . فزفر هرقل فى غيظ وراح يصير على أنيابه يكاد أن ينفجر حنقا ، وما إن غادر المنجمون والعرافون قاعة العرش مطأطئي الرؤوس حتى راح الامبراطور يفكر فى التنكيل باليهود ، فهم فى وهمه الشعب المختون الذى تقول النبوءة إن صرح الامبراطورية سيتقوض بسيف بنه .

كان اليهود يعيشون فى عزلة فى الامبراطورية الرومانية لا يختلطون بغيرهم ترفعا ، ولا يتزوجون إلا فيما بينهم حتى لا يضيع الدم الطاهر فى الأمم ، فهم يؤمنون أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم كلاب البشرية ، وأن الإله إنما هو إله

(١) تولى هرقل الملك سنة ٦١٠ م وكانت معرعة اليرموك التى انتصر فيها

خالد بن الوليد على جيوش الروم ٦٣٦

إسرائيل وحدهم وأنه فضلهم على العالمين ، ولما كانوا متشبثين بتلك العزلة كان التنكيل بهم سهلا يسورا . فراح هرقل يسوقهم زمرا إلى الملاعب الرومانية يلقي بزعمائهم إلى الأسود أمام شعبه المفتون بإراقة الدماء ، ويفرض عليهم المجادلة والقتال حتى الموت على أعين فئات الامبراطورية وشبابها اللاجن وشيوخها الذين قدت قلوبهم من فولاذ ، والتهافتات تتجاوب في جنبات الملاعب التي كانت منفسا لكل الشرور .

واستمر هرقل في تعذيب اليهود وإلهاب ظهورهم بسوط عذاب ، وما دار بخلد أن الشعب المختون الذي سيدمر امبراطوريته تدميرا هم أتباع النبي الأُمى الذي بشر به السيد المسيح ، الفارقليط الذي سينزل عليه الكتاب المنيّر الذي سيمكث مع الناس إلى الأبد .

ع

برارى سهلة كثر فيها المزارع وقامت عليها أشجار النخيل
كالأبراج ، وانتشرت هنا وهناك بساتين خضراء وعيون جارية
وثمرات مختلفة الألوان كأنها العقيق والزمرّد والمرجان ، ومراعى
مستدة فى الوديان وعلى سفوح الجبال : وجبال وعرة وصحراء
واسعة مترامية وحسون مرتفعة ومعقل منيعة وبحر يخرج منه
اللؤلؤ والمرجان ، وقصور عجيبة وأبنية عظيمة ومدن عامرة ،
وتجارة ممدودة فى الدر والياقوت والمسك والكافور والعود
الرطب وأنواع العطر والفلفل والحديد والخير القصب
والتحف والسجاجيد والسيوف ، إنها أرض اليمن أرض الخير
والبركات .

وفى قبيلة دوس فى أرض اليمن كان الناس يطوفون بصنم
ذى الكفين وكان لعمر بن حُصّة الدوسى ، وكان الإله العظيم
الذى تقدم إليه القرابين والصلوات وترفع إليه الابتهالات
والدعوات ، وكان بين الطائفتين الطفيل بن عمرو الشاعر الشريف
الفنى الذى فتح أبواب داره للضيّفان ، وأبو أزيهر الدوسى

الذى خطب ابنة الوليد بن المغيرة أخت هاشم بن الوليد وخاله ابن الوليد والذى ربط بهذه المصاهرة الاسباب بين دوس وبين حى من أعظم أحياء قريش : فبنو مخزوم قد تساؤوا على الركب مع بنى هاشم وبنى أمية . وقد اشتعلت بين تلك الأحياء المنافسة على شرف زعامة أهل الحرم ، وإنه لمجد عظيم قد جلبه ابو ازهر لقيسته بتلك المصاهرة الكريمة التى تتوق إلى مثلها كل قبائل العرب .

وكان إلى جوار أبى ازهر صديقه الحميم سعد بن صبيح ابن الحارث بن سابی بن أبى صعب بن هنية ، وقد تعلق عيون الناس بالطفيل وأبى ازهر وابن هنية اشراف دوس وساداتها وأصحاب الأموال وأهل الذكر من بينها .

وكان بين الطائفتين شاب فقير آدم بعيد ما بين المنكبين ذو ضفيرتين أفرق الشيتين لا يلتفت إليه أحد ، إنه عبد شمس ابن أخت ابن هنية ، ولو قال كل العرافين والمنجمين للناس إن ذلك الشاب الفقير الذى يرعى غنم أهله والذى يقاسى شظف العيش سيصبح أشهر أهل دوس ، بل أشهر أهل اليمن جميعا لما صدقوهم .

إن عبد شمس وجد مرة وحشية لما كان صبيا فأخذ أولادها وعاد إلى البيت ووضع أولاد الهرة فى حجره وراح يدايعها ويحنو عليها ويطمسها ، ومر أبوه به فقال له :

— ما هذه فى حجرك ؟

فقال عبد شمس فى فرح :

- أولاد هرة وحشية .

ووقف أبوه ينظر إلى حذب ابنه على الهريرات الصغيرة
وعنايته بها وصبره عليها ، فقال له وهو منطلق إلى حجرته :
- أنت أبو هريرة .

وغلبت كنيته على اسمه فعرف في دوس كلها بأبى هريرة ،
وراح أبو هريرة يمضي وقته في رعى الغنم مع أخيه كريم ،
ويلعب أحيانا مع ابن عمه أبى عبد الله الأغر ، حتى مات أبوه
وهو صغير فشب يتيما لينصهر في بوتقة الحزن ويعتزل الناس
ويعود إلى نفسه ، استجماعا لشتات ذاته وامتلأكا لزمام أمره
لكي يزيد في تخبب حياته الباطنية ويضاعف من تراء عالمه
الداخلي ، حتى إذا ما بلغت أذنيه الدعوة إلى الله كان معداد
إعدادا نفسيا للتصديق والهجرة إلى الله ليرتسى بكل كيانه في
أحضان الدعوة الجديدة .

وأنتم الطفيل بن عمرو سيد دوس وشاعرها ، ولأبو أزيهر
صهر بنى مخزوم ، وابن هثنية صديق أبى أزيهر الحميم
مناسكهم ، فابتعدوا عن بيت ذى الكفين وهم يتحدثون في أمر
دنياهم ، فما كان الدين في أعناق ضمائرهم فهم يارسون
ما وجدوا عليه آباءهم عاكفين .

كان الحديث يدور حول سفر أبى أزيهر إلى مكة لزيارة
بيت الوليد بن المغيرة ، وكان الطفيل سميدا بخطبة أبى أزيهر
لبنت الوليد فأخوها خالد هو قائد فرسان قريش له الأعنة
وله القبة التى يضربونها إذا ما تأججت نيران الحرب ليجمعوا

إليها ما يجهزون به الجيش ، فمبصاهرة دوس لبني مخزوم
سترفع من شأن دوس بين قبائل اليمن . وكان ابن هنية مهمل
الأسارى فزواج صديقه من قرشيه سيفتح له بيوت سادات
أهل الحرم وأشرفها ، فراح يتحدث عن تلك الزيجة فى انفعال
وحماس لا يقل عن حماس الطفيل : بينا كان أبو أزيهر صامتا
يتظاهر بالإصغاء إلى الصديقين العزيزين وإن كان مشغولا
عنهما بالأفكار التى استولت على رأسه واستبدت به .

وانطلق أبو أزيهر إلى مكة فلما بلغها راح يطوف بالحرم .
ثم اتخذ سبيله إلى دار الوليد بن المغيرة فألقى هناك الوليد
وهاشم بن الوليد وخالد بن الوليد وأبا الحكم بن هشام بن
المغيرة (أبا جهل) وسادات بنى المغيرة وبنى مخزوم . فلما إن
وقعت أعين القوم عليه حتى خفوا إليه يرجون به أجسل
ترحيب .

وانتقل إلى حيث كان النسوة مجتعدات فى الدار خبر وفود
أبى أزيهر فأشرقت الوجوه واتجهت الأبصار إلى العروس بنت
الوليد فأطرقت حياء : فقامت إليها أساء بنت مخربة أم أبى
الحكم بن هشام تطيبها بأفضل ما عندها من أنواع الطيب .
وتحدثها حديثا رقيقا عن الدوسى القادم من اليمن بأموال
قومه ليدفع مهر العروس الجميلة سليمة بنى المغيرة الأمجاد .
ومر الوقت وطال السر ولم يفتح أبو أزيهر فيه بكلمة
عن المهر الذى وعد بدفعه لبنت الوليد فزان على المجلس قلق .
وبلغ ذلك القلق غايته لما نهض أبو أزيهر مستأذنا فى الانصراف

دون أن يرد ذكر المهر على لسانه ، فاستشعر بنو المغيرة بطعم الإهانة إلا أنهم تحملوا على مضض .

وبعيدا عن أهل البيت خلا هاشم بأبيه وقال في ثورة وغضب ، إن مما طلة أبى أزيهر في دفع مهر أخته إهانة لهم ، ولو ذاع ذلك الخبر بين الناس لنال من كرامتهم ، وإن الأمر أصبح يستدعى وضع حد لهذه المهانة . فراح الوليد يعمل جاهدا على إخماد ثورة ابنه ، وإن كانت نار الغضب تندلع في صدره وتوسع أفكاره .

وتصرمت أيام وأبو أزيهر يغدو ويروح بين دور بنى مخزوم والحرم ومجالس سادات قريش ، وبنو المغيرة يسألونه أن يدفع المهر الذي اتفقوا عليه وهو يعد ولا يتخذ شيئا مما يعد به ، فيزداد هاشم بن الوليد حنقا على حتى ، وهمس الناس في مكة أن أبا أزيهر الدوسي يماطل في دفع مهر بنت الوليد بن المغيرة ، وارتفع الهمس حتى صار حديث النوادي والسمائر ، وترامى ما يتندر به القوم إلى مسامع هاشم فران الغضب على قلبه وانسدلت أسجاف الحقد على بصيرته ، فانطلق كالعاصفة إلى حيث كان ذلك الدوسي الذي جعلهم سخرية في أفواه الناس . واحتدم النقاش الفاضب بين أبى أزيهر وهاشم . وملا الحق فؤاد هاشم فأعمى بصره وعقله واستولت عليه فكرة واحدة : أن ما لحقهم من إهانة لا يفصله إلا دم من دفعة طيشه إلى الجراءة عليهم ، فاستل سيفه وطعن به أبا أزيهر فأرداه قتيلًا ، وفي مثل لمح البصر ذاع في مكة خبر مقتل هاشم لأبى

أزيهر الدوسي ، وفي لحظات كان سادات قریش يدبرون قدام
الرأى بينهم ليروا لهم رأيا في تلك العداوة التي نشبت فجأة
بين قریش ودوس بعد أن أصبح بين القبيلتين ثأر .

كان تجار قریش في الشراة ، وهي صقع بالشام بين دمشق
ويثرب ، لا علم لهم بالتأر الجديد الذي سيجعل كل قرشى
مظلوما لدوسي ولو لم يشترك في دم أبى أزيهر ، فكان على
أشراف قریش أن يعيشوا إلى الشراة من يحذر من بها من تجار
قریش ، فأروا أن يعيشوا أرطاة بن سيحان حليف حرب بن
أمية ، وأن يعجلوا بذلك وأن يحثوه على الإسراع ليلفهم
الرسالة ليأخذوا حذرهم قبل أن يصل النبأ إلى الدوسيين
فيفسوا خناجرهم في قلوب القرشيين الغافلين .

ورأى حاجز الأزدي ما نزل بسيد من سادات قومه فراح
يسابق الريح ليخبر أهله بالرزء الفادح . وكان سباقا رهيبا
بين أرطاة الذي كان مع بنى أمية كواحد منهم وبين الأزدي ،
سباقا بين الحياة والموت ، وقد أحس أرطاة أن أرواحا بريئة
معلقة بأرجل راحته فراح يستحها على العدو دون رحمة
أو شفقة .

وبلغ أرطاة السراة وقد نال منه الجهد وكادت راحته تسون
من التعب ، وما أسرع ما انطلق إلى تجار قریش يقص عليهم
قتل هشام بن الوليد أبا أزيهر ويحذرهم غدر الدوسيين أخذا
بثأر من قتله هشام لمطله إياه بسهر أخته .

ونجا تجار قريش الذي كانوا في السراة ولكن ابن هثية
 صديق أبى أزيهر كان لا يأخذ أحدا من قريش إلا قتله
 بأبى أزيهر الدوسي ، ورأى أبو هريرة مقت خاله للقرشيين
 فنزل في قلبه بغضهم ، وقد وقر في ضميره أن هذه البغضاء
 قد سكنت سويداء قلبه وأن الزمن يعجز عن أن يغسل ذلك
 الغل الذي يملأ صدره ، ولم يخطر له على بال أن قرشيا أوشك
 أن يصطفيه الله ويعثه رحمة للقبائل بل للناس جميعا ليظهر
 القلوب من البغضاء ويؤلف بينها ، وأن أبا هريرة الحاقد
 سيكون بفضل من الله من أتباعه المقربين الذين يجدون في
 قربه غذاء للروح ونبراسا للعلم الصادق والحكمة العالية .

ألفان وخمسمائة بغير أناخت خارج الحرم والرجال يغدون
ويروحون بين دورهم ودار أبي سفيان ، فمكة كلها تتأهب
لرحلة الصيف التي ستنتقل إلى الشام وعلى رأسها سيد بني
أمية ، وقد جاء إلى أم القرى تجار ثقيف يقودهم أمية بن أبي
الصلت صديق أبي سفيان الحسيم ورفيقه في السفر .

وراح معاوية بن أبي سفيان يشئ إلى حيث جلس أبوه بين
سادات قومه وأمه هند بنت عتبة ترقبه وقد رفت على شفيتها
ابتسامة رضا ، وسرعان ما شرد ذهنها لترى نفسها في دار
الفاكه بن المغيرة زوجها الأول الذي جرح كبرياءها جرحا
لا تنساه .

كان الفاكه من فتيان قریش وكان له بيت للضيافة بارز
يفشاه الناس من غير إذن . فخلا البيت ذات يوم قاضطجع
هو وهند فيه ثم نهض لبعض حاجته ، وأقبل رجل من كانوا
يفشون البيت فولجه فلما رأى هنداً رجع هارباً ، وأبصره
الفاكه فأقبل إليها فركلها برجله وقال :
— من هذا الذي خرج من عندك ؟

— ما رأيت أحدا ولا اتبعت حتى أنبتهى .

— ارجعنى إلى أمك .

وارتجفت هند وهى فى مكانها فى بيت أبى سفيان من
الرأس إلى القدم ، فتلك الذكرى كلما هاجت تخزها وخزا
أليسا . وحاولت أن تطردها عن رأسها ولكنها ألحت عليها
وفرضت نفسها فرضا ، وراح كلام الناس يدوى فى أذنيها دويا
مفزعاً يكاد يمزق أعصابها وإن مضى على ذلك ثمان سنين .
وعلا صوت أبيها حتى غطى على كل صوت :

— يا بنية ، إن الناس أكثروا فيك فأنبئينى بنبك ، فإن
يكن الرجل عليك صادقا دبست عليه من يقتله فتقطع عنك
المقالة ، وإن يكن كاذبا حاكمته إلى بعض كهان اليمن .

— لا والله ما هو على بصادق .

— يا فاكه إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم ، فحاكمنى إلى
بعض كهان اليمن .

ورأت هند نفسها فى نسوة والفاكه فى جماعة من بنى
مخزوم وعتبة فى جماعة من عبد مناف ، والقافلة تنطلق إلى
اليمن حتى إذا شارفوا البلاد قالوا :
— غدا نرد على الرجل .

ورن فى أذنيها صوت أبيها وقد نم عن الريبة :
— إبنى أرى ما حل بك من تنكر الحال وما ذاك إلا لمكروه
عندك .

— لا والله يا أبتاه ما ذاك لمكروه ، ولكنى أعرف أنكم

تأتون بشرا يخطيء ويصيب ولا آمنه أن يسئني ميسما يكون
على سببة .

— إني سوف أختبره .

فصفر عتبة بن ربيعة بفربه حتى أدلى . ثم أدخل في
إخيله حبة بر وأوكأ عليها بسير ، فلما أصبحوا قدموا على
الرجل فأكرمهم ونحر لهم ، فلما قعدوا قال له عتبة :

— جئناك في أمر وقد خبات لك خبئا أختبرك به ، فانظر

ما هو ؟

— ثمرة في كمره .

— إني أريد أبين من هذا .

— حبة في إليل مهر .

— صدقت . انظر في أمر هؤلاء النسوة .

فجعل يدنو من إحداهن فيضرب يده على كتفها ويقول :
— انهضى .

حتى دنا من هند فإذا بها تكاد تموت رعبا . فشرفها قد
بات معلقا بكلمة تخرج من بين شفثيه فقال لها :

— انهضى غير زانية ، ولتلدن ملكا يقال له معاوية .

وتهللت أساريرها وهي في مكانها ترنو إلى معاوية ، ورات
في وضوح على صنفحة ذهنها الفاكه وهو ينهض إليها فيأخذ
بيدها وهي تشر يدها من يده وتقول :

— إليك عنى ، فوالله إني لأحرص أن يكون ذلك من

غيرك .

كانت لحظة قاسية لكانها دهر سرمد ، ترى ماذا كان مآلها
لو أن الرجل أخطأ . وانتفضت وهى فى مكانها كعضفور بلله
القطر ، وانتبهت من ذلك الكابوس الذى ران عليها على
أصوات الرجال المقبلين المدبرين . فألفت رجلا يتفرس فى وجه
معاوية فصوبت إليهما بصرها وكل حواسها . فالتقطت أذناها
قول الرجل :

— إن هذا الفتى سيسود قومه .

فردت هند على الرجل فى حدة :

— ثكلته أمه إن لم يسد إلا قومه .

كانت أحلام هند عريضة ، وكانت ترجو لابنها ملكا كملك
كسرى أو قيصر ، فراحت تبث فيه التطلع إلى السيادة وتوسع
آفاق حبه للسيطرة ، وما كانت هند بدعا بين سيدات قریش ،
فأم الفضل بنت الحارث الهلالية زوج العباس كانت ترقص
ولدها عبد الله بن عباس قائلة :

ثكلت نفسى وثكلت بكرى

إن لم يسد فهرا وغير فهر

بالحسب العد وبذل الوفير

حتى يوارى فى ضريح القبر

وجاء الليل وماج الناس بعضهم فى بعض : وجلست
صاحبات الرايات الحمر لاستقبال الرجال : سريفة جارية زمعة
ابن الأسود ، وعناق صديقة دلدل ، وفرسة جارية هشام بن
ربيعة ، وأم عيط جارية صفوان بن أمية ، وحنة القبطية جارية

العاص بن وائل . ومرة جارية مالك بن عسيلة . وحللة جارية سهيل بن عمرو . وأم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومي . وقريبا جارية هلال بن أنس بن جابر . وغاص المكان بتجار الفساد وجند الشيطان والباحثات عن الذهب .

وأقبل أبو سفيان وإلى جواره صديقه العزيز أمية بن أبي الصلت الطامع في النبوة . يخف بها سادات قريش ، فلما وقعت أعين الناس على سيد بني أمية ساد المكان سكون وأرهفت الآذان ، فإذا بصوت أبي سفيان يجلجل إيذانا بالرحيل ، فكثر العناق واشتد وجيب القلوب في الصدور وانهرت الدموع من العيون ، وتحركت آلاف الرواحل وراح الفرسان يحرسون قافلة أبي سفيان فيدا كأن مكة كلها قد خرجت إلى الشأم .

وانطلقت القافلة في معبد الله وأبو سفيان يصدر أوامره . وأمية بن أبي الصلت هائم في الوجود يقلب وجهه في ملكوت السموات والأرض ويجتهد في الوصال بالذات العلية التي يطعم في أن تبعثه هاديا ومبشرا ونذيرا . ونزلت القافلة منزلا فلم يعتزل أمية قومه ليأنس بربه ويأخذ في ذكره ليسعد بجلاء قلبه فتتكشف له أكثر الحقائق بكشف إلهي ، بل أخذ سفرا له يقرؤه على أصحابه فقد كان أمية يحصل العلوم من الكتب . فصار محجوبا عن الله باعتقادات تقليدية جمدت في نفسه ورسخت في قلبه وصارت حجابا بينه وبين درك الحقائق ، فلم يورثه الله علم ما لم يعلم .

واستأنفت القافلة رحلتها وأمية يفكر فيما قرأه في الكتب ، فلم يتصل بالله ولم يفتح الله عليه من مزايا لطفه ورحمته ، وحجبت عن قلبه أنوار العلوم ولم تتجل فيه حقيقة الحق في كل الأمور ، فرغبته الجامعة في النبوة ليتها بها على الناس حالت بينه وبين أن يصفو قلبه لله وحده ، فمنعه الله من مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته والتعرض لنفحاته المبذولة بحكم جوده وكرمه ، فالقلب مقبول من الله إذا سلم من غير الله . فمن كان لله كان الله له .

واستمر أمية يقرأ الأسفار على أصحابه كلما نزلوا منزلا في الطريق حتى نزلوا قرية من قرى النصارى . فجاء بعض الرهبان إلى أمية وأكرموه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيوتهم . ثم رجع في وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما ، ثم التفت إلى أبي سفيان وقال :

— هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله ؟

لم يكن أبو سفيان مهتما بالنبوءات التي شغلت أذهان المترقبين للبعثة ، وما كان من المهتسين بالإرهابات الدائمة على قرب ظهور النبي المنتظر فقال في عدم اكتراث :

— لا إرب لى فيه . والله لئن حدثنى بما أحب لا أثق به ، ولئن حدثنى بما أكره لأجدن منه .

فذهب أمية في مسوح الرهبان ليسأل ذلك العالم عما شغله ، وليعبد الله مع الرهبان لعل الله يستجيب لدعائه ويبيعه

هاديا إلى قومه ويحقق رجاءه ، وخالفه شيخ من النصارى
فدخل على أبى سفيان فقال :

— ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟
— لست على دينه .

— لئن ذهبت إليه لتسمعن عجا !!

وصمت قليلا ثم قال لأبى سفيان :
— أثققي أنت ؟

— لا ، ولكن قرشى .

— فما يمنعك من الشيخ ؟ ! فوالله إنه لجكم وبه صى
بكم .

وخرج النصرانى من عند أبى سفيان ، ومكث أمة عند
أصدقائه النصارى حتى جاء قومه بعد هدأة من الليل فطرح
ثوبيه ثم انجدل على فراشه ما نام ولا قام حتى أصبح كئيبا
حزينا . ترى ماذا قال له العالم الذى تناهى إليه علم الكتاب
حتى ران عليه ذلك الحزن وتلك الكآبة ؟

وانقضى الليل وما يكلم أمة أصحابه ولا يكلمونه ، ثم
التفت إلى أبى سفيان وقال فى تبرم :

— ألا نرحل ؟

— وهل بك من رحيل ؟

— نعم .

فرحلوا فصاروا ليلتين وأمة صامت لا ينبس بكلمة ،

وطل شارّد الفكر حتى إذا ما كانت الليلة الثالثة التفت إلى
أبي سفيان وقال :

— ألا تحدث يا أبا سفيان ؟

— وهل بك من حديث ، والله ما رأيت مثل الذى رجعت
به من عند صاحبك .

— أما إن ذلك لشيء لست فيه ، إنما ذلك لشيء وجلت منه
من منقلبى .

— وهل لك من منقلب ؟

— إى والله لأموتن ثم لأحيين .

فالتفت إليه أبو سفيان وقال فى سخرية :

— هل أنت قابل أماتنى ؟

فقال أمية دون أن يظن إلى رنة الهزء البادية فى صوت
أبي سفيان :

— على ماذا ؟

— على أنك لا تبعث ولا تحاسب .

فضحك أمية ضحكة مريرة ثم قال :

— بلى والله يا أبا سفيان لنبعثن ثم لنحاسبن وليدخلن
فريق الجنة وفريق فى النار .

— ففى أيهما أنت أخبرك صاحبك ؟

— لا علم لصاحبى بذلك لا فى ولا فى نفسه .

ومضت ليلتان والحوار دائر بين الصديقين ، أمية يعجب
من أبى سفيان الذى ينكر البعث والحساب وأبو سفيان يضحك

منه ، حتى قدمت القافلة غوطة دمشق فباعوا متاعهم ، وأقاموا بها شهرين فارتحلوا حتى نزلوا قرية من قرية النصارى . فلما رأى الرهبان أمية بن أبى الصلت جاءوه واهدوا له وذهب معهم إلى يبعهم فما جاء إلا بعد منتصف النهار ، فلبس ثوبين وذهب إليهم حتى جاء بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه ورمى بنفسه على فراشه فما نام ولا قام وأصبح حزينا كئيبا لا يكلم أصحابه ولا يكلمونه .

وعجب أبو سفيان فطلما خرج مع أمية ولكنه لم يجده مهموما مثل ما وجدته في هذه الرحلة ، ترى ماذا يقول له أصحابه الرهبان وفيهم يتحدثون وما الذى يجعله يعود من عندهم حزينا كئيبا ؟

وقال أمية لأبى سفيان :

— ألا نرحل ؟

— بلى إن شئت .

فرحلوا وأمية شارد حزين يضيق صدره بنا سمع من الرهبان : فلما انقضت ليالى لم يستطع صبرا على الأفكار التى تدور فى نفسه فقال :

— يا أبا سفيان هل لك فى المسير لتتقدم أصحابنا ؟

— هل لك فيه ؟

— نعم .

فسارا حتى برزا من أصحابهما ساعة ثم قال أمية :

— هيا صخر .

- ما تشاء ؟
- حدثني عن عتبة بن ربيعة ، أيجتنب المظالم والمحارم ؟
- إِي والله .
- ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟
- وأحسن أبو سفيان أن ذلك الحديث تنفيس عن الأفكار التي تدور في رأس أمية والتي ولدتها خلوته مع أصدقائه النصارى الذين كان على دينهم ، فقال :
- إِي والله .
- وكريم الطرفين وسط في العشيرة ؟
- نعم .
- فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟
- لا والله لا أعلم .
- أمحوج هو ؟
- لا بل هو ذو مال كثير .
- وكم أتى عليه من السن ؟
- قد زاد على المائة .
- فقال أمية في أسي :
- فالشرف والسن والمال أزرين به .
- فقال أبو سفيان في عجب :
- ولم ذاك يزري به ؟ لا والله بل يزيد خيرا .
- فقال أمية في ثقة :
- هو ذاك .

وصمت قليلا ثم قال :

— هل لك في المبيت ؟

— لى فيه .

ونزلوا منزلا وباتوا فيه ، وأبو سفيان يفكر فيما قال أمية
ويحاول أن يميظ اللثام عن حديث صديقه دون جدوى فـما كان
بقادر على أن يفهم أن الشرف والسن والمال تزرى بإنسان .
حتى إذا ما لاحت الشمس في الأفق الشرقى ارتحلوا . فلما
كان الليل قال أمية :

— يا أبا سفيان .

— ما تشاء ؟

— هل لك في مثل البارحة ؟

كان أمية متلهفا على أن يخلو بصديقه يناجيه ويث حزنه
ويفصح عن بعض ما يجول في خاطره لعله يقضى على ذلك
القلق الذى استبد به منذ سمع من الرهبان ما سمع . فقال
أبو سفيان :

— هل لك فيه ؟

— نعم .

فسارا على ناقتين نجيتين حتى إذا برزا قال أمية :

— هيا صخر . هيه عن عتبة بن ربيعة ؟

— هيا فيه .

— أيجتنب المحارم والمظالم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

واتسعت عينا أبى سفيان دهشة ، فها بال صديقه بـكرير

ما قاله من قبل ؟ إن في رأسه أشياء لا يريد أن يفصح عنها ولا يقوى على كتمانها . أشياء أقلقته وأطارت الطمأنينة من فؤاده . بل لعلها حطت أملا عظيما من آماله . وقال في انتباه :
— إني والله إنه ليفعل .

— وذو مال ؟

فقال أبو سفيان وهو يحاول أن يستشف ما وراء ذلك الحديث :

— وذو مال .

— أتعلم قرشيا أسود منه ؟

— لا والله ما أعلم .

— كم أنى له من السن ؟

وزاد عجب أبي سفيان فقد أنباه بذلك من قبل ، ولكنه رأى من الخير أن يجاريه حتى يكشف عن خواطره فقال :
— قد زاد على المائة .

— فإن السن والشرف والمال أزرين به .

— كلا والله ما أزرى به ذلك ، وأنت قائل شيئا فقله ، فقال أمية في شرود :

— لا تذكر حديثي يأتي منه ما هو آت .

وأطرق برهة ثم قال :

— فإن الذي رأيت أصابني أنى جئت هذا العالم فسألت عن أشياء ثم قلت : أخبرني عن هذا النبي الذي ينتظر . قال : هو رجل من العرب . قلت : قد علمت أنه من العرب ، فمن

أى العرب هو ؟ قال : من أهل بيت تحجه العرب . قلت :
وفينا بيت تحجه العرب . قال : هو من إخوانكم من قرش .
وأحس أمية أن صوته يتهدج وأن مرارة ملأت فيه ،
فصمت قليلا ثم قال :

— فأصابنى والله شيء ما أصابنى مثله قط ، وخرج من
يدى فوز الدنيا والآخرة وكنت أرجو أن أكون إياه ... قلت
للعالم : فإذا كان ما كان فصفه لى . قال : رجل شاب حين دخل
فى الكهولة ، بدؤ أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم
ويأمر بصلتها ، وهو مجوج كريم الطرفين متوسط فى الغشيرة ،
أكثر جنده من الملائكة . قلت : وما آية ذلك ؟ قال : قد
رجفت الشام منذ هلك عيسى بن مريم عليه السلام ثمانين رجفة
كلها فيها مصائب ، وبقيت رجفة عامة فيها مصائب .

فقال أبو سفيان فى حدة :

— هذا والله الباطل ، لئن بعث الله رسولا لا يأخذه إلا
مسنا شريفا .

— والذى حلفت به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان تقول إن
قول النصرانى حق . هل لك فى الميت ؟
— نعم . لى فيه .

فباتوا ثم خرجت قافلة أبى سفيان قاصدة مكة ، حتى إذا
كان بينهم وبينها مرحلتان ليلتان ، أدركهم راكب من خلفهم
فسألوه فإذا هو يقول :

دعوة ابراهيم

— أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمرت أهلها ، وأصابتهم فيها مصائب عظيمة .

فأقبل أمية على أبي سفيان فقال :
— كيف ترى قول النصراني يا أبا سفيان ؟

فقال أبو سفيان وقد نظر في شروء :
— أرى وأظن والله أن ما حدثك به صاحبك حق .

وخرج أهل مكة لاستقبال القافلة العائدة من الشام ، وكثر العناق واشتد وجيب القلوب في الصدور وانهمرت الدموع من العيون . والتقى أبو سفيان وأمие بن أبي الصلت بمحمد ابن عبد الله ، ولم يخطر لهما على قلب أن ذلك الرجل الشاب حين دخل في الكهولة ، الذي يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، هو النبي المنتظر .

كان البيت غارقا في الضمت وخديجة وفاطمة وعلى لاذوا
بالسكوت ، قرب البيت محمد بن عبد الله في غرفته يناجى ربه ،
وأم أين في الطبقة الأولى من الدار ترعى شئونها ، وخرج زيد
ابن محمد إلى الحرم ، وانطلق هند بن أبي هالة ابن الطاهرة
سيدة نساء قريش إلى بعض شئونه .

وكانت خديجة في سرور روحى فياض ، فهي ترى بعين
بصيرتها أن أنوارا تفيض في دارها كأنما تنسكب من السماء ،
أنوارا تتألق في الليل والنهار تبهر أنوار الشمس التي رأتها
في منامها تهبط من السماء لتستقر في دارها قبل أن تتزوج
أبا القاسم ، وقد صارت تشم روائح زكية يفوق أريجها كل
ما في الأرض من طيب وعطر ، إنها عيرينعش الروح وينزل
بالنفس نشوة صافية سرمدية تشرح الصدر وتملأ الجوانح
بالرحمة .

وكانت تحس أن شيئا غامضا مثيرا ينفث في روعها أنها
مقبلة على أروع أيام حياتها ، وأن أنوار اليقين تشرق في قلبها
فتبتد عن سمائه كل السحب التي كانت تربطها بالدنيا حتى

لتكاد أكثر الحقائق أن تنكشف لها ، وكانت تفعم بمشاعر نبيلة
كلها روحانية فتظفر الدموع من مقلتها شكرا لله على أن خصها
بلطفه ورحمته .

ووقعت عينا خديجة على ما في دارها من فاخر الرياش
والتحف النادرة التي استوردت من الشام ومصر والعراق
وفارس فلم تحفل بالطرف الغالية والترف الذي ران على
المكان ، بل زهدت في كل متاع بعد أن تعلمت في مدرسة
أبي القاسم أن المال يأكل نفسه وأنه لا يفرح به وأن قيمته في
قدر الحاجة إليه ، وأن الكنز الحق هو كنز صالح الأعمال ،
وأن التفرح في الله هو نبع السعادة الذي لا ينضب بل يربو
ويزداد كلما نهل منه الناهلون .

كانت أموالها ممدودة ولكنها كانت زاهدة فيها ، فأبو
القاسم قد غرس فيها حب الإيفاق وأن تكون كل حركاتها
وسكناتها لله لا تريد بها إلا وجهه ، فقادها إلى يسوع الفرح
الصافي فصلحت نيتها في الأخذ والترك والإيفاق ، وعرفت
السعادة الحقة بالقرب من الله وتمريض قلبها لنفحات رحمته .

لقد مضت خمس عشرة سنة وهي في كنف أبي القاسم
تبدلت فيها نظرتها إلى الحياة والكون وما وراء الطبيعة ، فبعد
أن كانت تتهلل بالفرح كلما عادت قوافلها بالأرباح زهدت في
هذه المادية الطاغية بعد أن ذقت حلاوة رفقة الروح في
الملكوت ، والفرح الفياض في الجهاد المجنح للاتصال بذات

الذوات ، والاستبشار بصفاء القلب وتزكيته وجلائه وإشراق
أنوار المعرفة فيه .

كانت في حيرة في عباداتها قبل أن يعرف النور طريقه إلى
دارها ، فقد تفتحت عينها أول ما تفتحت على عبادة الأصنام
وتقديس اللات والعزى ومناة وهبل ومئات التماثيل المقدسة
في الكعبة ومن حولها ، ثم لما تزوجت من هند بن أبي هالة
ابن زرارة التميمي عرفت الشيء الكثير عن عبادة تميم وكانوا
يدينون بالمجوسية ويعبدون النار ، ولما كفر ابن عسها ورقة بن
نوفل بدين قومه واعتنق النصرانية كانت تلقى إليه سماعها وهو
يحدثها عن إله بنى إسرائيل ورب المسيحيين فكانت مشتتة
الفكر ليس لها قرار . حتى إذا ما جاء ابن عبد الله إليها بدد كل
الشكوك وبذر في عين ذاتها بذور الإرادة والإخلاص ، وراح
يديرها على السير في طريق الله والتماس بقاء لا فناء فيه وعز
لا ذل فيه وأمن لا خوف فيه وغنى لا فقر فيه وكمال لا نقصان
فيه ، فأصبحت تستشعر أن عالمها أوسع من العالم الأرضي ،
وأن ملكتها أعظم من كل الممالك ، وأن استدرار لطائف
المعارف من خزائن الملكوت خير وأبقى من الأموال المكنوزة
وزينة الحياة الدنيا .

وسمعت خديجة وهي في مكانها صرير باب فاتبته فقد
انتهى أبو القاسم من صلاته ، وعرفت فاطمة الزهراء أن أباهما
الحبيب قادم فأشرق وجهها بالبشر ، ولاح على وجهه على بن
أبي طالب الانشراح فقد كانت أسعد الأوقات تلك الساعات

التي يفيضها رب البيت مع من في البيت يفيض عليهم من حثائه
وعليه وحكمته .

وأقبل محمد على أهل بيته وهو يتسم ، فرأت خديجة فيه
هالة من نور تزداد تألقا على مر الأيام حتى لتكاد أن تفيض على
مكة وتملأ الآفاق . ورأت فيه فاطمة جوهر الحنان وينبوع
الحب فهرعت إليه رقيقة كالنسيم طاهرة كالندى متفتحة كزهرة
الربيع ، ففتح لها ذراعيه فارتعت في أحضانه فرفعها بين يديه
وقبلها قبلة رقيقة لكأنها ذوب نفس لطيفة لبها الرحمة والصفاء .
ورأى فيه على الوالد الحنون والقُدوة الصالحة والأسوة الحسنة
ومدينة العلم التي ينهل منها ما يشاء كيفما يشاء وأنى يشاء ،
ففتح نفسه وقلبه وعقله لأنوار المعرفة والحكمة المتدفقة من بين
شفتي ابن عمه الكريم

وجلسوا ترفرف عليهم البركات وترعاهم عناية الساء ،
فهم في حركاتهم وسكناتهم يجاهدون في الله ليهديهم الله سبيله ،
يمشون مع الله آناء الليل وأطراف النهار حتى صارت قلوبهم
تخفق بذكر الله ، فقد صبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع
الله وذكروا الله فذكرهم الله .

كانت دار خديجة في ظاهرها إحدى دور مكة التي تحيط
بالحرم ، ولكنها كانت في حقيقتها دارا تختلف عن كل ما حولها .
فدور أم القرى مشدودة إلى الأرض غارقة في الظلمات وإن
انسكبت من أنوارها أنوار النهار . بينا كانت هي منجذبة إلى

السماء تشرق فيها أنوار تبهر الوجدان وتثير الأفئدة على الدوام .

ونفض أبو القاسم ليدور على دور بني هاشم وبني زهرة ويزور بناته قبل أن يعتكف في غار حراء طوال شهر رمضان يتحنث ويأنس بربه ، فهو يصل رحمه ويعرف للقرابة حقها ، وهو يحب أن يشب ابن عمه الذي يتربى في رعايته على صلتته لأرحامه . فأخذ عليا معه وانطلق إلى دار أبي طالب .

واستقبل محمدا في الدار التي تكفلت به صيبا أحسن استقبال ، وأقبل على عمه وامرأة عمه فاطمة بنت أسد وأبناء عمه عقيل وجعفر وطالب بكل عواطفه فهو بطبعه لا ينسى فضلا لذوى الفضل ، وقد وجد في أهل ذلك البيت من العطف والرعاية ما عوضه من موت أمة وفقد عبد المطلب .

واستأذن محمدا في الانصراف فالتفت فاطمة بنت أسد من على أن يمضي نهاره عندها مع إخوته ، فأبى الصبي أن يفرق عن ابن عمه ولو لساعات فأسعد الأوقات وأمتعها لروحه تلك الفترات التي يعيش فيها مع أبي القاسم يستأثر وحده بعذب حديثه وغزارة علمه وفيض حكمته .

وانطلقا إلى دار عمهما أبي لهب فإذا بامرأة عمهما أم جميل بنت حرب بن أمية ترحب بهما وتبش لهما ، وإذا بأبي لهب يقبل عليهما وقد أشرق وجهه بابشامة صادقة ، فقد كان أبو لهب يحب محمدا حبا صادقا وكان حريصا على أن يزوج ابنه عتبة ومعقب لرقية وأم كلثوم ابنتي ابن أخيه الأمين .

وهرعت جارية إلى حيث كانت رقية وأم كلثوم وقالت لهما :
إن أباهما قد جاء لزيارتكما . فطارتا بجناح الشوق إلى حيث
كان الوالد الحنون ففضهما إليه في حب شديد ، وما لبث أن
جاء عتبة ومعتب ليسلما على أبي القاسم .

ودار حديث رقيق ورفرفت السعادة على الجميع ، وكان
محمد أكثرهم انشراحا واستبشارا فابنتاه العزيزتان تعيشان في
دار عمه أبي لهب عيشة راضية ، وقد زاد في سروره أن قرأ في
عينى ابنى عمه حبهما لرقية وأم كلثوم .

وخرج أبو القاسم وعلى لزيارة زينب ، وقد ذاع في مكة
خبر حب أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس
ابن عبد مناف بن قصي لابنة خالته زينب بنت محمد ، فأبو العاص
كان كثير السفر في تجارته ، وكان إذا هزه الشوق إلى امرأته
راح ينشد الشعر شوقا إليها ، وقد ردد الرواة قوله فيها :

ذكرت زينب لما ورّكت أرمي

فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما

بنت الأمين جزاها الله صالحة

وكل بعل سيئنى بالذى علميا

وبينا كان محمد وعلى في طريقهما إلى دار أبي العاص إذا
بفتى قصير دحداح في السابعة عشرة من عمره قد جلس يبرى
النبل ووقف عند رأسه حمزة بن عبدالمطلب ، فالتقى محمد على
عمه حمزة تحية طيبة ثم حدث الفتى حديثا يترقق بالمحبة ،
ولا عجب فقد كان الفتى سعد بن أبي وقاص ، وأبو وقاص

هو مالك بن وهيب عم آمنة بنت وهب ، فكان محمد ينظر إلى سعد على أنه خاله ، فكل بنى زهرة أخواله .

وفي دار أبي العاص بن الربيع سعدت زينب بزيارة أبيها ، وسعد محمد بابنته وزاده غبطة أن زوج ابنته قد عرف في مكة بالأمين كما عرف هو نفسه بذلك من قبل . وراحت هالة بنت خويلد تسأل عن أختها خديجة وعن فاطمة الزهراء وعن الأئمة زينب ورقية وأم كلثوم ومحمد يجيب وقد انفرجت شفاته عن الرقة ولاح في عينيه المحمرتين صفاء النفس .

وفيما كان محمد وأبو العاص وهالة وزينب وعلى آخذين بأطراف الحديث إذ أقبل نوفل بن خويلد ليزور أخته ، وسرعان ما جاءت صفية بنت عبد المطلب ومعها ابنتها الزبير بن العوام بن خويلد لرؤية هالة بنت خويلد ففاضت القلوب بالرحمة ، وأحسن نوفل بعطف صفية على ابنتها فتذكر يوم أن رأى صفية تضرب ولدها الزبير وهو صغير بعد أن قتل أبوه في حرب الفجار وتغلظ عليه ، فعاتبها في ذلك وقال لها فيما قال : أنت تبغضينه . فمس أذنيه وهو في مجلسه قولها له في ذلك اليوم :

من قال إنني أبغضه فقد كذب وإنما أضربه لكي يكلب ويهزم الجيش ويأتى بالسلب ولا يكن لماله خبء مخب يأكل ما في الظل من تمر وحب

كان جبل الوداد موصولا بين محمد وقومه فهو يزور كل من كان بينه وبين بنى هاشم صلة قربي ، فإذا مرض أحد من

بنى مخزوم عاده فهو يذكر أن جدته أم أبيه عبد الله منهم ،
ويفتح قلبه لآل عفان وبنيه فعفان تزوج أروى بنت عامر بن
كريز ابنة عته أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب توأم أبيه ،
وقد قرب عفان بن عفان إليه لدمائة خلقه وأماته التي اشتهر
بها فضلا عن أنه ابن بنت عته .

ولما مات عفان تزوجت أروى عقبة بن أبي معيط فولدت
له الوليد وعسارة وخالدا وأم كلثوم ، فاتصلت الأسباب بينه
وبين عقبة وآله . وكانت الصلات وطيدة بينه وبين بنى هلال لأن
أم الفضل بنت الحارث الهلالية زوج عمه العباس منهم ، وبينه
وبين بنى كلداء في الطائف فالحارث بن كلداء طيب العرب كان
زوج خالته ، وقد مرض سعد بن أبي وقاص ذات يوم مرضا
فعاده أبو القاسم فقال : ادعوا له الحارث بن كلداء فإنه رجل
يتطب . فلما عاده الحارث نظر إليه وقال : ليس عليه بأس ،
اتخذوا له فريقة ^(١) بشيء من تمر عجوة وحلبة يطبخان .
فتحساها فبرئ .

كان قلب محمد بن عبد الله كبيرا يسع كل من كان بينه وبينه
صلة رحم مهما كانت تلك الصلة بعيدة ، وكل من أسدى إليه
معروفا مهما كان ضئيلا ، فهو لا ينسى أبدا حليلة السعدية
التي أرضعته ، ولا ثوية التي بشرت عمه أبي لهب بمولده ،
ولا مرضعات بناته ولا حواضنهن ، ولا أى ممن اتصل به

(١) تمر يطبخ بحلبة .

بسبب ، وكان عطفه سائغا عليهم جميعا فلا غرو أن أحبه كل من عرفه . ولو شاء أن يعيش في سويداء قلوب قومه ناعم البال ينعم برغد العيش لوجد في أموال خديجة ما يغنيه أبدا وما يرفعه إلى السؤدد والجاه والسلطان ، وفي حب الناس ما يرضى نفسه . ولكنه ما خلق للحياة الناعمة فقد اصطفاه الله ليجاهد في سبيل تبليغ رسالة ربه ، ويتحمل الألم والعذاب والاضطهاد وعداوات الذين كانت قلوبهم تخفق بحبه حتى يتم الله نوره ولو كره الكافرون .

٧

أجذبت الحضارة الرومانية والحضارة الفارسية وضج رعايا الدولتين من فداحة الضرائب : فقد ذابت الأموال في الحروب الناشئة بين الرومان والفرس وكان على الناس أن ينفذوا خزائن الدولتين اللتين أصبحت العداوة بينهما سمة العصر وحديث الدنيا .

ووهنت إشعاعات الثقافة الرومانية والثقافة الفارسية فلم يجد العرب ما ينهلون منه إلا قشور المعرفة ، وحسبوا أن الرقيّ موائد تمد وشراب وترف ولهو وغناء وقيان ورقص وقمار : فراح سادات العرب وأشرافهم يحاولون أن يقلدوا ما في البلاط الفارسي من ترف وما في قصور القسطنطينية وحوران وبصرى من الضلال ، فمرت الجهالة في مكة وفي كل القبائل في شمال الجزيرة العربية وجنوبها ، وظهر الفساد في البر والبحر .

وبدا أن القبائل كلها تقاسى من طور المراهقة ، فلا سلطان لأحد على أحد محاولات دائبة للتحرر الاجتماعى والسياسى والدينى من قيود شريعة القبيلة ، فكانت المجتمعات العربية

تكايد انهيارا معنويا قد خمدت فيه النوازع والنواهي ، فمات
الإحساس بالندم لا سخط على فعل سييء ولا شعور بعار ،
بل زهو بإتيان الفواحش وإهدار الكرامة الإنسانية وسفك
الدماء البريئة ، وما بقيت بعض الفضائل إلا للزهو والتفاخر .

وكانت حاسة الشرف ترمجر بين صدورهم كالوحيش
الضاري وإن كانت كل فعالهم لا تمت للشرف ، فقد كانوا
جميعا كالذئاب العادية والوحوش النافرة يأكل بعضهم بعضا :
السلب فضيلة ، والرجال الأحرار موثقون في حلق الأسر ،
والنساء الحرائر ينتزعن من أحضان بعولهن ليلهو بهن اللاهون
ويتغنى بما وقع عليهن من اعتداء المغنون ويفخر بذلك المفتخرون ،
فاغتصاب امرأة صار حديث السمار فهو يعد ضربا من ضروب
البطولة والزهو .

وكان الشعراء يفخرون بسبى رجال قبائلهم لنساء أعدائهم ،
فقد قال جرير يعير بني دارم بغلبة قيس عليهم يوم رحرحان :
وبرحرحان غداة كبّل معبد

نكحت نساؤكم بغير مهور

وكانوا يعيرون نساءهم بأن الرجال لهم إيهن وسيلة ، فقد
قال فارس الفوارس عترة لامرأته :

إن الرجال لهم إليك وسيلة

أن يأخذوك تكحلى وتخصبى

وأنا امرؤ إن يأخذوه عنوة

أقرن إلى شد الركاب وأجنب

ويكون مركبك القعود ورحلة
وابن النعمامة عند ذلك مركبى

وكانوا يحاولون أن يفتخروا حتى بما فيه مهانة ، فقد حاول
شاعر أن يزهو بأنه يجد في أثر السبايا المردفات على حقائب
الإبل ليستنقذهن بالعشى ، فقال :
وأوثق عنسد المردفات عشيية
لحاقا إذا ما جرى السيف مانع

ف قيل له :
- ويحك ! وأى فخر أن تلحق النساء بالعشى وقد نكحن
وامهن ؟
فلا غرابة أن أصر أفلاطون على استبعاد الشعراء من
جمهورية .

وكان الرواة يجدون لذة في سرد نوادر ما كان بين السبايا
من نساء الأشراف وبين من سلبوهن ، وكانت قصة هند زوجة
الحارث بن عمرو الكندي أكثر القصص ترديدا في المجالس
والنوادي ، ففى كل سامر كان راوية يقول :

- سبى ابن هبولة الغساني امرأة الحارث بن عمرو
الكندي ، فلحقه الحارث فقتله وارتجع المرأة وقد كان نال
منها ، فقال لها : هل كان أصابك ؟ قالت : نعم ، والله فما
اشتملت النساء على مثله . فأوثقها بين فرسين ، ثم استحفظهما
حتى قطعها . وقال في ذلك :

كل أثنى وإن بدا لك منها

آية الود جها خيتور (١)

إن من غره النساء بود

بعد هند لجاهل مغرور

وكانوا ينعمون بحرية شخصية ولا يعرفون الحرية الاجتماعية ، تغلب عليهم الفطرة والطبع . وما كان منهم من يفكر كيف يبرز هذا العالم الذى يعيش فيه إلى الوجود ، وما الخير وما الشر ، وما العدالة وما الظلم ، وما جزاء العدالة وما الذى يردع الناس عن المعاصى ، وما الجمال وما الحب ، وما الغنى وما الفقر ، وما الحكمة وما الشجاعة ، وما العقاف وهل من مصلحة المجتمع أن ينظم الجنس ، وما حقوق النساء على الرجال ، بل قبلوا حياتهم وسلموا بها سواء أكانوا أحرارا أم عبيدا ، أغنياء أم فقراء ، وإن لم يستمرئوها .

وقد ألفوا الرئاسة العامة وعدوها لفوا ، وكل ما أخذته مكة من نظم الحكم فى الامبراطوريتين المتنافستين على سيادة العالم أن جعلت لها مجلسا للشورى أشبه بالسيناتو مجلس الشيوخ الرومانى عرف بشيوخ دار الندوة ، ولم يدخل تلك الدار إلا من بلغت سنه أربعين عاما . واستثنى من هذا الشرط بعض النوابغ من قریش كحكيم بن حزام وعمر بن هشام

(١) الخيتور : سبلة الخلق وكل ما لا يدوم على حاله .

(أبى جهل) : ومن عجب أن محمد بن عبد الله لم يكن من المرشحين ذات يوم ليكون من حكماء دار الندوة فقد حبيت إليه العزلة لينأى الله به عن شرور مجتمعه ، وليسير حرا طليقا من معتقدات قومه في طريق رسالته .

ووزع شرف الرئاسة على بيوتات قريش ، فكانت الرفادة والسقاية في قريش وكان صاحبها العباس بن عبد المطلب ، وكانت راية قريش « العقاب » في بيت من بيوت شرفهم العشرة فإذا وقعت حرب أخرجوها . فإن اتفقوا على أحد منهم أعطوه الراية ، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه . وكانت هذه الوظيفة من خصائص بنى أمية وكان صاحبها أبو سفيان بن حرب .

ولم تقف آمال أبى سفيان عند شرف حمل راية قريش عند الحروب بل كانت أطماعه تمتد إلى أن يصبح سيد مكة غير منازع ، بل حاكما على كل العرب كخليفه كسرى إن واثقه الظروف ، فهو يرى بعينه الفاحصة أن مجد بنى هاشم في أقول بعد أن وهن عظم أبى طالب واشتعل رأسه شيبا ، وثقل لسان الزبير بن عبد المطلب الذى كانت كل قبائل العرب ترتجف فرقا من هجوه .

وكانت السدانة والحجابة وظيفه دينية وعلى من يتولاها أن يقوم بخدمة بيت الله وحفظ مفتاحه ، وكانت في بنى عبد الدار وكان صاحبها عثمان بن طلحة ، فكان عليه وعلى عشيرته تدير كل الشؤون الاجتماعية داخل الحرم ، وكان

عليهم أن يشرفوا على دار الندوة فهي في الحرم في دائرة اختصاصهم .

وكانت المشورة أشبه برئاسة المجلس وكانت في بني أسد رهط خديجة بنت خويلد وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة بن الأسود . وما كان رؤساء قريش يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب هذه الوظيفة فإن أعجبهم وافقهم عليه وإلا تخير وكانوا له أعوانا .

وكان أبو بكر صاحب الأشناق وهي الديات والمغارم ، وكان القرشيون يساعدون من يستحق المساعدة من حمل مغرما أو دية . وكان النهوض مع صاحب المغرم لجسع المطلوب من خصائص بني تيمم . فكان أبو بكر إذا نهض مع أحد ليجمع له صدقة الناس أعانوا من نهض معه وإن نهض غيره خذلوه ، فقد اشتهر أبو بكر بالصدق ومثانة الخلق .

وأما القبة فهي أشبه بوزارة الحرب وما كانوا يعمدون إليها إلا وقت الحرب ، فكانوا يضربون قبة يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بني مخزوم رهط خالد بن الوليد ، وكان خالد صاحبها وصاحب الأعنة وهي رئاسة الفرسان .

وكانت السفارة في بني عدى وهي أن يثنى السفير للصالح بين حين شبت بينهما نيران الحرب وتعاطم أوارها ، أو إذا نافر قريش حى للمفاخرة ، وكان صاحبها عمر بن الخطاب الذي دعوه ابراهيم

استطاع أن يشق طريقه وأن يفرض نفسه على مجتمعه وهو لا يزال في شرخ الشباب وربيع عمره .

وكانت الأيسار في بنى جمح وهي الأزلام والقдах يضربون بها إذا أرادوا أمرا ، وكانوا يؤمنون إيمانا صادقا بأن ما يخرج من الأزلام أو القдах إن هو إلا رغبة الإله ومشيته ، فإذا جاء على غير هواهم قدموا القربلين للإله واستمروا في ضرب القдах حتى يرضى ، وكانت آية رضاه أن يخرج القдах موافقا لهواهم ! وكان صفوان بن أمية صاحب الأيسار .

وكانت الأموال المحجرة وهي التي سموها لآلهتهم في بنى سهم وهي أشبه بالأوقاف الخيرية ، وكان صاحب تولي النظر في هذه الأموال الحارث بن قيس .

كان هذا هو حال مكة ، قسم المجد في بيوت شرفهم العشرة ، قد آوى كل من أبناء هذه البيوتات إلى ركن شديد من رهنه . فما كانت هناك شريعة مكتوبة ولا سلطة تأخذ الحق من القوى للضعيف وما كانت العدالة تطبق على الجميع ، إذا سرق من لا حول له ولا قوة قطعوه وإذا سرق شريف تركوه ، وما كان للضعفاء من ملجأ إلا أن يرموا في أحضان بيت من بيوت القوة يلتمسون منه الحماية خشية أن يتخطفهم الناس ويهضموا حقوقهم ، وكان على من يقبل إجارتهم أن يعلن على الملأ أنهم في جواره وحمايته .

وكانت دار الندوة هي مركز السلطة في مكة ولكنها عجزت عن إبداع التنظيمات التي تستهدف مصلحة المكين جميعا

سادة وعبيدا . وكان هم رجالها الأوحد ألا يقوى بيت على حساب بيت من بيوت الشرف حتى لا يستأثر بالقوة وحده ويستبد بالسلطان ، وكانت بيوت الشرف جميعا راضية مادامت أموال التجارة تتدفق إلى مكة ، وخمور الشام ترد في ركاب القوافل ، والحسان من مصر والشام والقسطنطينية والحيرة وفارس مردفات على حقائب الإبل ، وعرق البغايا يدر على السادة المترفين الذهب والفضة ونقود كسرى وقيصر .

كان الفساد قد ران على مكة بعد قرون طويلة من الغضب والدماء وقسوة القلب وتمزيق أواصر الأخوة الإنسانية ، فبدا أن ذلك المجتمع ينحدر إلى الفناء لا أمل في انتفاضة ثقيله من سقطته ، ولا إرھاصا بعودة الربيع إليه بعد أن أطبق عليه خريف عمره ووهن عظمه ، وقد رفع خنجر الضلالة ليطعن به قلبه .

وكان الناس يتدفقون من الدور ومن الدروب إلى دار أبي سفيان لا يفكرون إلا في الأرباح التي تعود عليهم من بضاعتهم التي سيتركون بها في رحلة الشتاء ، فقد كانت قریش تتأهب للخروج إلى اليمن ، وكان أبو سفيان زعيم القافلة يأخذ ما عند الناس من سلع وأموال لقاء عمولة يتقاضاها مقابل ما يؤدي لهم من خدمات .

وكان الناس يمرون بدار خديجة ويعجبون ، ففي مثل هذه الأيام كان ميسرة يفتح أبواب مخازن خديجة يستقبل ما يأتي به المكيون من تجارة بينا يكتب الكتاب صكوكا بما تسلموا ، ومحمد بن عبد الله يغدو ويروح وابتسامته الآسرة تشرق في

وجهه ، والإبل تتقاطر من كل صوب وحذب إلى دار الطاهرة
سيدة نساء قريش ، فما بال السكون يخيم على المكان ؟ وما
الذى زهد أهل البيت في البيع والتجارة بعد أن كانت قوافل
الطاهرة تعدل قوافل مكة كلها ؟ !

حسب أناس أن خديجة بعد أن تزوجت ابن عبد الله وأنجبت
منه ركنت هي وزوجها إلى الدعة وآثرا السلامة فماتت فيهما
روح المغامرة ، وأنها اكتفيا بما هما فيه من نعيم . وقال أناس
إن الشيخوخة قد دبت في مسيرة وإن خديجة لم تجد من تأتمنه
على أموالها بعده . وإنها وإن كانت تزوجت أمين قريش فهي
لم تعد تطيق فراقه بعد أن صار النور الذي ترى به وعقل العقل
وروح الروح . ولم يكن يدرى بحقيقة ما يدور في ذلك البيت
المبارك إلا نفر قليل ممن يعيشون فيه ، ومن صحابة أبي القاسم
ومن صفوة أقرباء الطاهرة الذين كانت تفضي إليهم بما ترى من
أمر زوجها وما تسمع من روائع حكمته .

يغرس محمد في قلب خديجة أن الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة
وتفاخر بين الناس وتكاثر في الأموال والأولاد ، وأن كل ما لله
فليس من الدنيا ، وراح يرفعها من عالمها الأرضي إلى ملكوت
السماء ، ويصفى فؤادها ويجلوه ليسعد بإشراق أنوار المعرفة
فيه ، ويتذوق لذات روحية تفوق اللذات المادية التي يجلبها
اللهو والتجارة . فإذا بالحقيقة تتلألأ في غين ذاتها ، وإذا
بتجارعتها وأموالها تهون في سبيل نفحة من نفحات ربها أو جذبة
من جذباته تفيض عليها سعادة لا تذوب ولا تنقشع ، بل تستقر

حلوة سائفة في أغوار نفسها وفي سميم وجدانها .
وباتت خديجة تنتظر حادثاً جليلاً بشرت به الأنبياء وفاضت
به الكتب السماوية وتنبأ به الرهبان والأجبار والكهان ،
فكانت ترقب في لهفة إشراق أنوار اليقين من دارها وتعد نفسها
وبهيتها ربها لتكون حاضنة دعوته وناصرة رسوله وأول
المؤمنين به المؤازرين له بأموالها وروحها بل وبفلات أكبادها .
إنها أصبحت متفرحة في الله تحب الله لذاته وتحب زوجها
لأنه قادها إلى طريق الله وفجر في قلبها كنوزاً من اللذات
الروحية ما كان لها بها من علم . لذّة المعرفة ولذّة الإتفاق لوجه
الله وبذل كل بذل في سبيل سعادة البشرية والتماس الكمال
إرضاء لكمال الكمال .

كان البيت الذي يبدو للناظرين هادئاً ساكناً يسعد برغد
العيش وينعم بكنوز الأموال ، ينبض بالجهاد في سبيل التحليق
إلى ما وراء الكون وما فوق المادة لينهل من خزائن الملكوت
بركات ورحمة ، ويتعرض لنفحات ربه فيعرف في عوالم القرح
الفياض والسعادة الحقّة .

وفتحت دار خديجة وخرج منها رب البيت محمد بن عبد الله ،
فانطلق يحل تجارته إلى أبي سفيان سيد بنى أمية الخارج في
تجارة قريش إلى الشام لعل الله يجعل فيها خيراً ، فأبو القاسم
كانت له تجارته الخاصة ، فكان يرسل بضاعته إلى الأسواق
ليعيش من حر ماله ويسد حاجاته — وما أفلها — مما يكسب ،
على الرغم من أموال خديجة الطائلة .

٨

كان الظلام يلف الطائف وقد لاذ بنو ثقيف بدورهم ، وكان
أمية بن أبي الصلت يقلب صفحات التوراة والإنجيل في فتور
بعد أن خمدت نار حساسته لما قال له علماء النصارى إن النبی
المنتظر من قريش ، وأنه يبعث في الأربعين .

إنه منذ ذلك اليوم وهو كئيب حزين ، فيا طالما جلس إلى
نساء ثقيف وقال لهن سيرسل الله رسولا وهو يحس في أعماقه
أنه ذلك الموعود والمنتظر ، وقد بات لا يدرى ماذا يقول لهن
لو تحققت نبوءة علماء النصارى الذين انقطعوا للعبادة في
صوامعهم ويبيعهم وجاء نبى الأميين من قريش !

وراحت نار الغيرة والحسد تأكل صدره ويستشعر لسعها
أليسا في فؤاده : فهو لا يجد في قريش كلها من يصلح في زعمه
للمرسالة إلا عتبة بن ربيعة ، ولكن نبوءة علماء النصارى تؤكد
أن ذلك النبی فقير وعتبة غنى . وأنه في الأربعين وقد زاد عتبة
على المائة . واشتد ضيقه لما راح يقارن بين علمه وصفاته وبين
علم كل من أشرفوا على الأربعين من القرشيين وأهليتهم

للنبوة ، فلم يجد فيهم من أوتى الحكمة أو من يتستع منهم بشئ
ما يتصف به من مكارم الأخلاق وحسن الخلق .

كان حليف بنى أمية وكان رفيق أبى سفيان فى كل رحلاته ،
وكان يعرف عن أبى سفيان بخله وعهره . ولو لم يكن أبو سفيان
قد جاوز الأربعين لما خطر له على قلب ، فهو على الرغم من غناه
ماجن لا يتجنب المحارم والمظالم . وقد عجم أعواد كل رجال
بنى أمية السائرين إلى الكهولة فلم يجد فيهم محوجا كريم
الطرفين متوسطا فى العشيرة يجتنب المظالم والمحارم ويصل
الرحم ويأمر بصلتها .

وفكر فى بنى هاشم فراح يزى شبابهم الداخلين فى الكهولة
بموازينهم ، فوجد أن غنى العباس قد أزرى به وأن الدنيا قد
شغلته عن الدين فراح يقرض الناس بالربا ويأكل أموال الناس
بالباطل ، وإن كان له شرف سقاية حجيج بيت الله . ولم يقف
طويلا عند حزمة بن عبد المطلب فهو فارس وهو كريم وهو
شريف وسط فى عشيرته ، وهو يتجنب المظالم ولكنه لا يتجنب
المحارم ، فهو يكثر من الشراب ويقبل على اللهو إذا ما لعبت
الخمير برأسه .

وطاف بذهنه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شاعر
بنى هاشم وصديق ابن عمه محمد بن عبد الله الذى لا يفارقه .
فرن فى ضيقه بعض هجوه لأعداء قومه . ولم يجد فى شعره
ما يدل على اهتمامه بأمر النساء فأشاح بتفكيره عنه . وراح
يستأفف الفحص عن رجال بنى هاشم حتى إذا ما بلغ

أيا القاسم أمعن الفكر طويلا ، فهو طاهر القلب نقى الضمير
يتحنث طوال شهر رمضان في غار حراء ، وقد اشتهر بين قومه
بالأمين . وهو يتجنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ، وهو
كريم الطرفين وسط في العشيرة ، وهو فقير وينقف على أعتاب
الأربعين ، واشتدت ضربات قلب أمية وانهرت أنفاسه ولكنه
راح يحاول أن يعيد الطمأنينة إلى فؤاده ، فجعل يؤكد لنفسه
أن محمدا لا يدري ما الكتب السماوية وما الإيمان ، وهو لا يعرف
القراءة ولا الكتابة ، وما كان الله في وهمه يبعث من كان مثل
ابن عبد الله لتبليغ رسالته !

وفكر في سادات بنى مخزوم فلم يجد فيهم رجلا يصلح
لِلرسالة غير الوليد بن المغيرة ، إلا أن الوليد كان كعثة بن
ربيعة قد أزرى به المال والسن ، فأموال الوليد ممدودة حتى
إنه يكسو الكعبة سنة وتكسوها قريش سنة ، فهو عدل قريش
كلها وقد فات الأربعين بسنين .

وراح يعجم أعواد بنى تيم فلم يجد فيهم من هو خير من
أبي بكر ، فهو دمث الأخلاق طيب القلب متواضع لين الجانب ،
يُكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ،
يصون عرضه ويحفظ مروءته ، وإنه ليذكر له أن رجلا دعاه
أن يستصحبه لحاجة يعينه عليها فرآه يسر في طريق غير التي يسر
منها فسأله : أين تذهب ؟ هذه الطريق ! قال الرجل : إن فيها
أناسا نستحي منهم أن نسر عليهم . قال : تدعون إلى طريق
نستحي منها ؟ ما أنا بالذي أصاحبك .

إن أبا بكر رجل سح ودود يألف الناس ويألفه الناس ،
وهو يتلىء بنشوة الإعجاب برجال الإصلاح ، ولكنه ليس من
أصحاب الرسالات وإن كان مؤمنا بالغيب يجيد تأويل الأحلام ،
فلا بد له من قدوة حسنة يعجب بها ويتعصب لها ويضع نفسه
وماله في سبيل تأييدها ونصرتها .

واستمر أمية بن أبى الصلت يقيس مواهبه وصفاته بمواهب
رجالات بيوت شرف قريش العشرة التى تؤهلهم للنبوّة ، فلم
يجد فيهم من يصلح لنافسته على شرف الرسالة . فكان يضيق
بنبوّة عساء النصارى التى أكدت له أن النبى المرتقب من
قريش ، رجل شاب حين دخل فى الكهولة بدؤ أمره ، يجتنب
المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم
الطرفين متوسط فى العشيرة . أكثر جنوده من الملائكة !

وكان الحارث بن كلدة طيب العرب يقرأ ما وصل إلى يديه
من علم أطباء فارس والروم ، وكان ابنه النضر بن الحارث
يروى على مسامع والده قشور العلوم التى حصلها من الفرس
وبعض أجزاء الحكمة التى امتصها من الكتب ، وقد انتفتحت
أوداجه غرورا فقد وقر فى ضيره أنه حكيم العرب وعالمها
وأنه من الظلم له أن يقارن بحكام القبائل الذين تجرى على
ألسنتهم أحيانا بعض الحكم والخطرات الفلسفية .

وكان عروة بن مسعود سيد بنى ثقف فى داره ومن حوله
أشراف الناس يتحاورون ويتجادلون ، ويلقى الرواة ما حفظوا
من الأشعار التى أنشدت فى الأسواق ، والنوادر التى كانت

تسلية السار ، والأخبار التي التقطوها في أثناء رحلاتهم إلى
جنديسابور أو الحيرة أو بصرى أو غزة أو منف أو يكوم
أو صنعاء . وبينما كانت الطائف تحيا حياتها الليلية المألوفة ،
إذا بأصوات فزع وهلع جعلت الناس يهرعون إلى خارج الدور
ليروا ماذا جرى .

وتعلقت العيون بالسماء فإذا برهة تنزل بالصدور ، وإذا
بخفقات القلوب تشتد وقد زافت الأبصار ، فالثهب تساقط
من السماء . وبقي الناس في ذهول لحظات ، ثم راحت صيحات
الهلع تنزل الطائف فقد أشرف العالم على الفناء .

وماج الناس بعضهم في بعض : وراح السادة يعتقدون رقيقهم
وسيبيوا أنعامهم وانطلقوا إلى الفضاء لا يلوون على شيء
يحسون أن سيتخطفهم الموت ، قد ذهل الأب عن بنيه ،
والزوج عن زوجه . والأم عن وليدها .

واستمرت النجوم تهوى لكأنها كان من في السماء يرحم
أهل الأرض ، فبلغت القلوب الحناجر وكاد الرعب أن يقضى
على النفوس قبل أن تنشق الأرض وتندك الجبال على
المرءوس ، وظل الناس يجرون هنا وهناك ولكن أين المفر ؟ !
وفزعت ثقيف إلى عمرو بن أمية ، وكان رجلا منهم وكان
أدهى العرب وكان يخبرهم بالحوادث وكان ضريرا ، فقالوا له :
يا عمرو : ألم تر ما حدث في السماء من الرمي بهذه
النجوم ؟

فقال في قلق :

— بلى ، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء هى التى يرمى بها فهو والله طى هذه الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى فيها ، وإن كانت نجوما غيرها وهى ثابتة على حالها فهو لأمر أراد الله بهذا الخلق .

ورأى أهل مكة الرجم بالشهب والنجوم تهوى من عليائها فانخلعت القلوب وران الفزع الأكبر على الوجوه وارتجفت الأوصال وزلزلت الأرض تحت الأقدام ، والناس ينتظرون الهول والدمار ويتربحون أن تخر عليهم الساء وتنهار عليهم الجبال . وباتوا فى رعب من أن تأخذهم الرجفة فيصبحوا فى دارهم جاثمين ، أو تخسف بهم الأرض فيكونوا من الهالدين ، ففزعوا إلى الحرم يطوفون به ويقدمون القرابين ويتسحون بالأصنام ويبتهلون إلى ربهم والدموع تبلل اللحى والحدود ، ويسألونه فى صدق أن يرفع عنهم مقتته وغضبه .

وحاول الكهان أن يكشفوا عن سر السماء فباءوا بالإخفاق، فجزع الناس وقالوا فى يأس مرير :
— هلك من فى السماء .

فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيرا ، وصاحب البقر ينحر كل يوم بقرة ، وصاحب الغنم ينحر كل يوم شاة ، حتى أسرعوا فى إتلاف أموالهم واستبد بهم الخوف والقلق فركبوا إلى عبد ياليل الثقفى ، فقالوا :

— إن الناس قد فزعوا وقد أعتقوا رقيقهم وسيبوا أنعامهم .

فقال لهم :

— انظروا البروج الاثنى عشر . فإن انقضى منها شيء فهي ذهاب الدنيا . وإن لم ينقض منها شيء فسيحدث في الدنيا أمر عظيم .

وقالت ثقيف لقريش :

— أيها الناس أمسكوا على أموالكم فإنه لم يمت من في السماء . أستم ترون معالمكم من النجوم كما هي والشمس والقمر ؟

ورأى الناس في شرب النجوم يرمى بها فقالوا :

— ولد مولود .. مات ملك .. مات مولود .

وكان عمرو بن عبسة السلسي يدخل تيماء وكان قد رغب عن آلهة قومه . فلما حط الرحال لقي رجلا من أهل الكتاب فقال له :

— إني امرؤ من يعبد الحجارة فينزل الحى ليس معهم إله . فيخرج الرجل منهم فيأتى بأربعة أحجار فيعين ثلاثة لقدره ويجعل أحسنها إلها يعبده . ثم لعله يجد ما هو أحسن منه شكلا قبل أن يرحل فيتركه ويأخذ غيره . وإذا نزل منزلا سواه ورأى ما هو أحسن منه تركه وأخذ ذلك . فأريت أنه إله باطل لا ينفع ولا يضر فدلنى على خير من هذا .

فقال الرجل وهو يتفرس في وجه عمرو بن عبسة :

— يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها . فإذا رأيت ذلك فاتبعه فإنه يأتى بأفضل الدين .

فانطلق عمرو إلى مكة وسأل :

— هل حدث حدث ؟

فقبل له :

— لا .

فلم يعد له هم إلا مكة يأتي فيسأل :

— هل حدث حدث ؟

وراح الكهان يعوذون رجال من الجن ليسترقوا السمع
في مقاعد لهم ويلقوا ما يسمعون إليهم ، فإذا بمن يحاول أن
يستمع يجد له شهابا لا يخطئه ، فقد منعت الشياطين من خبر
السما تطهيرا للأرض من الكهانة وتنهيدا لنزول الوحي الكريم
بالنور الذي سيشرق باليقين في قلوب البشر .

وصاح صائح من الكهان :

— قد منع السمع عتاة الجان .

« وإنه كان رجال من الإنس يعوذون رجال من الجن
فزادوهم رهقا . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا .
وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا
كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا
رصدا . وإننا لا نذري أشرا أريد بمن في الأرض أم أراد بهم
ربهم رشدا » .

كانت نار العداوة متأججة بين الأوس والخزرج ما إن يطفئها
عاقل من عقلائهم حتى يشعلها سفيه من سفهائهم ، فيمشي
الرجال إلى الرجال وتتقارع السيوف فتسيل الدماء وتزهق
الأرواح وتغلغل العداوات في سويداء القلوب .

وكانت المعارك الحربية تهدأ بين الحين والحين ، ولكن
معارك الشعراء من الجانبين ما كان ليعتريها الفتور ، فشعراء
الأوس وعلى رأسهم قيس بن الخطيم وقيس بن الأسلت كانوا
يفتخرون بقومهم ويذكرون مثالب أعدائهم ، وكان شعراء
الخزرج وعلى رأسهم حسان بن ثابت وعبد الله بن أبي رواحة
يمتدحون رهطهم ويهجون كل من انتسب إلى الأوس بسبب .

وأصبحت العداوة بين قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت
علامة من علامات الحياة في يثرب ، فقيس بن الخطيم يشب
بعمره زوج حسان ، وحسان يشب بأخت قيس ليلي بنت
الخطيم ، والرواة من الجانبين يشون بذلك التشبيب بين القبائل
ليكون مادة للسمر في متدياتهم .

وصار حديث الحرائر مضغة في الأفواه ، فقل إن خولة
أخت حسان أنشدت متعشقة عمارة بن الوليد المخزومي :

يا خليلي نابني سهدى
لم تنم عيني ولم تكد
فشرابي ما أسخى وما
أشكى ما بى إلى أحد
كيف تلحونى على رجل
آنس تلتذه كبدي
مثل ضوء البدر صورته
ليس بالزميلة النكد
من بنى آل المغيرة لا
خامل نكس ولا ججد
نظرت يوما فلا نظرت

بعده عيني على أحد
وكان حسان يهجو قيسا ويهجو الأوس هجاء مرا ، وكانت
القبائل تخشى لسانه الذى قال فيه : والله لو وضعته على شعر
لحلقة أو على صخر لقلقه . وقد وضعه على قيس والأوس فنالهم
منه شر عظيم ، فالشعر نكد يقوى في الشر ويسهل .

وشجر قتال بين الأوس والخزرج فوضعوا أبناءهم ونساءهم
في الحصون ، واشتدت الخصومة بين الحيين حتى إن الرجل لم
يعد يأمن أن يخرج من حصنه إلى عمل يقضيه خوفا من القتل ،
وجلس حسان في حصنه وقد أسدل ناصيته بين عينيهِ وأطلق

خياله العنان . فتذكر تلك الأيام التي ذهب فيها إلى الحيرة وعاش في قصر الخورتق ينتقى قصائد المديح بين يدي النعمان ابن المنذر . فما لبث أن أحس حيرة على زوال ملك المناذرة . بعد أن قتل كسرى النعمان وولى فارسيا على إمارة اللخيين .

وفي مثل لمح البصر انتقل خياله إلى بلاط الفساسنة فاتفرجت أساريره . فجللة بن الأيهم صديقه . فما من مرة ذهب فيها إلى قصره إلا وخلق عليه ثيابه التي عليه في ذلك اليوم وعلى غيره من جلسائه .

ورن في ضميره أصوات الغناء التي سمعها في مجلس جللة ، ورأى بعين خياله ما في ذلك المجلس من جلال وعظمة وبهاء . عشر قيان ، خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة . وجللة جلس للشراب وفرش تحته الآس والياسين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأوقد له العود المندي إن كان شائيا ، وإن كان ضائقا بطئن بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية ، يمتاز هو وأصحابه بها .

واقترلت الأوس والخزرج قتالا شديدا بالربيع ^(١) ، وبقي حسان في حصنه لا ينطلق مع الرجال للقتال فقد قطع أكحله ^(٢) فلم يكن يضرب بيده ، وراح يقول في حيرة وألم :

(١) اسم مكان .

(٢) الأكحل : عرق في اليد .

أضر بجسنى مر الدهور
 و خان قراع يدى الأكحل
 وقد كنت أشهد وقع الحروب
 ويحصر فى كفى المنصل
 وما كان حسان جباناً ، فلو عرف عنه الجبن لغيره به غريمه
 قيس بن الخطيم الذى يتصيد سقطاته ومثاله .
 ومشت الأوس لإقرار الصلح بين الحيين العربيين خشية
 أن يقوى اليهود ويعود تفوذهم فى يشرب ويشتد سبطانهم .
 فأبى بنو النجار من الخزرج وحالوا بين الفريقين وبين السلام
 حتى كثر فيهم القتل ، ثم كف بعضهم عن بعض وإن بقوا على
 عداوتهم وتشاحنهم .
 ووضعت السيوف فى قربها ، وعادت السهام إلى جمعها .
 ولكن ألسنة الشعراء استمرت فى الانطلاق ، قال حسان معددا
 أمجاد الخزرج :

و يشرب تعلم أنا بها	إذا التبس الحق ميزانها
و يشرب تعلم أنا بها	إذا قحط القطر ندمانها
و يشرب تعلم أنا بها	إذا خافت الأوس جيرانها
و يشرب تعلم أنا النيب	ت عند الهزاهز ^(١) ذلانها
نبت بالنبيت وأشياعها	من أن أوعد قط أرطانها
فكيف إذا نازلتها بها	ليوث غريف ^(٢) وشبلانها

متى ثرنا الأوس في بيضنا
وتعط المقاد على رغمه
ويشرب تعلم ان النبي
فلا تفخرن واتمس ملجأ
ونحن إذا حاربت عامر
ولا يسكت بالطبع فيس بن الخطيم بل يقول فيما يقول :

نحن الفوارس يوم الريب
جنبنا الحراب وراء الصرد
قلما استقل كليث الغريف
تراهن يخلجن خلع الدلاء
ويشرب تعلم أن النبي
حسان الوجوه حداد السيو
وبالشوط من يشرب أعبد
يهون على الأوس أثمانهم
ع قد علسوا كيف فرسانها
خ حتى تقصف مرانها (١)
زان الكتيبة أعوانها
تخلج النزاع اشطانها
رأس يترب ميزانها
ف يتدر امجد شبانها
ستهلك في الخمر أنمانها
إذا راح يخطر نشوانها

وما كان السلام يدوم طويلا بين القبيلتين فالاستفزازات
مستمرة ، وتقاليد الجاهلية مهيمنة على العقول ، والمداوة
تطل بخطمها تهتبل أية سائحة لتثير القتال . وقد حدث
أن نزل بحاطب بن قيس الأوسى رجل من ذبيان أكرمه
وأقام عنده ، وذات يوم غدا هذا الرجل إلى سوق بني قينقاع

فرآه أحد بنى الحارث بن الخزرج فقال لرجل يهودي :

— لك ردائي إن كسعت هذا الديباني .

ف فعل اليهودي فنأدى الديباني :

— يا الحاطب ! كسع ضيفك وفضح !

فجاء حاسب فسل اليهودي . فقتل الخزرجي رجلا من الأوس لا ذنب له بذلك اليهودي . وثارت الحرب بين الحتين . وكان على الخزرج عمرو بن النعمان البيضاء وعلى الأوس حضير بن ساءك الأشملي .

وعلم عيينه بن حصن بن حذيفة بن بدر وخيار بن مالك الفزاريان بالأمر . فقدموا يثرب وتحدثا مع الأوس والخزرج في الصلح وضمنوا أن يتحسلا الديات . فأبوا وامتشقوا الحسام وكانت الدائرة على الأوس .

كانت يثرب تسوج بالعداوات وتنقض بالخطايا : ففيها أشهر سقيفة لصاحبات الرايات الحمر من البغايا ، فكان شباب القبائل يقصدون إليها ، وكانت منزلا للفسقة من سادات الأسرات وأوشابها ، فكانت الخمور تجري فيها جريان الأنهار ، وكان اليهود تجار النشوة واللذة يجمعون الأموال من الربا ويقترفون كل منكر لسلب العرب وكنز الذهب والفضة ، فقد وقر في ضميرهم أن ليس عليهم في الأئمين سبيل ما دام دم غير اليهود وشرفه وماله حلالا لهم .

وكان اليهود يعملون على توسيع رقعة الخلاف بين الأوس

والخزرج لتشغل كل قبيلة بثاراتها . وعلى الرغم من انشغال
الحيين بعداوتهم عنهم فلم يكن اليهود جسيما بل كانت قلوبهم
تنسى بأسهم بينهم شديد . وكان يقع أحيانا بين العرب واليهود
شيء من النفور فإذا ما قاتلوا الكفار قالوا : نسألك بالنبي
الذى وعدتنا أن ترسله . وبالكتاب الذى تنزله إلا ما نصرتنا .
فكانوا ينصرون . وإذا ما بطش العرب بهم قالوا لهم :

— إن نبيا مبعوثا قد أظل زمانه تتبعه . نقتلكم معه قتل
عاد وإرم .

وذاث يوم ينسا كان أناس من اليثريين العرب جالسين
وبينهم سلمة بن سلامة . إذ يهودى من بنى عبد الأشهل يقف
على رأسهم ويذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة
والنار ، فقالوا له :

— ويحك ، أو ترى هذا كائنا أن الناس يبعثون بعد موتهم
إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ؟

— نعم والذى يحلف به . وليود أى شخص أن له بحظه
من تلك النار أعظم تنور يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه
عليه ، بأن ينجو من تلك النار غدا .

— ويحك وما آية ذلك ؟

— نبى يبعث من تحو هذه البلاد .

وأشار بيده إلى مكة واليمن ، وقالوا :

— ومن يراه ؟

فنظر إلى سلمة بن سلامة وهو أحدثهم سنا وقال :
— إن يستنقذ (يستكمل) هذا القلام عمره يدركه .
وساد الصمت وإن كان يدوى في ضمير الوجود صُوت
اليهودى الذى وقف على جبل من أربعين سنة يصيح :
— طلع الليلة نجم أحمد .
وإن كانت الشهب يرمى بها لتطهير السماء لنزول الوحى
على خاتم الرسل ، ليشرق النور على العالمين .

كان بنو جمح مجتمعين في ناديهم حول الكعبة ، وكان فيهم
أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح وصفوان بن أمية
صاحب الأيسار ، فما كان أحد يضرب القداح والأزلام عند
هبل قبل أن يلتبس الإذن منه . وكان بلال بن رباح واقفا
يصغى إلى أحاديث القوم ، وسرعان ما مشى إليه واستشعر
رغبة في أن ينطلق إلى أبي بكر بن أبي قحافة يسعد بالأنس به
وإرواء النفس من تبعه الصافي .

كان بلال مولى لبعض بنو جمح مولدا من مولديهم ، وكان
اسم أمه حمامة ، وقد شب فيهم أمينا ذا خلق قوي فكانوا
يخرجونه في تجارتهم فكان يعود بالأرباح الوفيرة ، وزادت
الثقة فيه على مر الأيام فكان لبنى جمح كما كان ميسرة لخديجة
أمين القافلة وصاحب الأمر فيها .

وفي رحلات الشتاء والصيف عرف بلال أبا بكر فعرف فيه
التواضع ولين الجانب والنجدة والكرم والسخاء ، يفار على
مروءته ويتجنب ما يريب ، فلم يشرب الخمر حتى لا يخذش
وقاره ، وما كان يكذب وما أخلف وعدا قط فتفتحت نفس

بلال له ، فكانت أسعد ساعات حياته تلك التى يقضيها فى صحبته يلقي إليه سمعه لتستمتع روحه بحكمته وعذب حديثه .

كان بنو جمح يرفلون فى العز : فكانت دار أمية بن خلف تزدان بالتحف المجلوبة من فارس وبلاد الشام ومصر ، وكانت دار صفوان بن أمية تموج بفتيات من كل الأجناس ، وكانت الدفوف تضرب والراقصات يرقصن للرجال والشراب يراق فى البطون لجلب النشوة ، والرواة يروون أباطيل الشعراء ، والظرفاء يلقون النوادر المكشوفة دون حياء ، وأذرع السادة تلتف حول خصور العوانى ، والضحكات المماجئة الآثمة تعلو على أصوات القيان المغنيات ، فقد أطلق للجنس غنائه وتفتحت فى النفوس شهوات وقتية حكم عليها أن تموت عند قمة نشوتها .

وكان بلال يعاين كل ما يجرى فى دور بنى جمح من فساد بله فى كل دور شرفاء قريش ، ولكنه لم يكن يستنكر شيئاً فقد نسب وترعرع فى قوم يفخرون باتفاق الأموال فى شرب الخمر وفى لعب الميسر وفى حض فتياتهم على البغاء ، وينتزعون النساء من أحضان الأزواج ويغتصبون البنات من الآباء والأمهات ، وتتغزل حرائرهم فى الرجال ويمشى الرواة بذلك الفزل فى القبائل ، وكان الرجال يبعثون بنسبائهم عن طيب خاطر إلى أشرافهم وإلى أقوياء الأبدان والأذهان يستبضعن منهم وينجبن ذرية من النابيين الأقوياء .

وما كان للمرأة وزن فالأزواج يخلعون النساء فى يسر كما يخلعون النعال ، وما من امرأة فى قبائل العرب إلا وقد طافت على أزواج كثيرين كما كانت أكثر من متاع .

وكانت المتع المادية طابع بيوت الشرف فى مكة ، وما كانت العبادات إلا نوعا من تقديس تقاليد الآباء ، وما كانت تمارس إلا طمعا فى نعيم الدنيا ودفعاً لأذى الآلهة الذى يصيب الناس فى الأرض ، فما كان للدين مكان فى أعماق النفوس وسويداء القلوب إن هو إلا عصبية من عصبية الجاهلية .

وكان بلال يخرج مع الخارجين إلى الحرم يطوف بالبيت العتيق ويقدم القرابين للأرباب ويدين بالولاء للآلات والعزى وإن كان يحترم الآلهة الأخرى ، مثله فى ذلك مثل قریش الذين ولد فيهم . وكان يعيش فى دنيا الشر وإن كانت فى أعماقه كنوز مطمورة زاهرة بالخير لم تجد من يكشف عنها الغطاء ، وكانت تلك الكنوز تسفر عن معدنها كلما ألقى سمعه إلى بعض من ارتفعوا بإنسانيتهم عن مادية المصر وفجوره .

وكان يجد راحة نفسية كلما جلس إلى أبى بكر وكان معجبا بوقاره واعتداله وسماحة خلقه وكرمه ، فلو أن أبى بكر لم يبلغ بعد الثامنة والثلاثين من عمره إلا أنه كان أكثر وقارا من شيوخ قریش وساداتها ، وكانت أمتع لحظات حياته تلك التى يذهب فيها لزيارة أبى بكر ويجد عنده صديقه محمد بن

عبد الله ويصنقى إلى سحر حديثه ، فقد كان يحس نشوة عارمة
تملأ جوانحه وكأنما يرتفع إلى السماء .
وملأت صورة محمد أقطار رأسه واستولت على لبه ، إنه
متواصل الأحزان دائم الفكرة ليس له راحة ، طويل السكوت
لا يتكلم في غير حاجة ، ليس بالجاف ولا المهين ، يعظم النعم
وإن دنت لا يذم منها شيئاً ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ،
فإذا تعدى الحق لم يكن لغضبه شيء حتى ينتصر له ولا يغضب
لنفسه ولا ينتصر لها .

إنه خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى
السماء ، من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، لا يحسب
جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ولا يطوى عن أحد من الناس
بشر ، قد وسع الناس بسطة وخلقة ، وهو أشد الناس حياء ،
لا يثبت بصره في وجه أحد ، له نور يعلوه كأن الشمس تجري
في وجهه ، لا يؤيس راجيه ومن سأله حاجة لم يردده إلا بها أو
بميسور من القول ، أجود الناس بالخير .

واستمر بلال يفكر في ابن عبد الله ، إنه يحس كلما أعاره
سمعه أنه يصنقى إلى ترانيم آتية من وراء عالم شفاف رقيق
ظاهر ليس من هذه الدنيا التي تموج بالغلظة والقسوة
والشرور . وأن أحاديثه صادقة نابضة بالإيمان تنفذ إلى القلب
وتملؤه بالنور . وأن كل فعاله تؤكد أنه إنما خلق للناس
لا لنفسه ، فهو يعين الملهوف ، ويذل كل ما بصل إليه للفقراء

والمساكين وابن السبيل ويتحلى المتاعب في سبيل راحة الآخرين
وأنه مشرق على الدوام لكأنه منارة في بحر لجي جثم عليه ظلام
ثقيل . فقد تمثل فيه الكمال الإنساني .

واستولى على بلال شعور غامض بالإعجاب بأبي القاسم ،
إعجابا ليس له حدود . وإن عجز عن أن يفسر ذلك الشعور
فمن أين له أن يظن إلى أن ذلك الإنسان الكامل قد خلق
ليكون بداية خير زمن في تاريخ البشرية جمعاء !

وضاق بلال بأحاديث سادات بني جمح وبأشعار الشعراء
الماجنين فأنسل من نادى القوم وغادر الكعبة وانطلق إلى
أبي بكر ، وهو يمني النفس بلقاء أبي القاسم ليفسل أدران
الروح ويصفي القلب من شواغل الدنيا ويهيم معه في ملكوت
كريم ينبض بمشاعر تسمو بإنسانية الإنسان .

وكان سعد بن أبي وقاص في ذلك الوقت يلقي تحية طيبة
على أمه التي يحبها بكل جارحة من جوارحه قبل أن يغادر
الدار ، وسرعان ما خرج من دور بني زهرة وانطلق في الطريق
الذي كانت حوانيت العطارين على جانبيه ، وكانت دكان
أبي طالب تكاد تكون خالية من الطيب والمسك والعنبر
بينما كانت دكان أسماء بنت مخربة أم بني المغيرة وجدة أبي الحكم
ابن هشام (أبي جهل) غاصة بأفخر أنواع العود والمنديل
والأطياب المجلوبة من اليمن وأرض البخور .

وأمام دار خديجة التقى بعمار بن ياسر فوقف الشاب يحدث عمارا الذى كان رفيق محمد بن عبد الله فى رحلاته ، وقد قال عمار إنه ذاهب لزيارة أبى القاسم قبل أن يهل هلال رمضان ويصعد محمد إلى غار حراء ليتحنث كما اعتاد أن يفعل فى كل عام . واعتذر سعد بأن محمدا قد زاره بالأمس وأنه منطلق إلى دار أبى بكر ليسأله عن تأويل رؤيا رآها ، ولم يعجب عمار لذلك فقد عرف عن أبى بكر براعته فى تفسير الأحلام .

وجلجت ضحكات من دار أبى سفيان المقابلة لدار خديجة فالتفت سعد وعمار وفى أعينهما دهش ، فأبو سفيان قد خرج على رأس قافلة قريش إلى اليمن ، فإذا بحنظلة بن أبى سفيان . ويزيد بن أبى سفيان وعمرو بن أبى سفيان ومعاوية بن أبى سفيان مقبلين ومن حولهم رجال من بنى أمية وقد أخذوا طريقهم إلى المسجد الحرام .

وعرج عمار إلى دار خديجة ، وانساب سعد إلى الكعبة فطاف بها ثم خرج من باب بنى مخزوم ومر بدار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومي ثم سار غربا إلى المسفلة حيث دار أبى بكر ، فالتقى عبد الرحمن بن أبى بكر خارجا للقنص وقد ركب فرسه وتنكب قوسه ، ودار حديث رقيق بين بارى النبل القصير الدحاح وبين ابن أبى بكر الذى يشب فارسا شاعرا ككل أبناء بيوتات قريش ، ثم دلف سعد إلى الدار .

كان أبو بكر جالسا وعنده حكيم بن حزام بن خويلد - وقد صارت دار الندوة إليه بعد أن كانت لبني عبد الدار ، اشتراها لتكون مكرمة له ولأبنائه من بعده - وعثمان بن عفان والزيير ابن العوام وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وبعض شباب قريش . وكانوا جميعا من الشباب القرشي - باستثناء حكيم - المتطلعين إلى حياة جديدة غير حياة مكة الفارقة في الأساطير والخرافات والأوهام ، وقد وجدوا في أبي بكر أسوة حسنة فكانوا يهرعون إليه ليقتبسوا منه الطهارة والصدق ومكارم الأخلاق ، فقد كانت ضمائرهم نقية لم تتغلغل فيها بعد وثنية الآباء ولا التعصب الأعمى لأحبار لا تضر ولا تنفع ولا تملك لنفسها شيئا .

ودخل سعد على القوم وألقى عليهم التحية ، ثم سار وجلس إلى جوار عبد الرحمن بن عوف فهو مثله من بنى زهرة أخوال محمد بن عبد الله ، ودار الحديث حول التجارة والرحلات فراح عبد الرحمن بن عوف يقص بعض قصصه في الأسواق ، فقد ذاع صيت أماته في القبائل فكانت التجارة ترسل إليه من كل حذب وصوب إلى مكان الصفق ، فما كان يبدأ في الصفق معلنا بدء البيع حتى يخف الناس إليه ولا ينفضون من حوله حتى يأتي على ما معه من تجارة ، فيأخذ نصيبه بلا زيادة ولا نقصان ويميد إلى أصحاب التجارة حقوقهم .

وقص عثمان قصة خروجه مع عمرو بن العاص إلى الحبشة ،

وراح يصف ركوب البحر وأسواق الحبشة وبلاط النجاشي وعادات الناس وما عادت القافلة به من أرباح مادية وصلات طيبة ، فقد توطدت صداقة بين عمرو والنجاشي واستطاع عمرو بدهائه أن يستولى على إعجاب عاهل البلاد .

وتحدث حكيم بن حزام عن أسواق الشام واليمن والحيرة وبصرى . وأسهب في الحديث عن قصر هرقل امبراطور الروم الذي يمضى أغلب أوقاته في بصرى ، وكثيرا ما يبعث إلى أشرف الأقباط الذين يؤمنون أسواقها ليفدوا عليه فيكرمهم ويسألهم عن أحوالهم وأحوال بلادهم ، ويحاول أن يستشف من أحاديثهم حقيقة ميولهم ، وأن يعرف عواطفهم معه أو مع الفرس أعدائه وأعداء بلاده ؟

وتحدث الزبير بن العوام عن الفروسية والفرسان وابن عمه حكيم بن حزام يرمقه في إعجاب ، واشترك في الحديث أبو عبيدة ابن الجراح وسعد بن أبي وقاص ، وكان انفعال الشباب يتفرق في الوجوه ويجرى على الألسنة ، وكان الحديث يدور حول بعض مناوشات دارت بين بعض الفرسان أو بعض الأحياء ، ولم يخطر على قلب أحد من الحاضرين أن هؤلاء الشباب المغمورين سيرفعهم دين قورنم إلى مصاف أشهر قواد الأرض ، وأنهم سيقوضون بسيوف الله المسلوطة جيوش أعظم امبراطوريتين : امبراطورية الفرس وامبراطورية الرومان .

وتحدث طلحة بن عبيد الله عن قوافل بنى تميم فهو من رهط

أبى بكر . وذكر الرهبان النازلين فى سواممهم على طريق القوافل فهيج بحديثه ذكريات أبى بكر . فرأى نفسه وهو نقل صغير يخرج مع آبيه فى قافله قرش التى كان سيدها أبو صاب فى ذلك اليوم الذى تشبث فيه محمد بن عبد الله بعمه وخرج معه إلى الشام .

واحتلت راس التصديق أحداث ذلك اليوم الذى نزلت فيه قافلة قرش إلى جوار صومعة بحيرا الراهب ، ورن فى ضميره ذلك الحوار الذى دار بين بحيرا وأبى طالب . وانتالت على فكره سورة بحيرا وهو يكشف عن ظهر محمد ويقلب الخاتم الذى بين كتفيه : وسرعان ما رأى محمدا يخرج فى تجارة خديجه وهو إلى جواره يصغى إلى عذب حديثه ويسعد يرفقته ، حتى إذا ما نزلت القافلة بالقرب من صومعة الراهب نسطورا ورأى الراهب الشاب القرشى الوسيم انطلق إليه كالمسحور وراح يحادثه فى اهتمام ويسأله عن بعض شأنه فى يقطته ومنامه ، ثم يطلب منه أن يكشف عن ظهره ليرى الخاتم الذى بين كتفيه فلما وقعت عليه عيناه مال وقبله فى تقديس واحترام .

قال بحيرا لأبى طالب : ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليعقنه بشر . فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده . وقال نسطورا أن سيكون لمحمد شأن ، وكان أبو بكر فى عين

ذاته يؤمن بصديقه أعمق الإيمان ، ويرى أن ليس للعرب من معلم ولا هاد غير أبي القاسم فهو صاحب نفسية عظيمة وإرادة قوية . اتصل بالطبيعة وبما وراء الطبيعة وكاد أن يسيطر اللثام عن سر الوجود ، إنه إنسان عظيم وإنه لشرف لأعظم الرجال أن يكونوا مرادين لصاحب هذه العظمة الخارقة .

وأدار أبو بكر عينيه في وجوه سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف والزيير بن العوام وأبي عبيدة بن الجراح وطلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان ، وإذا بهامس يهمس في جوفه يقول : « يا لحسن طالع هذا الجيل ، لو أن هؤلاء الأشبال تعلموا الحكمة من محمد بن عبد الله ! » .

بين مكة ويشرب تقع قرية ودان ، وهى على بعد ثمانية أميال
من الأبناء حيث قبر آمنة بنت وهب ، وهى لقبائل ضَمَنرة
وغفار وكنانة ، وكان رجال غفار يعيشون على مهاجمة القوافل
وسلبها ، وكانوا غلاظ الأكباد ترتجف منهم قلوب الذين يسيرون
بالقرب من ديارهم ويوسعون الخطو وهم يترقبون خشية أن
ينقض عليهم فرسيان الليل فيسلبوهم أرواحهم أو أموالهم
أو حرياتهم .

وكان جندب بن جنادة (أبو ذر) يقطع الطرق ويشن
الغارة على القوافل وحده ، وكان يعود إلى القبيلة بما سلب
فيهد الشباب أعينهم إلى ما معه وقد لاح فيها الحسد ، دون
أن يجروا أحد على أن يسأله القسمة أو المشاركة فقد كان قويا
ذا سلطان بطشه شديد .

واشتهرت غفار فى القبائل بالسطو وقطع الطرق فوقر فى
العقول أن غفارا لا يأتى منها شيء طيب ، فإذا ما نزل رجل من
غفار على قوم من الأقوام نظروا إليه فى ربة وعاملوه فى حد
وراقبوه حتى يرحل عنهم .

وعلى الرغم من أن غفارا كانت تعيش على السلب والنهب وزهق الأرواح البريئة فما كانت بقادرة على أن تعيش بلا إله ، فكانت تعبد للات والعزى ونهم وآلهة العرب الأخرى . إلا أن مناة كانت إلهتهم المفضله يحجون إليها قبل أن ينطلقوا إلى الحرم ، ويحلقون رءوسهم عندها إذا ما انقلبوا إلى أهلهم بعد تأدية مناسك الحج في مكة . وكان أبو ذر يقدم إليها نصيبا من غنائمه ويسوق إليها النخائر ويتقرب إليها بالقرايين .

كان أبو ذر شجاعا ورث عن مجتبعه عاداته فما كان يرى في السطو عيبا ، إلا أن الله أعطاه بصيرة نافذة فكان كلما سرى في الليل ورأى النجوم والكواكب والقمر . ففكر في آيات السماء وفي الأصنام التي يقدها فيتدسس الشك في آلهته إلى وجدانه ، وتهمس هواتف الإيسان في ضميره مؤكدة أنها أهون من أن ترفع سماوات وأن تزينا بمصاييح ترشد السارين بالليل ، حتى وإن كانوا قطاع طرق مثله !

واستمر أبو ذر يفكر في ملكوت السماء والأرض فإذا به يستشعر بإشراق النور في قلبه ، وتتكشف الحجب عن عين ذاته ، وتتألف في فؤاده حقائق الأمور الإلهية فيتهدى إلى أن لهذا الكون رباً غير اللات والعزى ومناة وكل آلهة العرب ، إليها عظيما قادرا لا مطمع في أن يرقى إليه العقل أو يتناوله بالدرس والبحث . فأحب أبو ذر ربه وراح يجاهد نفسه ليرضى إلهه ويصلى له ويتوجه حيث يوجهه الله .

وذاق أبو ذر لذة الأنس بالله ، وهبت عليه نسائم الألفاظ (دعوة إبراهيم)

فلمعت في قلبه من وراء ستر الغيب أشياء من غرائب العلم
كالبرق الخاطف راحت تبحو من نفسه كل صفاته المذمومة
وتقطع كل العلائق التي كانت بينه وبين السطو والسلب
وسفك دماء الأبرياء .

وعرف أبو ذر جوهر الحقيقة ووضع قدميه على الصراط
المستقيم ، ولكنه وهو صاحب السطوة والنفوذ في قبيلته لم
يفكر في أن يسفه أحلام قومه أو يسب آلهتهم . فإنه لشيء
رهيب تقشعر منه الجلود أن يقف إنسان وحده في وجه الناس
يعيب دينهم ويأمرهم أن يعبدوا إلها غير آلهة آبائهم الأولين .
وقعدت همة أبي ذر عن أن يدعو إلى الحقيقة التي رآها
بعين بصيرته ، ورضى بأن اهتدى وحده ، وفرح بأنه يتوجه
في دعائه وصلاته إلى الله ، حتى أمه وأخوه أنيس وعشيرته
الأقربين لم يفكر في أن يدعوهم إلى الجحش ، فقد كان على
ثقة من أنه أعجز من أن يقدر على أن يقنع أحدا بتبديل عقيدته ،
وإن كانت تلك العقيدة واهية ينفر منها كل ذى عقل سليم .

آثر أبو ذر السلامة واكتفى بوصول الحقيقة إلى قلبه وهو
المغامر الشجاع الذي لا يهرب الرجال ، ولكن حرب العقائد
تحتاج إلى شجاعة تفوق شجاعة الفرسان ومقارعة الخطوب ،
والدعوة إلى دين تحتاج إلى تأييد من الله ونصر من عنده
وإلقاء أنوار اليقين في القلوب .

وانحبس الغيث عن غفار وأجدبت الأرض وحق بالناس
الضيق ، وبينما كان أبو ذر وأخوه أنيس جالسين يتلويان من

الجوع إذ دخلت عليهما أمهما وفي وجهها رفق قد انتقع لونها
وغارت عيناها وعلاها ذبول ، وقالت :

— أرى أن تنزل على خالكما ، فهو ذو هيئة وذو مال .

ونزل أبو ذر وأنيس وأمهما على خالهما فرحب الرجل بهما
وأكرم وفادتهم ، فلما رأى الناس عطف الخال عليهم تحرك
الحسد في نفوسهم ووسوس لهم الشيطان أن يكيدوا للوافدين
عليهم ، فذهب رجل منهم وقال للخال :

— إذا ما خرجت جلس أنيس إلى نساءك .

وطوى الرجل نفسه عن ابني أخته ، وأحس أبو ذر بإعراض
خاله عنهم فقال له :

— ما خطبك ؟ إنني أنكرتك منذ أيام . أراك معرضا عنا
قليل الحديث طويل التفكير .

فقال الخال والغضب يملأ جوانحه :

— قال لى قومي : إذا خرجت عن أهلى خلفنى إليهم
أنيس :

فقال له أبو ذر فى أسى :

— أما ما مضى من معروفك فقد كدرته ، ولا جماع لنا
فيما بعد .

وعاد أبو ذر وأنيس وأمهما إلى غفار ، ليصلى أبو ذر لله
ويتوجه حيث وجه الله ، ينتظرا ما يأتى به القدر لا يدري
ما يخبئه له القدر .

راحت خديجة تعد زاد أبى القاسم وكان من كعك وزيت .
 وكانت تستشعر نشوة واستبشارا فقد عرفت لذة الخلوة بالله
 والأنس به والفرح الفياض الذى يغمر القواد كلما أشرق فيه
 نور اليقين . فمحمد الحبيب كان يأخذها معه فى السنوات
 الأخيرة لتتعب طوال شهر رمضان فى حراء مع الحنفاء من قریش ،
 فكانت تسعد بصفاء القلب وتتهلل بالبشر لنسائم الرحمة التى
 تهب عليها من خزائن الملكوت ؛ ولكن ذلك الجنين الذى تحرك
 فى أحشائها قد حبسها هذا العام عن أن ترقى لتعتكف مع
 المعتكفين ، وتهيم بروحها رفرافة فى عالم النشوة والنور تنهل
 من ينابيع الكمال والسعادة السرمدية التى لا تعرف الذبول
 ولا الفتور .

وكانت خديجة ترجو أن يكون ذلك الذى فى بطنها عوضا
 لها ولزوجها الكريم عن القاسم الذى مات فى عمر الورود ،
 فالأمين قد حزن عليه حزنا كشف عن تعلق قلبه الكبير بابنه
 العزيز ، فلعل ذلك الآتى بعد حين يكون قررة عينه وغصنا
 رطيبا من شجرته الزكية المباركة .

وجاء أبو القاسم يتألق وجهه بالنور تعلوه هالة من المهابة
فأحست خديجة إجلالا كأنها كانت بين يدي ملك كريم ،
وزاد في روعة مشاعرها ذلك الإشراق الذي غمر الدار وذلك
الأريج الطيب الذي افعم به المكان وانتشت به الأرواح كأنه
انتشر من عالم مسحور .

ومال محمد إلى علي بن أبي طالب وقبله ، ثم حمل فاطمة
الزهراء بين يديه وضبها إلى صدره الخنون وراح يلثمها في
حب عتيق ، وودع خديجة وزيد بن محمد وأم أيمن وكل من في
الدار ، ثم حمل زاده وخرج قاصدا وجه الله معتزما أن يمضي
شهرًا في صحبة مولاه ورعايته راجيا أن يتعرض لنفحاته
ورحمته ، فسعاده الحق في أن تشف روحه وتسمو فوق
سموها لتنعم بغاية غاياته : بالوصال بروح الوجود .

وانطلق يتكفأ في مشيته في الطريق الموصل إلى الصفا
حيث دور بني مخزوم ، ومر على حوانيت العطارين فكان يلقي
على الناس أطيب تحية فيحيونه بأحسن منها ويستقبلونه بأشبه
متطلقي الوجوه ، فهو حبيب إلى كل النفوس لما عرف عنه من
جميل السمائل والخلق العظيم .

ودخل المسجد من باب إبراهيم فإذا الحرم يموج بالبشر ،
أناس ينحرون الذبائح بين إساف ونائلة ويطوفون بما يذبحون ،
وأناس يتزاحمون عند زمزم ، وأناس يتمسحون بالأجسام
ويتهلون إليها ، وكان تمثال مريم وهي تحمل المسيح بين تماثيل

آلهة القبائل التي كانت على هيئة رجل أو امرأة أو فرس أو أسد أو نسر ، قد جلب ذلك التثاقل من بلاد الشام أو الروم العرب المنتصرين ، فالكعبة بيت العرب جميعا وثنيين ومجوس وصابئين ويهود ونصارى وحنفاء موحدين .

وكان أشرف القوم في دار الندوة يحكمون بين الناس ويشرفون على ختان الصبيان وضرب الحجاب على البنات اللاتي بلعن الحلم وتحرير وثائق الزواج أو تزجية الوقت بالإصغاء إلى رواة السوء .

واتشترت نوادي القوم حول أول بيت وضع للناس : فكان بنو هاشم مجتمعين في ظل الكعبة حيث كان يمد فراش عبد المطلب ، وكان بنو أمية وبنو مخزوم وبنو تيم وبنو جمح وبنو أسد وبنو سهم وبنو عدى وبنو عبد شمس ملتفين في حلقات حول سيدهم ، لا هم لهم إلا حديث الدنيا وجمع المال وملاء البطون وإشباع الشهوات والاستجابة للنزوات والفخر بكل ما يحط من شأن الإنسان .

وتقدم محمد إلى الكعبة وكان أمامه مقام إبراهيم وقد التصق بالبيت وبثر أبيه إسماعيل صادق الوعد الأمين والناس يموج بعضهم في بعض ، ولكنه شغل عن الغادين والرائحين والطائفين والجالسين بالمشاعر النبيلة التي ملأت جوانحه بعد أن قطع كل علائقه بالدنيا وتوجه بكل كيانه ووجدانه إلى الله رب العالمين .

وراح يطوف بالبيت سبعا وهو مستغرق في ابتهالاته إلى ربه لا يسمع الأصوات الهادرة من حوله ولا صوت أبيه إبراهيم وأبيه إسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت ويدعوان في حرارة : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . ولا الأهازيج التي كانت في السماء ولا تسيحات الملائكة التي كانت مفعمة بالحرارة تأهباً لليلة مباركة تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هي حتى مطلع الفجر .

وراح محمد يغادر الكعبة وقد أشرق قلبه بنور ربه ووحى الله إلى موسى الكليم يرن في ضمير الوجود : « وسأقيم لهم نبيا مثلك من إخوانهم وأجعل كلامي في فمه فيقول لهم كل شيء آمروه به . وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمي فإني أتقم منه » .

وسار محمد إلى الغار وقد وسع من خطوه يحس تعطشا تاما إلى الأنس بربه ، ومزامير داود في سريرة الكون تنشد : « .. فاضت الرحمة على شفيتك ، من أجل ذلك أبارك عليك إلى الأبد ، فتقلد السيف فإن بهاءك وحمدك الغالب ، واركب كلمة الحق فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك والأمم يخرون تحتك » ونبوءة إشعيا تتألق بالأنوار في التوراة : عبي الذي سرت به نفسي ، أنزل عليه وحيتي ، فيظهر في الأمم عدلي ، ويوصيهم بالوصايا ، لا يضحك ولا يسمع صوته في الأسواق ، نفتح العيون العور والآذان الصم ويحيى القلوب الغلف وما

أعطيه لا أعطى أحدا . مثق (١) يحمد الله حمدا جديدا ، يأتي من أقصى الأرض ، تفرح البرية وسكانها يهللون . الله على كل شرف ، ويكرزونه على كل رابية . ولا يضعف ولا يغلب ولا يسيل إلى الهوى . ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصب الضعيفة بل يقوى الصديقين . وهو ركن المتواضعين ، وهو نور الله الذي لا يطفأ : أثر سلطانه على كتفيه .

واستمر محمد في سيره وقد انكشفت الحقائق كلها في قلبه بإلهام من ربه . وغرته سعادة لما فتح الله عليه من مزايا لطفه ورحمته ، وزادت غبطته لما أحس أنه على نور من ربه .

وظل يشي على الأرض هونا مخلقا دور مكة وراءه ، وخطاب إشعيا لمكة العاقر التي لم يبعث الله بها نبيا بعد يرن في جوف الزمن : « أيتها العاقر ! افرحي واهتزي وانطلقى بالتسبيح فإن أهلك يكونون أكثر من أهلي » .

وراح محمد يشتد في جبال فاران « مكة » وقد هجر الناس والدنيا في حب الله ، وخرج عن نفسه إلى الله وصبر مع الله ابتغاء بقاء لا فناء فيه ، وعز لا ذل فيه ، وأمن لا خوف فيه ، وغنى لا فقر فيه ، وكمال لا نقصان فيه ، وعالم أوسع من عالم الأرض .

ورجع صوت شمعون نبي بني إسرائيل يدوي في أغوار أورشليم : جاء الله بالبينات من جبال فاران ، وامتألت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته .

(١) زاعى وفي خير البشر لابن ظفر « محمد » .

وطلق صدى صوت زرادشت يتجاوب في وديان فارس وسهولها وجبالها « استمسكوا بما جئكم به حتى يجيء صاحب الجبل الأحمر من بلاد العرب .. إن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون ، وينهض رجل من بلاد العرب يهزم أتباعه فارس ويخضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام ، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين ، وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ ، وأن نبهم ليكونن فصيحاً يتحدث بالمعجزات » .

واستمر محمد يعرج في الجبل والأنوار التي تشرق في قلبه تبهر كل الأنوار ، والفرح الفياض الذي يستشعر به في عين ذاته لقربه من الله قرباً حقيقياً يفوق كل أفراح الدنيا ، بعد أن صار جمال المدركات بالبصائر أكمل عنده من جمال المبصرات ، ولذة النظر إلى الله أمتع من كل اللذات الحية التي ما إن تفور حتى تفور . وكان غائبا عن كل ما عوله إلا عن ربه ، بينا كان ملايين المتعبدين في الهند يقرءون في السامافيدا : « تلقى أحمد الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة ، وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس » .

كان وهو يشتد في الجبل هائما في محبة الله يتطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال ، تأججت في وجدانه أنوار الأشواق والإشراق ، فراح يغذ السير في حماس لينفرد بربه

ويخلو بحبيبه ، ويستغرق في عذوبة الذكر ويستمتع بحلاوة
الانس ويستحوذ على مفاتيح السعادة التي تنزل الرحمة على
قلبه ، انارات الانبياء تحقق بذكره في الكتب المقدسة ،
فحقيق قول : إذا جاءت الأمة الآخرة يسبح بهم صاحب
الجمال بساطا جديدا في الكنائس الجديدة ، فافرحوا وسيروا
إلى صلب بقلوب آمنة وأصوات عالية ، بالتسبيحة الجديدة
التي أعطاكم الله في الأيام الآخرة ، أمة جديدة بأيديهم سيوف
دوات شفرين ، فينتقمون من الأمم الكافرة في جميع الأقطار .
ويوحنا الإنجيلي يقول في رؤياه : ثم رأيت السماء مفتوحة
وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أمينا صادقا وبالعدل
يحكم . ويوحنا اللاهوتي يقول : ومن فمه يخرج سيف ماض
لكي يضرب به الأمم ... وهو يدوس معصرة خمر .

واسمر في صعوده وقد تواضع لله وهو ينعم بجيشان
العواطف النبيلة في وجدانه . تلك العواطف التي تتجه إلى الله
وتستمد حيويتها منه وتتألق وتشرق بنوره ، يحس في صميم
ذاته لا بجوارحه أنه يسير معه ، وأن قلبه يخفق بذكره ، وأن
روحه ترفرف بحمده ، وأن أنفاسه تسبح له ، وأن السموات
والجبال والوديان تترنم بمجده .

ورن صوت يحيى بن زكريا في قافلة البشرية مبشرا بقرب
ملكوت الله قائلا : توبوا فقد اقترب الملكوت ، وصوت المسيح
تتجاوب به الجبال والوديان والسهول والبرية : الحجر الذي
رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية ، من قبل الرب كان

هذا وهو عجيب في أعيننا ، لذلك أقول لكم ، إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل ثماره .

إن أحببتموني فاحفظوا وصيتي وأنا أطلب إلى أبي فيعطيكُم فارقليط آخر يكون معكم الدهر كله ... إن هذا الكلام الذي سمعتموه ليس هو لي ، بل للأب الذي أرسلني ، كلمكم بهذا وأنا معكم ، فأما الفارقليط روح القدس الذي يرسل أبي باسمي ، فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم جميع ما أقول لكم .

إن انطلقى خير لكم ، لأنني إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط ، فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة . ولا يقوا ، من تلقاء نفسه ولكنه ما يسمع يكلّم به ، ويسوسهم بالحق ويخبرهم بالحوادث والغيوب .

وسرى في الوجود ابتهالات المسيح في صلواته : « فليأت ملكوتك » . وحواره لحواريه لما ضرب لهم مثل الزرع والزارع ولما سألوه ماذا أراد بهذا المثل وقوله لهم : لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت الله ، الزرع هو كلام الله .

وبلغ محمد مدخل الغار فالتفت خلفه يلقي نظرة على الكون ، فإذا بتور يملأ ما بين المشرق والمغرب ، وإذا بالنسيم يهب رخاء له تسييحات تشرح الصدر ، وإذا بعطايا نورانية توهب له من جود الله وكرمه فترفعه إلى ذروة انتصاره الروحي . وتقدم ليدخل الغار على بركة الله وكانت بشارة السيد المسيح تقرع الآذان الغافلة : « يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا

لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » .

ودخل غار خراء ليرابط مع الله ويتدبر ويتفكر ويسعد غاية السعادة بلذة المناجاة ويفتح نفسه لتلقى كنوز السماء . فصفا قلبه من شواغل الدنيا . وزكاه بالنظر إلى ملاحظة جلال الله وجلاله وجلاله بالترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله عليه من الرحمة ، وأقبل على ربه بإرادة صادقة فبذر الله في أغواره الاخلاص وهو سر من أسرار الله يستودعه قلب من أحب من عياده . ليظهر به ينابيع الحكمة من القلب على اللسان .

وأقبل بكنه الهة على الله فأرشد إلى الطريق ، وقويت بصيرته على مشاهدة ما وراء حواسه الخمس وأشرق سراج عقله فإذا بعلم من عند الله ينقش في بياض لوح قلبه . وإذا بالصور الباطنية التي لا تدرك بالأبصار بل بالبصائر حقيقة ساطعة ناصعة أمام عين ضميره ، فغمره استبشار وفرح فياض لذلك اليقين الذي استولى على قواده .

وأحس أنه دنا فتدلى من المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت الواحد القهار ، وأنه يقرع أبواب السماء وأن الأبواب جميعا فتحت له ، وأن كل الحجب ارتفعت عن سر الغيب ، فسمِع بخصب وجوده وامتلائه بالحكمة ، وبأن كلاما كريما نزه عن معاني الحروف والأصوات ينث في روعه ، فألقى سمعه وهو شهيد وقد تهلل بالفرح لما يوحى إليه .

وأضاء زيته الذي في مشكاة قلبه وازداد اشتعالا فأصبح
تورا على نور ، والتفت في الغار فإذا بنور باهر قد تألق بالمكان ،
نور يبهر نور الشمس ، فامتلا دهشة وقبل أن يفيق من دهشته
سمع صوتا ينادى :

— يا محمد ! يا محمد !

فانخلع قلبه وخرج من الغار مرعوبا ، وانطلق إلى دار
خديجة لا يلوى على شيء وهو يضطرب من الخوف على الرغم
من الرؤيا الصادقة التي كان يراها تأنيسا له ولكي يهدأ فؤاده .
ولما رآته خديجة والفزع في وجهه هربت إليه تسأله ما به ،
فقال لها :

— أرى نورا وأسمع صوتا وأخشى أن يكون بي جنون .

فضمته إليها في حب شديد وقالت في إيمان :

— كلا يا بن عم : ما كان الله ليفعل ذلك بك ، فوالله إنك

لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث .

وسمع أبو بكر أن صديقه أبا القاسم قد عاد خائفا من حراء
فانطلق إلى دار خديجة ليرى ما الخبر ، وبلغ الدار ودخل على
خديجة وليس عندها أبو القاسم فسألها عن الخبر فقضت عليه
حديث زوجها ثم قالت له :

— يا عتيق اذهب بمحمد إلى ورقة .

ودخل أبو القاسم فأخذ أبو بكر بيده فقال :

— انطلق بنا إلى ورقة .

وذهب به إلى ورقة فقال محمد :

— اذا خلوت وحدي سمعت نداء خلقي : يا محمد !
يا محمد ! فأطلق هارباً إلى الأرض .
فقال ورقة له :

— لا تفعل ، إذا أتاكَ فائتحت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني .
وعاد محمد إلى غار حراء ولا يزال أثر الخوف في قلبه ،
وسرعان ما ردت نفسه إلى طبيعتها لما عاود النظر إلى الله وحرك
النظر القلب إلى ذكر الله فاطمأن فؤاده وانشرح صدره بالأنس
بالله ومشاهدته ومراقبته ومناجاته .

وجاءت ليلة القدر أعظم ليلة في تاريخ الوجود ، وحانت
اللحظة التي بشر بها كل الأنبياء ، وأتى ملكوت الله الشريعة
البيضاء كلام الله على الأرض ، فإذا الملائكة تنزل والروح فيها
ياذن ربهم من كل أمر ، وإذا بأنوار تشرق في الغار ومحمد قائم
يدعو ربه ، جاءه الملك فقال :

— اقرأ .

فقال محمد في خوف :

— ما أقرأ .

فحبس نفسه حتى ظن محمد أنه الموت ، ثم أرسله فقال :

— اقرأ .

— ما أقرأ .

فحبس نفسه حتى ظن محمد أنه الموت ، ثم أرسله فقال :

— اقرأ .

— ما اقرأ .

فحبس نفسه حتى ظن محمد أنه الموت ، ثم أرسله فقال :

— اقرأ .

— ما اقرأ .

— « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق
اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .
فقرأها محمد فانصرف عنه فخرج محمد مرعوباً من الغار ،
حتى إذا ما كان فى وسط من الجبل سمع صوتاً من السماء
يقول :

— يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل .

فرفع رأسه إلى السماء ينظر فإذا جبريل فى صورة رجل
صافٍ قدميه فى أفق السماء يقول :

— يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل .

فوقف ينظر إليه فما يتقدم وما يتأخر ، وجعل يصرف وجهه
عنه فى آفاق السماء فلا ينظر فى ناحية منها إلا رآه كذلك ،
فما يزال واقفاً ما يتقدم أمامه وما يرجع وراءه .

وصنعت خديجة طعاماً ثم أرسلته لأبى القاسم فجاء رسلها
إلى الغار فلم يجدوا محمداً به ، فعادوا إليها وقالوا فى خوف :
— لم نجده بحراء .

وخفق قلب خديجة رهبة وذهبت نفسها شعاعاً خشية أن

يكون قد حاق بالحبيب مكروه ، ولم تستطع صبرا فأرسلت
في طلبه إلى بيت أعمامه وأخواله فلم تجده ، فشق ذلك عليها
حتى أتتها ترتجف بوادره فجلس إلى فخذها ملتصقا بها ،
فقال في وجد :

— يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله بعثت رسلى في طلبك
حتى بلغوا مكة ورجعوا لى .
فقال لها :

— لقد أشفقت على نفسى .

وراح يخبرها الخبر وخديجة تصفى إليه في اهتمام وقد
تذكرت تلك الليلة التي رأت فيها الشمس تهبط إلى سماء دارها
لتشرق بنورها على المشرق والمغرب . وتذكرت قول اليهود
يوم اجتمعت نساء قريش في الحرم : قد أظل زمان نبى فسن
استطاعت أن تكون له فراشا فلتفعل . وطفقا على سطح ذهنها
كل النبوءات التي كانت تشير إلى أن محمد بن عبد الله هو
المنتظر والمرتبب ، فما كاد ينتهى من حديثه حتى قالت فى
حماس :

— أبشر يا بن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى
لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

فوالله لا يخزيك الله أبدا ، فوالله إنك لتصل الرحم وتصديق
الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين
على نوائب الحق !

وملا حديث خديجة قلب زوجها ثقة . ولم تطلق الصبر على
الانفعالات التي راحت تنور بين جنبها فقامت فجسعت عليها
ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل . فأخبرته بما أخبرها به
أبو القاسم أنه رأى وسمع ، فقال ورقة :

— قدوس قدوس (١) ! والذي نفس ورقة بيده لئن كنت
صدقته يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي
موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت .
وخرج أبو القاسم وراح يطوف بالكعبة فلقبه ورقة بن
نوفل فقال :

— يا بن أخى أخبرني بما رأيت وسمعت .
فأخبره فقال له ورقة :

— والذي نفسى بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك
الناموس الأكبر الذي جاء موسى وتكذبت به (١) ولتؤذنه
ولتخرجنه ولتقاتلته ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن
الله نصرا يعلمه .

ثم أدنى رأسه منه فقبل يا فوخه .

(١) قدوس . قدوس أى طاهر طاهر وأصله من التقديس وهو التطهير .

(١) الهاء في هذه الأفعال للسكت .

تهلكت خديجة بالفرح حتى إنها راحت تناجى الله والدموح
 تملأ عينها والاتصال الشديد يستحوذ عليها ، كانت تشكره
 بلسانها وبكل جوارحها على أن اصطفى محمد بن عبد الله
 لرسالته ، وزاد في غبطتها صدق ما نثت في روعها وما رأت
 في أحلامها بعد أن عاد مسيرة من الشام يقص عليها أبناء الأمين
 وما كان بينه وبين الرهبان والتجار والسادة والعبيد . فقد
 ألقى في عين ذاتها منذ تلك الأيام أن ابن عبد الله هو النبي
 المرتقب ، وقد دفعها إيمانها بما وقر في ضميرها أن تعرض نفسها
 على محمد بعد أن دست عليه من يزين له زواجها ، وهى الطاهرة
 سيدة نساء قريش من تقدم إليها أعظم سادات قومها يطلبون
 يدها فرفضتهم جميعا لأنهم دون آمالها وأحلامها .

كانت آمالها العريضة المجنحة تزين لها أن تكون فراشا
 للنبي العربي الذى بشر به الأنبياء ومن أكذب النبوءات
 جميعا أن قد أظل زمانه ، فكانت تقيس كل من يتقدم إليها
 بصفات الأنبياء فما وجدت في كل من تقدموا لخطبتها الصفات
 التى تؤهلهم للرسالة . ولكنها ما إن رأت محمدا واستأجرته

لتجارتها وسمعت ما يقول الناس عنه حتى لمست فيه الورع والتقوى والأمانة والعفة والخلق الكريم ، فألهمت أنه نبي هذه الأمة وآمنت به وتزوجته . ولم يتزعزع ذلك الإيمان لحظة واحدة بل كان يزداد على مر الأيام قوة وتألقا .

كانت تتعجل الزمن وتتلهف على مبعث زوجها فكانت تذهب إلى ابن عمها الشيخ الجليل ورقة بن نوفل تقص عليه أحوال محمد وما يرى في نومه ويقظته وأنسه بربه ورفع أستار الغيب عن جوهر الحقيقة ، فكان ورقة يصغى إلى حديثها في اهتمام ولا يزيد على أن يقول في انفعال : متى يا خديجة متى ؟!

وهاهى ذى النبوة قد صارت حقيقة واقعة بعد أن أوحى الله إلى عبده ما أوحى ، وقد وقفت خديجة إلى جوار زوجها تسكن روعه وتشد أزره وتؤكد له فى ثقة أن الله لا يخزيه أبدا لأنه على خلق عظيم . إنها قد استبشرت بفيض كرم الله على زوجها وعليها ولكن ذلك الفرح بتحقيق أمانها لم يذهلها عن طبيعتها . إنها تريد أن تكون أمينة مع نفسها ، أمينة مع ربها ، أمينة مع الرسالة المباركة التى وضعت على أكتاف زوجها ، فلم تقبل الأمر فى يسر دون تفكر أو تدبر بل أرادت أن تستوثق وأن يطمئن قلبها إلى أن ذلك الذى يأتى زوجها ملك من عند الله وليس بشيطان من الجن ممن يعوذ بهم الكهان قبل أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فقالت لأبى القاسم وهى تحاوره :

- أى ابن عم . أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى
يأتيك إذا جاءك ؟

قال :

- نعم .

- فإذا جاءك فأخبرنى به .

فجاء جبريل فقال محمد صلى الله عليه وسلم لخديجة :

- يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى .

- قم يا ابن عم فأجلس على فخذى اليسرى .

فقام محمد صلى الله عليه وسلم فجلس عليها فقالت :

- هل تراه ؟

- نعم .

- فتحول فأجلس على فخذى اليمنى .

فتحول فجلس على فخذاها اليمنى فقالت :

- هل تراه ؟

- نعم .

- فتحول فأجلس فى حجرى .

فتحول فجلس فى حجرها قالت :

- هل تراه ؟

- نعم .

فتحسرت وألقت خمارها وأدخلت زوجها بينها وبين درعها

ثم قالت له :

— هل تراه ؟

— لا .

فقالت في فرح :

— يا بن عم أثبت وأبشّر ، فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان .
وأُتْلِخ صدر خديجة وتهلّت أساريرها وغرّها إيمان عجيب ،
وإذا بشفتيها تتحركان بأول شهادة تحركت بها شفتا مسلم على
وجه الأرض فقالت في صدق :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .
فاذا بنور يسلأ أرجاء الدار وكأنه انبعث من مشكاة قلب
خديجة ، وإذا بالدموع تترقق في عيني أبي القاسم فيخر
ساجداً لله .

وخرج محمد صلى الله عليه وسلم إلى أعالي مكة فإذا
بجبريل يأتيه فيراه كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغريال .
وراح يعلمه الوضوء فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ومسح
رأسه ورجليه إلى الكعبين ، ففعل محمد عليه السلام مثله ، وركع
جبريل ركعتين . مواجهة للبيت الحرام ، ففعل محمد كما يرى
جبريل يفعل ، وكان ذلك قبل غروب الشمس . ثم انصرف
جبريل فجاء محمد عليه السلام خديجة فتوضأ لها ليربها كيف
الطهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ لها
أبو القاسم ، ثم صلى بها رسول الله عليه السلام كما صلى به
جبريل ، فصلت بصلاته .

وكانت أول صلاة أقيمت في الدين الجديد . ونام الزوجان متفرحين بالله وقلباهما قد شغلا بالله ، فالعين تنام والقلب يقظان . وقبل طلوع الشمس قام محمد عليه الصلاة والسلام وخديجة التي تم لها الاستبصار، وعلمت علم اليقين أنها على الطريق فتوضأ وصليا ركعتين ، فقد كانت الصلاة ركعتين قبل غروب الشمس وركعتين قبل طلوعها . « وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار » .

وبينا كان محمد عليه السلام آخذاً بأطراف الحديث مع خديجة إذا بالردة تستقبله وتريد وجهه وغمض عينيه ، ولم تستطع خديجة أن ترفع وجهها إليه وإن كانت تسمع عند وجهه كدوى النحل ، وظن محمد أن نفسه تقبض منه وإن كان يسمع صوتاً له صلصلة كصلصلة الجرس يخالط قلبه ، وزال عنه ما كان يكابده وقد وعى كل ما سمع ، فنظر إلى خديجة وهو متطلق الوجه وقال :

— يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك .

فخفق قلبها بالرضا وقالت في انفعال شديد :

— الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام .

بلغ زينب ورقية وأم كلثوم أن أباهن الحبيب عاد من غار حراء مرعوباً يرتجف من الخوف فهرعن إليه خافقات القلوب يخشين أن يكون قد أصابه مكروه ، فإذا كل من فى الدار مشفقاً على الرجل الكريم . ولولا قوة ثبات جنان خديجة ، وإيمانها العميق بزوجها وبأن الله لا يخزيه أبداً ، لذهبت نفوس بنات محمد شعاعاً ، ولمزق الحزن قلب زيد بن محمد ، ولأصاب على بن أبي طالب البوار ، ولا تفطر كبد أم أيمن . فقول محمد الذى كان الروح التى تخفق فى جنباتهم لخديجة : إذا خلوت سمعت نداء أن يا محمد يا محمد وأرى نورا وأخشى أن يكون بى جنون ، كاد يذهب عقولهم ، فإنه لشيء يفوق الاحتمال مجرد التفكير فى أن الرجل الذى عرف برجاحة العقل والحكمة قد طاش له .

كان كل من فى الدار خائفين على رب البيت يرتجفون فرقا مما سمعوا ، ولكن خديجة كانت ثابتة ثبات الطود لم يتزعزع إيمانها برجلها قيد أنملة ، فهى منذ عرضت نفسها عليه ترجو أن يكون نبي هذه الأمة ، وقد عاشت معه خمس عشرة سنة

لا ترى منه إلا كل خلق عظيم . وها هي ذى اللحظة الحاسمة التى كانت تترقبها فى لهفة قد أقبلت . لحظة أن يبعث الله زوجها إلى الناس وأن يكرمه بالنبوة . فقالت له لتسكن روعه ولتنفى عنه مظنة الجنون : كلا يا بن عم ، ما كان الله ليفعل ذلك بك . فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث . إن خلقك لكريم .

كانت مؤمنة بكل كلمة نطق بها لسانها ، وقد خفف قولها من لوعة الأسى التى نزلت بأفئدة أهل البيت وأضاءت نور الأمل فى نفوسهم التى كانت مظلمة حزينة حتى الموت . ولما جاء أبو بكر الصديق الوفى لأبى القاسم وأخذ بيده إلى ورقة بن نوفل ثم عاد به يقص على الجميع ما كان من قول ورقة لمحمد : إذا أتاك فائت حتى تسمع ما يقول . استبشرت خديجة وراحت زينب تعبت فى القلادة التى أهدتها لها أمها يوم زواجها وهى تحاول أن تزن بعقلها كل ما سمعت وكل ما قيل وكل ما عرفت عن أيها من مكارم الأخلاق ، فتسللت الطمأنينة إلى قلبها وإن كانت مشفقة على أيها مما هو فيه . وراحت رقية تنقل بصرها بين أيها وأمها فتستشعر رغبة فى أن تجهش بالبكاء ولكنها كانت تغالب عواطفها حتى لا تزيد الجو المكفهر الذى رأت على الدار تجهما وقلقا وحيرة . وكانت أم كلثوم تتأرجح بين الأمل الذى أشرق من فم الطاهرة سيدة نساء قريش وبين الاضطراب الذى كانت تغذيه مخاوفها .

ولم تجد فاطمة الزهراء من تلوذ به من إحساساتها المتباينة

غير صدر أيها فارتمت بين أحضانه وتشبث به فانقشع عنها كل خوف . بينا راح على بن أبي لب القتي الذي لم يبلغ بعد العاشرة يغدو ويروح في الدار يفكر في مصدر الصوت الذي نادى ابن عمه الحبيب ومنبع النور الذي أشرق في الغار في سواد الليل البهيم .

وكانت أم أيمن لا تدري ماذا تفعل وما تقول ، كانت تسمع مخاوف سيدها فتنهمر منها الدموع وكانت تصغى إلى أحاديث سيدتها التي تنبض بتقاؤل صادق فيشرق في فؤادها النور .

وجاء هند بن أبي زرارة يسعى إلى الدار يسأل أمه عن حال أبي القاسم الرجل الذي شب في كنفه فلم يجد منه إلا كل خير وحب ، فلم يسمع منها كلمة واحدة تتم عن الخوف بل كانت في نبراتها رنة فرح كأنها قد جاءها زوجها بالبشرى ولم يأت خائفا يترقب .

وراح أبو القاسم يتأهب للعودة إلى الغار ليقطع كل علائقه بالدنيا ويداوم على ذكر الله ليصفو قلبه وتشرق عليه أنوار المعرفة وقد شلت زوجته العظيمة أزره بوقوفها إلى جواره وإيمانها العميق به ، فراح يغادر الدار بخطى ثابتة وقد تعلقته به العيون المشفقة والقلوب المحبة .

وعادت زينب إلى دار زوجها العاص بن الربيع وجعلت تفص على ابن الخالة بعض ما دار من حديث في بيت أيها حول ذلك النور الذي رآه أبو القاسم والصوت الذي سمعه وهو يتعبد في الغار . وبلغ هالة بنت خويلد حديث ما جرى في حراء

فأشفقت على أختها وأقبلت على زينب تستوضحها الأمر
فتزداد حيرة على حيرة ، فما رأت تعليلا لذلك النور الذي
أضاء الغار في الظلام ، ولا لذلك الصوت الذي ينادى محمدا
من المجهول ، وقد كانت تعرف خلق أبي القاسم جيدا فهو
يمقت الكهانة والكهان ، ولولا ذلك لأقنعت نفسها بأن تلك
البشائر إن هي إلا إرهابات بكهاتته .

وحدثت رقية زوجها عتبة بن أبي لهب بما ألم بأبيها ،
وأظهرت إعجابها بأمها ورباطة جأشها وإيمانها الذي لم يترزع
بأن الله يريد لأبي القاسم أمرا وأن سيكون له شأن عظيم ،
وراحت تقص عليه كيف أتى عتيق إلى الدار وأخذ بيد أبيها
إلى ورقة بن نوفل ، وكيف طلب ورقة من أبيها أن يثبت ولا
يفزع حتى يكشف سر النور والصوت الآتي من وراء الحجب .
وجلست أم كلثوم أمام زوجها معتب بن أبي لهب شاردة
اللب قد ظهر في وجهها خوف وقلق ، وراحت تسأل زوجها
من أين جاءت لخديجة كل هذه الطمأنينة التي بدت في حركاتها
وسكناتها ، وتؤكد له أنه لولا تفاؤل أمها واستبشارها لانهارت
ونزل بقلبها حزن ثقيل . وأظهرت إعجابها بسيدة نساء قريش
انتي أضفت على البيت السكينة والهدوء بل جعلت الأمل
بتدسس في أفئدة أهله .

وكانت خديجة تغدو وتروح في الدار في قلق فقد كانت
تترقب أمرا جليلا أمرا داعبها سنين طويلة ، فلما دنت من
تحقيق أحلامها اتابها خوف شديد من المجهول ، ولكنها راحت

تقاوم ذلك الخوف وتحاول أن ترد نفسها إلى طبعها الهادئ ،
تستطيع أن تقف إلى جوار أبي القاسم ، فهو في حاجة إلى
مزيد من عطفها وتأييدها .

وبعثت خديجة رسلاً إلى حراء ليحملوا له زاده وليطمئن
قلبيها الواجف عليه ، فلما عادوا إليها يقولون : لم نجد
أبا القاسم في الغار . اشتد وجيب قلبها واستبد بها خوفها فلم
تستطع صبرا ، فبعثت رسلاً إلى دار أبي طالب ودار العباس ،
ودار حمزة ودار أبي لهب ودور أعمامه كلهم ودور أخواله
من بنى زهرة ليجثوا عنه ، فلما عادوا إليها وقالوا لها لم نجده
أحست أنها تريد أن تنهار وأن الفزع قد زلزل كيائها .

وجاءت زينب ورقية وأم كلثوم يسعين إلى دار ساطهرة
والخوف يلفهن والقلق يمور في صدورهن والحيرة تظل من
العيون . فلما رأين أمهن هرعن إليها يلتمسن عندها السكنة
ولكن خديجة صاحبة القلب المؤمن الكبير كانت ترتجف من
الرأس إلى القدم خشية على الرجل الحبيب الذي عاشت معه
أسعد أيام حياتها .

وجاء أبو القاسم وفي عينيه فزع ترتجف بوادره مما فعل
به الملك وما قال له ، وهو الذي كان يعد لهذه اللحظة الرهيبة
منذ استقبلته على يديها الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف لما
وضعت آمناً في دار عبد الله ، وراح يقص على خديجة كيف
ضمه الملك وكيف أرسله وهو يقول له : اقرأ . حتى إذا
ما انتهى أبو القاسم من حديثه وقالت له زوجته : أبش يا بن

عم فإني أرجو أن تكون نبي هذه الأمة . لم يحتفل التريث بل أسرع بارتداء ثيابها وخرجت إلى دار ابن عمها الشيخ ورقة وقصت عليه كل ما سمعت من أبي القاسم ، فلما قال لها ورقة : إنه الناموس الذي جاء موسى انجفلت إلى دارها تكاد يغشى عليها من الفرح ، فقد تحققت كل أمانيتها وأحلامها . وأصبح محمد نبي هذه الأمة .

وشهدت خديجة وبناتها أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقد انعكس الإيمان العميق على الوجوه المستبشرة . وقالت بنات محمد في فرح وهن ينصرفن إلى دورهن إنهن سيتحدثن إلى أزواجهن بالنبا العظيم ، ولكن محمد صلى الله عليه وسلم طلب منهن أن يكتمن هذا الأمر حتى يأمره الله بإعلانه . وعند الغروب وقف محمد عليه السلام يصلي وخلفه خديجة ، وبينما هما مستغرقان في صلاتهما دخل على بن أبي طالب وظل يرقبهما في عجب ، حتى إذا ما أتتا صلاتهما تقدم على من ابن عمه وقال :

— ما هذا ؟

فأقبل محمد — صلوات الله عليه وسلامه — على الصبي الذي تربى في كنفه والذي طالما حدثه حديث الروح وقال :

— دين الله الذي اصطفاه لنفسه وبعث به رسله ، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته ، وإلى الكفر باللات والعزى .

فراح على يرمق ابن عمه في دهش ثم قال :

— هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فليست بقاض أمرا حتى
أحدث أبا طالب .

وكره أبو القاسم أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره ،
فقال له :

— يا على إذا لم تسلم فاكم هذا .

وانصرف على ومحمد صلى الله عليه وسلم مطمئن إلى أن
الفتى لن يفشى سره فهو ربيبه تلقى عنه مكارم الأخلاق ، وما
كان لمن شب في حجر النبي أن يخونه أو يفشى سرا طلب منه
أن يخفيه .

ودخل على لينام وهو يفكر فيما رأى وفيما سمع من
الرجل الذي أحبه بكل جارحة من جوارحه والذي اتخذته
أسوة حسنة ، إنه يدعو إلى دين اصطفاه الله لنفسه وبعث به
أنبياءه فهو يدعو إلى الخير ، وإن كان قد دعاه إلى الكفر
باللات والعزى فقد سبق أن غرس ابن عمه الحبيب في نفسه
كراهية الأصنام جسيما فلم يسجد لللات والعزى ولا لصنم من
الأصنام التي تكدست في الكعبة ووضعت من حولها . وراح
يزن كل كلمة من الكلمات التي قالها لابن عمه لما عرض عليه
الإسلام ، إنه قال له إنه لن يقضى أمرا حتى يحدث أبا طالب ،
وإذا بأفكار أكبر من سنه تغمر رأسه فقد أراد الله له الرشيد
فأنار بصيرته وجعله يسأل نفسه : الله استشار أبا طالب لما
أراد أن يخلقه ؟ ! فما دام الله لم يحدث أباه يوم أن أرادت

— ١٢٦ —

مشيئته أن يهب الحياة فلماذا يؤجل هو اعتناقه عقيدة خيرة
تدعو إلى إله واحد لا شريك له إلى أن يحدث أباه ؟
واحس الفتى الصغير نسائم حرية صادقة تهب على وجدانه ،
وراح يتذكر كل ما راه من الأمن من صدق ومروءة ونخوة
وإغاثة للملهوف وصلوة الرحم وخلق كريم فإذا بهامس يهمس
في أغواره : إن لم يكن أبو القاسم نبي هذه الأمة فمن يكون ؟
وإذا برحمة من الله تطوف به فبات يتحرق شوقا على طلوع
النهار ليعلن إسلامه .

وأشرقت شمس يوم الثلاثاء اليوم التالي لنزول الوحي على
محمد صلى الله عليه وسلم في حراء ، وتأهب محمد وخديجة
للصلاة وإذا بباب يفتح ويخرج منه على ويندفع إلى أبي القاسم
وهو يقول في انفعال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .
وضم محمد صلى الله عليه وسلم عليا إلى صدره في حب
عميق ، وراحت خديجة ترنو إليهما وقد تفرقت في عينيها
الدموع .

وتوضأ على ووقف خلف رسول الله ، ووقفت خديجة خلف
على وراحوا يصلون ركعتين لله سرا . وقد أحست خديجة أن
الدار تفيض بالأنوار وأنه عما قريب ستغمر رسالة السماء
المشارك والمغارب ، وسيحقق حلمها الذي رآته منذ أكثر من
خمسة عشر عاما .

وجاء زيد بن حارثة فاستقبله أبو القاسم باثنا ثم راح

يعرض عليه الإسلام ، فأطرق زيد برهة وإذا بكل حياته مع الرجل الرحيم الذى تبناه تمر فى مخيلته كلسح البصر ، ورن فى ضميره صوت محمد صلى الله عليه وسلم فى ذلك اليوم الذى جاء فيه أبوه وعمه لفدائه : أنا من قد علمت وقد رأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما ، وإذا به يقول : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا . أنت منى مكان الأب والعم .

اختاره على أييه وأمه وأهله ، فضله على أسرته وقبيلته ووطنه ، وهو يعرض عليه الآن أن يكفر بالأصنام وأن يقر بالوهمية الله وحده لا شريك له ، وإنها لدعوة تطمئن إليها الفطرة . وإنه لعلى خلق عظيم ، وهو أهل لأن يكون لله رسولا . وأحسن زيد إشراقا فى ضميره وانشراحا فى صدره فأعلن عن رضى واغتباط إسلامه .

وجلس أم أيمن إلى محمد وخديجة تصغى إليهما وهما يحدثانها حديث الدعوة الجديدة التى تنفى الألوهية عن كل الآلهة ثم تثبتها فى قوة الله وحده لا شريك له ، ورأت أم أيمن أنها دعوة بسيطة لا تعقيد فيها ، دعوة يقبلها العقل وتبتهج بها الروح وتشرق لها النفس ويطمئن القواد ، فدخلت فى الدين الجديد وهى مستبشرة بما أتاها .

وعند الغروب قام محمد ومن خلفه على وزيد ومن خلفهم خديجة وأم أيمن يصلون لله ، وباتت دار خديجة هذه الليلة وهى أول بيت من المسلمين .

كانت خديجة قد قطعت كل العلائق بالتجارة وزينة الحياة الدنيا بعد أن رفع محمد صلى الله عليه وسلم الحجاب عن قلبها وطهر كل السبل للوصول الحقيقة إلى فؤادها وجعلها تتذوق لذة الاتفاق حبا في رضوان الله ، وكانت تعيش على أمل أن تتحقق أحلامها وبشارات الكهان والأخبار والرهبان ويصبح أبو القاسم النبي المنتظر . فلما نزل الوحي على زوجها الحبيب في غار حراء وتأكدت من صدق نبوءته وأن ما جاءه هو الناموس الأكبر الذي جاء الأنبياء من قبله وأنه قد علمه الوضوء والصلاة لرب العالمين ، كاد يغشى عليها من الفرح ولكنها أحست بفطرتها السليمة أن نزول الوحي هو بداية الجهاد والشدة ، وأكد صدق إحساساتها قول ورقة للنبي صلى الله عليه وسلم :
ولتؤذبه ولتخرجه ولتقاتله .

إنها دعوة وإن أبا القاسم خير من ينهض بها ، وإنها جهاد وإنه لخير المجاهدين ، وإنها لشدة وهو خير الصابرين على الشدائد ، وإنها لقتال في سبيل الله وهو فارسها ، فهو يجيد ركوب الخيل والضرب بالسيف وتسييد الزمالة وإنه يدرب

ابن عمه الفتى على بن أبى طالب ليثب فارس قرش وخير
صناديدها .

كان إيمانها به وبقدرته ليس له حدود ، وكانت تراه كفتا
للمرسالة وعبائنها وإلا لما اصطفاه ربه لرسالته ، وكانت ترى
نفسها المتفرحة فى الله المتفتحة لعطايا الله الهائلة فى ملكوت
الله المتأهبة لتحمل كل الشدائد فى سبيل الله حسنة من حسناته ،
فهى أول مريدة فى مدرسة النور ومكازم الأخلاق .

وأسلنت وجهها لله وعرفت لذة مناجاته وطول النظر
إليه ، ولكنها كانت متلهفة على أن يستعلن أمر الأمين ليغسر
النور أفئدة قومها وليهديهم ربهم الصراط المستقيم ، قلبها
الكبير كان عامرا بحبهم بل بحب البشر أجمعين .

وأطلقت لحيالها العنان وراحت تفكر فى بيوت شرف
قرش العشرة ، وكان بنو أسد رهطها أول من فكرت فيهم ،
فورقة بن نوفل قس قرش وأكثرهم علما بالأديان قال لأبى
القاسم : والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة . وهى تحسب
أن مثل هذا القول من شيخ بنى أسد سيجعل الأسديين
يهرعون إلى الدخول فى دين الله أفواجا ، وطاق بذهنها ابن
أخيها حكيم بن حزام ، إنه سيد من سادات دار الندوة وله
مكانة مرموقة بين أشرف قرش ، فلو اعتنق حكيم بن حزام
الدين الجديد لشجع ذلك كثيرا من قومه على الدخول فى
الإسلام . ولكن هل يفعل حكيم ؟

وفكرت فى الزبير بن العوام ، إنه فتى جلد فى الثانية
(دعوة إبراهيم)

والعشرين من عمره مات أبوه العوام بن خويلد من عشرين سنة في حرب الفجار ، وقد حزن عليه حزنا شديدا وغمرت ابنه بحنانها فكان يأتي لزيارتها ويجلس إلى زوجها طويلا يلقي إليه سمعه وهو مبهور بحديثه الشجي الذي لا يرتفع إليه أحاديث حكماء العرب ، وهو وإن كان ابن أخيها فهو في ذات الوقت ابن عنته صفية ، وهو راجح العقل حر التفكير ، وهي على ثقة من أنه سيرحب بالدين الجديد بل سيكون من خيرة جنوده ، فهو لا يزال في مقتبل العمر لم تقسده المطامع الدنيوية ولم تجمد نفسه على التعصب الأعمى للألهة .

وفكرت في أخيها هالة وفي ابن أختها العاص بن الربيع زوج العزيزة زينب ، فحقق قلبها حبا وعطفا وخوفا ، فهي ترجو صادقة أن يشرح الله قلبيهما للإيمان بالدعوة الجديدة لأنها تحب لهما الخير والسعادة والهداية ، بيد أنها تخشى أن تأخذهما العزة بالإثم فتصبح حياة ابنتها المؤمنة التي شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أليمة لقلبها الغض الذي تفتح لحياة مشرقة جديدة على قومها .

واشتد وجيب قلبها واستولى عليها خوف شديد لما احتلت العزيزتان رقية وأم كلثوم صفحة رأسها ، إنها تهلت بالفرح لما شهدت العزيزتان بوحدانية الله ورسالة محمد بن عبد الله ، ولكنها لما فكرت في مآلهما في دار أبي لهب بعد أن كفرتا بالهة قرش استشعرت كأن يدا قوية تعصر قلبها عصرا ، فعتبة ومعتب العوبتان في يدا أمهما أم جيل ، وهي قاسية

القلب عنيفة في عداوتها قد فؤادها من صخر ، وأبو لهب رجل أطلق لشهواته العنان يضي وقته في الشراب والمقامرة والتناؤد بالألقاب . فهو يمجّد الأبياء والأجداد ولا يطيق من تسول له نفسه أن يمس معتقداتهم بسوء ، فلطالما سخر من الذين يفكرون في نبد آلهة آبائهم ليعتقوا اليهودية أو النصرانية أو المجوسية أو غيرها من الأديان .

ولف خديجة وجوم فمستقبل بناتها قد بات يتأرجح ، فإن استعلن أمر محمد صلى عليه وسلم ولم يدخل أزواجهن في الدين الجديد فستغلق في وجوههن أبواب الأزواج وسيعدن إليها كسيرات القواد . ولكن ماذا تستطيع أن تفعل وماذا يستطيع أبو القاسم أن يفعل غير أن يستتر فيما يأمره الله به بعد أن اصطفاه ، إنها الرسالة وإن أعبأها ثقله لا يستطيع حملها إلا أولو العزم من الرجال .

وهمست خديجة في إيمان : « فلتأت مشيئة الله بما يشاء » . وراحت تعجم أعواد بنى هاشم فأبو طالب يحب محمدا حبه لولده أو أشد . وهو سيد بنى هاشم وزعيمهم وإن كان يقاسى قلة في المال ، وهو راجح العقل وقد اعتاد أن تكون كلمته هي العليا . أفيرضى بعد أن ذهب السنون وبلغ من العمر عتيا أن يكون تابعا لابن أخيه وإن كان رسول رب العالمين ؟ وأبت عقلية خديجة التي تمرست في التجارة وفي الحساب وسبر أغوار الرجال أن تخدع نفسها وتصدق أن أبا طالب سيفرح بالدين الجديد وسيلخل فيه راضى النفس . وأحست كدرا فهي تقدر

أيا طالب وتري أن وقوفه إلى جوار الأمين كسب للدعوة الجديدة ما بعده كسب ، وتمنت صادقة لو أن الأيام تكذب حدسها ويخفن شيخ الهاشميين رسالة السماء ، حتى يشرق النور على العالمين .

وورد على ذهنها عمه العباس بن عبد المطلب ، إنه مشغول عن الألهة بتجارته وبأمواله الممدودة التي يقرضها بالربا ، وهو سعيد بأن صارت إليه السقاية والرفادة ، وهو يسقى الحجيج ويطعم فقراءهم ليقال إنه جواد ولشرف الدنيا وللأحاديث والذكر ، وهو طيب القلب معدنه نفيس ، فلو أنه طرح كبرياءه للبي داعي ابن أخيه . أما زوجه أم الفضل فهي الطيبة والطاهرة والخلق الكريم ، وقد دارت بينهما أحاديث طويلة عن الأمين فكانت أم الفضل تشرق بالفرح كلما قالت لها : إنها لترجو أن يكون أبو القاسم نبي هذه الأمة . وها هو ذا أبو القاسم قد صار نبيا فلو أنها بعثت إليها بأن أحلامها قد صدقت وأن الله قد أرسل محمدا عليه السلام رسولا لآمنت به وصدقته ولهرعت إليه والدموع تترقرق في مقلتيها .

واحتل ذهنها حمزة بن عبد المطلب وقد تنكب قوسه وركب فرسه ، إنه أخوه في الرضاعة رفيق طفولته وشريكه في حزنه على عبد المطلب وصديق الشباب وإن اتخذ كل منهما سبيلا ، فقد أثر محمد العزلة وانغمس حمزة في مجتمع قومه ومع ذلك كان الود بينهما متصلا ، وكان الفارس معجبا بابن أخيه الأمين الذي اشتهر بخصاله الحميدة ، وإن خديجة لتطمع في أن تقوده

فروسيته إلى الطريق القويم ، إلى الإيمان بوحداية الله ورسالة ابن أخيه .

وخطر على فكرها أبو سفيان بن الحارث ابن عم الأمين الذي يشبهه والذي كان يلزمه على الدوام ، وذكرها الحارث بشباب الهاشميين طالب وعقيل وجعفر فألفت نفسها تهلل بالأمل ، فقد رأت فيهم شباب الدعوة الذين سيتحمسون للدين الجديد ، وامتدت أحلامها إلى عمته عاتكة التي ربطت الأسباب بين بنى هاشم وبنى مخزوم بزواجها بأبي أمية بن المغيرة . إنها تحب ابن أخيها حبا جما وهي التي جاءت إليها أيام كانت تستأجر الرجال للخروج في تجارتها وعرضت عليها أن تستأجر ابن أخيها محمد بن عبد الله ، فلو أنها آمنت برسالة محمد لتبعها ولداها عبد الله وزهير ومن يدرى فقد يتفشى الإسلام في بنى مخزوم بفضلها .

وطاف بها خاطر : لو أن الوليد بن المغيرة اعتنق الدين الجديد لتبع بنو مخزوم سيدهم ، ولكن ذلك يكاد يكون مستحيلا . أو يعقل أن يتنازل الوليد عن مكانته وأن يطعن كبريائه بيده ويسلس قياده لـتيم قريش !

وأبو سفيان بن حرب ما يكون موقفه من الدعوة ؟ إنه سيضع أصابعه في أذنيه ولن يستجيب لداعى السماء ما دام ابن عبد الله سيتزعزع الزعامة من الأمويين للهاشميين . إنه لا يستطيع أن يرى إلا أنها منافسة بين الهاشميين والأمويين ولن يقر أبو سفيان لأحد غيره في قريش كلها بالسيادة .

وعتبة بن ربيعة سيد عبد شمس ، وشيبة بن ربيعة ،
وأبو الحكم بن هشام (أبو جهل) ، وأمية بن خلف ، والعاص
ابن وائل ، وعبد الله بن أبي ربيعة ، والأرقم بن أبي الأرقم .
والمطعم بن عدي ، وعقبة بن أبي معيط ، والحارث بن كلدة
الشفى طيب العرب زوج خالته ، وابنه النضر ، ماذا يكون
موقفهم منه ؟! وأحست خديجة قشعريرة تدب فيها من الرأس
إلى القدم إشفافاً على زوجها ، فالطريق مخوف بالصعاب
والأهوال . وقبل أن تستسلم لمخاوفها لاحت لعين ذاتها
الحقيقة ناصعة ، إنه ليس وحده ، إنه مع الله ، ومن كان مع الله
كان الله معه .

وجاءت جارية حكيم بن حزام لزيارتها فأقبلت عليها متفتحة
النفس وراحت تقص عليها بعض ما كان في غار حراء وتخبرها
أن الله قد اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته ،
وما كادت خديجة تتم حديثها حتى أسرعت الجارية إلى مولاه ،
ودخلت على حكيم وعنده أبو بكر فقالت له :
- إن عمك خديجة تزعم في هذا اليوم أن زوجها نبي
مرسل مثل موسى .

وخفق قلب أبي بكر ، إنه كان يكثر غشيانه في منزله وكان
يحاوره فكان يعجب بأصالة أفكاره ويرى أنها فيض من الله ،
وقد سمع قول ورقة له لما ذهب معه إليه فكان يترقب في لهفة
أن يسمع من محمد ما يكون بعد أن آب إلى حراء عقب أن
طلب منه ورقة أن يثبت إذا ما سمع الصوت الذي يناديه ورأى

النور الذى يفسى الغار ، ولكنه لم يعلم أن صديقه قد قفل عائدا من تحته يحمل رسالة السماء .

ولم يستطع أبو بكر صبرا فاستأذن فى الانصراف وانطلق إلى دار خديجة وقد تذكر رؤياه التى رآها ، فإنه رأى القمر ينزل إلى مكة فدخل فى كل بيت منه شعبة ثم كان جميعه فى حجره ، وإنه ليحس الساعة أن رؤياه صادقة وأنه فى طريقه لتحقيقها .

لم تكن بأبى بكر غطسة وما كانت له زعامة مهددة بالزوال وما كان من المؤمنين بالأصنام ، بل إنه كرهها منذ أن قال لإلهه إني جائع فأطعننى وظل إلهه غارقا فى بلهه وسكونه ، وما كان ذهنه مغلقا وما كان صاحب هوى ولا حليف الشهوات ، فهو يريد جوهر الحقيقة ، وإنه ليرى فى صديقه الأمل الذى يخفق فى قلوب طلاب الإصلاح ، فما إن سمع مولاة حكيم تقول إن خديجة تزعم أن زوجها نبي مرسل مثل موسى حتى صدق أن محمدا رسول الله حتى قبل أن يلقاه .

ووقف أبو بكر على باب خديجة يطرقه فى انفعال ، ومرت لحظات ثم انفرج الباب عن جارية قادمة إلى حيث ينتظر ، ثم ذهبت إلى حيث كان أبو القاسم وأهل بيته وأنبأته بقدم عتيق بن أبى قحافة .

وذهب محمد - عليه السلام - للقاء صديقه ، وقامت خديجة وقد تحركت عواطفها لتسمع ما يكون بين الصديقين وكانت على ثقة من أن ابن أبى قحافة سيستجيب لدعوة الحبيب ، ودخل

— ١٣٦ —

أبو القاسم عليّ صديقه مشرق الوجه فقام إليه أبو بكر وقال
في انفعال :

— يا أبا القاسم ! ما الذى بلغنى عنك ؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم في هدوء :

— وما بلغك عنى يا أبا بكر ؟

— بلغنى أنك تدعو إلى توحيد الله وزعمت أنك رسول
الله .

— نعم يا أبا بكر . إن ربي جعلنى بشيرا ونذيرا وجعلنى
دعوة إبراهيم ، وأرسلنى إلى الناس جميعا .

ودق قلب خديجة فى صدرها وأرهفت سمعها ، ولم يطل
انتظارها فقد سمعت أبا بكر يقول فى صوت ينم عن الصدق
والإيمان بما يقول :

— والله ما جربت عليك كذبا وإنك لخليق بالرسالة لعظيم
أمانتك وصلتك لرحمك وحسن فعالك . مد يدك فإنى مبايعك .

وغمر خديجة فرح فياض ، فما تردد أبو بكر ولا أبى عليه
ولا أرجعه فى الكلام ، بل قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت
رسول الله . فاندفعت خديجة إليه مستبشرة وعليها خمار
أحمر ، فقالت :

— الحمد لله الذى هدأك يا بن أبى قحافة .

وانصرف أبو بكر وما بين لابتئها أشد سرورا من رسول الله
صلى الله عليه وسلم بإسلامه .

جاء الليل فعاد سعد بن أبي وقاص إلى الدار ، فكان أول ما فعله أن ذهب إلى أمه يغمرها بحنانه . ومد الطعام فجلس إلى جوارها يطعمها أطيبه ، ينافسه أخوه عامر في البر بها والعطف عليها . كانت أسرة هائلة سعيدة ترفرف عليها السكينة وتطوف بها آمال متواضعة ، فما كانت أمانى الأم لتمتد إلى أكثر من أن يوفق سعد في صناعة برى النبل وأن ينجح عامر في تجارته .

وحان وقت النوم فنهضت الأم إلى الصنم الموجود في البيت لتؤدي له صلاتها وهي توصي ولديها بالصلاة للآلهة شكرا . اتقاء لشركهم في الدنيا وجلبا للرزق وإطالة العمر على الأرض ، وكانت أمهما مؤمنة بآلهتها متعصبة غاية التعصب لتقاليد قومها يضيق صدرها بآية بادرة تسيء إلى دينها أو تخدش قدسيته ولو من بعيد .

ونهض سعد وهم بأن يتمسح بالصنم ولكنه وجد ثقالا في نفسه ، إنه سمع من أبي القاسم كلاما بذر الشك في عين ذاته في قدرة آلهته على القدرة ، إنها أحجار صماء نعتها الناس

ثم عبدوا ما ينحتون غرورا . وقد سمع من أبى بكر وهو من
الحنفاء الذين أنكروا دين قریش وعبدوا الله وحده تسفيها
لمعتقدات قومه استراح له عقله ، فقد كان فى التاسعة عشرة
من عمره يتلفت باحثا عن الحقيقة ، ولم تكن نفسه قد تحجر
فيها ما لقن من عقائد وما اكتسب منها من طول انغماسه فى
مجتمعه .

كان يستشعر كلما جلس إلى أبى القاسم أنه بين يدي رجل
فاضت عليه الرحمة وأشرق النور فى قلبه فجرت الحكمة على
لسانه . وكان يتمنى فى أغواره لو أنه يستطيع أن يقبس من
نوره قسبا ينير بالحكمة وجدانه ، فقد كان يطمع فى أن تتلأأ
فى قواده حقائق الأمور .

إنه يحس إحساسا صادقا بعظمة الأمين ، فما من مجلس كان
فيه أبو القاسم إلا وقد تضاءل الرجال إلى جواره ، فشخصيته
أسرة إن صمت ، وإن تكلم استولى بفصاحته على القلوب
وجذب إليه النفوس لتسعد بالهيام فى دنياه الصافية الرقاقة
الخفاقة بالحقيقة واليقين .

والتقى سعد نظرة ازدراء على الصنم ثم أولاه ظهرا وسار
إلى فراشه يحس راحة فى ضميره وطمأنينة فى قواده ، واندس
فيه وأسلم جنبه للرقاد وسرعان ما خطفه النوم فراح فى سبات
عميق .

ورأى نفسه فى ظلام دامس وهو يحاول الخروج منه كلما
خرج من ظلام دخل فى ظلام ، فانبهرت أنفاسه وهو يضرب فى

— ١٣٩ —

الظلمات ، واستولى عليه فزع وهلع واضطراب ، وبينما هو في ضيقه وتبرمه إذ أطل القمر على المكان فبدد بنوره دياجير الظلام ، فتفرس في القمر في استبشار فرأى أبا بكر وعلى ابن أبي طالب وزيد بن جارثة يطلون من القمر ويشيرون إليه أن يلحق بهم ، فقال لهم :

— متى انتهيت إلى هاهنا ؟

فقالوا له :

— الساعة .

وهاب من نومه يحس كأنما حمله قد حفر في قلبه ، وتولته دهشة لاجتماع أبي بكر وعلى وزيد في مكان واحد ، أين ؟ في القمر ، إنها رفعة .. إنها إشراق لطيف .. إنها دعوة لأن يرتفع مثلهم .. لو دعاه أحدهم إلى خير ليتبعه .

وفر الليل هاربا أمام النهار فغادر سعد فراشه وذهب إلى حيث كانت أمه ليلقى عليها تحية الصباح فإذا بأخيه عامر قد سبقه إليها وراح يسبغ عليها عطفه ، فأقبل عليهما مشرق الوجه يبذل لأمه كل نفسه لعلها ترضى .

وخرج سعد إلى عمله وجلس يرى النبل لفرسان قرش الخارجين للقتل ، فأقبل نوفل بن العدوية أسد قرش ، وخالد بن الوليد فارس بني مخزوم ، وحمزة بن عبد المطلب وشباب مكة المولع بالصيد ليبروا سهامهم ، ودار بينهم حديث شائق حول صيد الغزلان وصيد الحسان وسعد غائب عنهم بالتفكير في الرؤيا التي رآها .

وخرج أبو بكر من داره وقد عزم على أن يدعو إلى الدين
الذى اعتنقه من يثق فيهم من شباب قرش وكان على ثقة في
أنهم سيستجيبون لدعوته ، فهو معظم في قرش على سعة من
المال وكرم الأخلاق من أعف الناس محبوب في قومه حسن
المجالسة من أعلم الناس بتعبير الرؤيا وأعلم الناس بأنساب
العرب وما فيها من خير وشر ، ولكنه ما كان يعد مساويهم
ومن ثم كان محبيا فيهم . بخلاف عقيل بن أبي طالب فإنه كان
مبغضا إليهم لأنه كان يعد مساويهم .

كان أبو بكر عند أهل مكة من خيارهم يستعينون به فيما
يأتيهم ، وكانت له بركة ضيافات لا يفعلها أحد ، ولعله كنى
بأبي بكر لابتكاره الخصال الحميدة ، فكان المتطلعون إلى
مستقبل أفضل لمدينتهم المقدسة يهرعون إليه بعد أبي القاسم
ليجدوا عنده النور الذى ينير لهم السبيل .

وجاء أبو بكر إلى سعد فالتقاء فردا بعد أن انصرف فرسان
قرش للهو ، فقال له :

— جئتك يا سعد فى أمر ذى بال . أنت يا سعد أعلم الناس
بمحمد بن عبد الله ومقدار صدقه وأمانته ، فانت خاله وهو
منكم .

فقال سعد فى حماس :

— إن محمدا غير متهم . فهو يؤدى الأمانة ويصل الرحم
ويقرب الضيف ويعين على نوائب الدهر .

— قد نزل على محمد وحى من السماء أخبره أنه نبي هذه الأمة ، وأمره أن يدعو إلى عبادة الله وحده .

— أيكفر باللات والعزى ؟

— نعم ، إنه يدعو إلى التحرر المطلق من عبادة هذه الأصنام التى لا تملك لنفسها شيئا ولا تدفع عن نفسها ضرا .

— ومن تبعه على دينه هذا ؟

— أنا وعلى بن أبى طالب وزيد بن حارثة .

وتذكر سعد رؤياه فقال فى انفعال :

— وأين رسول الله الآن ؟

— فى شعب أجياد يعبد الله مستخفيا .

كان النبی صلى الله عليه وسلم إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه على مستخفيا من قومه فيصليان فيها ، فيينا هما فى صلاتهما إذ عثر عليهما أبو طالب فوقف ينظر فى دهش ، حتى إذا ما أتما صلاتهما قال لابنه :

— ما هذا الذى أنت عليه ؟

فقال على :

— يا أبت آمنت بالله ورسوله وصدقت ما جاء به ودخلت

معه .

فالتفت أبو طالب إلى أبى القاسم وقال :

— يا بن أخى ما هذا الذى أراك تدين به ؟

فقال محمد صلى الله عليه وسلم وهو يطمع في إسلام عمه الذي يحبه من كل قلبه .

— هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ودين آيينا إبراهيم يعنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أحق من بدلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابني إلى الله تعالى وأعاني عليه .

كان أبو طالب يرى أن الله أجل من أن يبعث بشرا رسولا فقال :

— إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه .

ثم التفت إلى ابنه على ولم ينهره بل قال :

— أما أنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه .

وانصرف أبو طالب وجاء أبو بكر والفتى الدحداح سعد ابن أبي وقاص وكان في التاسعة عشرة من عمره سليم القلب خالص النية ، وما إن وقعت عيناه على محمد صلى الله عليه وسلم حتى استشعر رهبة وإجلالا ، وزاح النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عليه الإسلام ثم قرأ : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » . فأخذ سعد بعذوبة القرآن وفتن برقته وانتشى بحلاوته وكان لجرسه وقع عظيم في نفسه ، فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وانقلب سعد إلى أهله مسرورا ، وما مالت الشمس للغروب

- ١٤٣ -

حتى وقف يصلي لله فدخلت عليه أمه فألقته قد خر ساجدا ،
فرمته في عجب فإذا به يصلي صلاه لم تألفها فقالت :

— سعد ! سعد ! ماذا تفعل ؟ ولمن تسجد ؟

وأتتم صلاته فقال لها :

— أسجد لله رب العالمين . إني أدعوك يا أماء إلى الله وحده
لا شريك له وإلى الكفر باللات والعزى وشهادة أن محمدا
عبده ورسوله .

فقالت أمه في فزع :

— سعد .

— إنه دين حسن يدعو إلى التراحم والتواد والتقوى
وصلة الرحم وبر الوالدين .

— إني لا أفارق دين آبائي أبدا . ثب إلى رشدك يا سعد .

— استمعي إلى يا أماء عسى أن يهديك الله إلى الصراط
المستقيم .

— أأنت تزعم أن الله يأمرك بصلة الرحم وبر الوالدين ؟

— نعم .

— والله لا أأكل طعاما ولا شربت شرابا حتى تكفر بما جاء
به محمد وتمس إسافا ونائلة .

— لا . لا تفعلين يا أمت .

— لتدعن دينك أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت فتعيريني .

— إني لا أدع ديني .

وجاء أوان تناول الطعام فدعا سعد وعامر أمهما إلى العشاء فأبت ، فتركها سعد وظل عامر يحاول أن يشنها عن عزمها دون جدوى ، وانقضى يوم وأم سعد على عهدا لا تأكل ولا تشرب . ثم مر اليوم الثاني وهى لا تأكل ولا تشرب فأصبحت وقد خمدت ، فجاء إليها سعد وقال :

— تعلمين والله يا أمه لو كان لك مائة نفس تخرج نفسا نفسا ما تركت دين هذا النبى ، فكلى إن شئت أو لا تأكلى .
وراح أهل الدار يفتحون فاهها ثم يلقون فيه الطعام والشراب ، فلما فتحت عينيها التفتت إلى عامر وقالت لسعد تعيره :

— هو البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعا .

وخرج سعد إلى شعب أجياد يصلى مع النبى وعلى وأبى بكر وزيد مستخفين ، فلما صلى الركعتين اللتين يصلونهما بالعشى عاد إلى الدار فوجد أمه على الباب تصيح :

— ألا أعوان يعينونى عليه من عشيرتى أو عشيرته فأحبسه فى بيت وأطبق عليه بابه حتى يموت أو يدع هذا الدين المحدث ؟

فقال لها سعد وهو حزين :

— لا أعود إليك ولا أقرب منزلك .

فرجع من حيث جاء وأمّه تتميز غيظا فقد أحست الهزيمة ، وما كان يدور بخلدها أن يعصى سعد لها أمرا أو يخيب رجاء

وهو البار بها المتفاني في رضاها . ترى ما كنه هذا الدين الذي
استولى على لبه ؟ سحره محمد ورب الكعبة .
وراحت ترقب عودته نادما مستغفرا ولكن الأيام تمر وسعد
لا يتوب إليها فتشعر أنها تكاد تختنق اختناقاً ، وتأبى كرامتها
أن ترضخ لذلك العقوق فتضطرب على مضض ثم ترسل إليه :
— عد إلى منزلك ولا تتضيفن فيلزمنا عار .
فرجع إلى منزله فمرة تلقاه بالبشر ومرة تلقاه بالشعر وتعيده
بأخيه عامر وتقول :

— هو البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعا .
ولم يخطر لأمه حمدونة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس
على قلب أن سيأتي يوم قريب يشرق فيه نور الإسلام في قواد
ابنها عامر ، وأنه سيلقى منها ما لم يلق أحد من الصياح
والأذى ، وأنها ستعطي آلهتها عهداً ألا يظلمها نخل ولا تأكل
طعاماً ولا تشرب شراباً حتى يدع صباه .

كانت الشمس تنحدر في الأفق الغربي لتختفي خلف جبال مكة . وكان الناس في الحرم يطوفون بالبيت أو يجلسون في المسجد وقد انتشرت بطون قريش في نواديهم ، ودخل سادات القوم دار الندوة تلك الدار التي أصبحت لحكيم بن حزام . وكانت غاية آمال شباب قريش أن يكون لهم في ذات يوم رأى في تلك الدار التي تبسط سلطانها على أهل الحرم .

وكانت السادة والعبيد من كل دين ومن كل مذهب يمارسون شعائرهم في حرية في جنبات أول بيت وضع للناس . فقد كان حرما آمنا تجبى إليه طيات كل شيء . وكان أهله متسامحين مع كل الملل والنحل ما دام أصحاب المذاهب لا يتعرضون لآلهتهم بسوء . ولا يهاجمون دينهم . ولا ينتقدون سوء توزيع الأموال بينهم . ولا يحاولون أن يحدوا من خرياتهم الجنسية أو يكبحوا جماح شهواتهم الفسادية .

وكان في الطائفتين بالبيت والجالسين حوله من أنكروا الخالق والبعث والإعادة وقالوا بالطبع المحيى والدهر المفضى ، ومنهم من أقروا بالخالق وابتداء الخلق والابداع وأنكروا البعث والإعادة ، ومنهم من أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع

من الإعادة . وانكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنها
شفعاؤهم عند الله في الدار الآخرة وحجوا إليها ونحروا لها
الهديا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالناسك والمشاعر وأحلوا
وحرموا .

وكان منهم خنفاء يعتقدون بوحداية الله ويحاولون أن
يبتدوا إلى مله أبيهم إبراهيم ، وما كانوا على هدى واحد بل
كان كل منهم يعبد الله على قدر جهده واجتهاده وقد ضربوا
جميعا في البلاد بحثا عن دين إبراهيم ، فمنهم من تنصر أو تهود
ومنهم من بقى على دينه ينتظر مبعث النور .

ووضع نصارى العرب تمثالا لمريم وهى تحمل المسيح بين
تمائيل اللات والعزى ومناة وهبل وود وسواع ويعوق
ونسر أصنام قبائل العرب ، فما وجد العرب فى ذلك غرابة فما
يضيرهم أن يضاف تمثال إلى الثلاثائة وتلاثين تمثالا التى
كانت فى جوف الكعبة ومن حولها .

ومنهم من كان على دين المجوس ، ومنهم من كان يصبو
إلى الصابئة ويعتقد فى الأنوار اعتقاد المنجمين فى السيارات حتى
لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء ،
ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة فيعبدهم ، بل منهم من كانوا
يعبدون الجن ويعتقدون فيهم أنهم بنات الله .

كانت الحرية الدينية مكفولة للجميع لا عن سماحة خلق
بل لأن أهل مكة كانوا يعيشون على الاتجار بالدين . وماذا

يصبهم من تعبد المتعبدين ما دامت حريتهم الجنسية مكفولة ،
وما دامت أموالهم تربو مع الأيام ، وما دامت الخمر تجلب
من الشام ، وما دام الناس يمتدحون الأيسار الذين ييسون
سواد الليل في الميسر والتنابد بالألقاب ، وما دام الإشراف
والسادة يجمعون الذهب والفضة من فتياتهم اللاتي يجلسن
للبيعاء .

ومن خباء قريب من حيث جلس العباس بن عبد المطلب
خرج محمد صلى الله عليه وسلم فنظر إلى الشمس : فلما رآها
مالت ذهب إلى يثر زمزم فتوضأ فأسبغ الوضوء ثم خرج غلام
مراهق فتوضأ ثم جاءت امرأة من ذلك الخباء فتوضأت . ثم قام
محمد صلى الله عليه وسلم يصلي وقام الغلام إلى جنبه وقامت
المرأة خلفهما ، ثم ركع الرجل وركع الغلام وركعت المرأة ، ثم
خر الرجل ساجدا وخر الغلام وخرت المرأة .

وكان عند العباس غفيف الكندي وكان امرأ تاجرا قدم للحج
وأتى العباس ليبتاع منه بعض التجارة وكان العباس له صديقا ،
فراح يرمق المصلين في دهش ثم التفت إلى العباس وقال :
- ويحك يا عباس ، ما هذا الدين ؟

فقال العباس في بساطة :

- هذا دين محمد بن عبد الله ابن أخى يزعم أن الله بعثه
رسولا ، وهذا ابن أخى على بن أبى طالب وهذه امرأته
خديجة .

ترى أكان العباس يعلم أن زوجه أم الفضل قد أعلنت

إسلامها في ذلك اليوم وأنها شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ؟ وأن أسماء بنت أبي بكر قد دخلت معها في دين الله .

وكان عثمان بن عفان في طريقه إلى داره . وما إن دخل حتىلقى خالته سعدى بنت كريز عند أمه أروى فراحت تحدثه عن محمد صلى الله عليه وسلم وعن الوحي الذي نزل عليه من السماء وعن صفات الامين . وتؤكد له الله نبي هذه الأمة الذي بشرت به الأنبياء ، وجعلت تحته على اتباعه وهي تزين له الإسلام .

كانت أم أروى وسعدى بنتى أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب وكانت وعبد الله توأمين . فكان محمد صلى الله عليه وسلم ابن خالهما وكاتتا تعرفان عنه أنه أجود الناس كفا . وأجرا الناس صدرا . وأصدق الناس لهجة . وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، قد قطع كل علاقته بالدنيا ليتصل بربه ويشرق نور المعارف في صدره . وقد توجت عزله وتعبده لله وحده بأن اصطفاه ربه وبعثه رسولا للعالمين .

وكان لعثمان مجلس من أبي بكر وكانا كلما تحاورا تحدثا عن الدين . ويا طالما أسهب أبو بكر في حديثه عن محمد وتحتته ومحبته للعزلة وزهده في الدنيا وهو القادر على أن يكون من أعظم تجار مكة ومن أثريائها ومن أشرف رجالها ، فكان يهتدى إلى أن أبا القاسم ما هجر اللذات وفرض على نفسه حياته الخشنة التي يحياها إلا لشيء أسمى من اللهو والتجارة .

وكان عثمان يتהל بالفرح الروحي الفياض كلما جلس إلى
أبي القاسم وأعاده سبعة ، فقد كان يحس كأنما حديث ابن
خال أمه يرفعه من الأرض إلى المساوات ويجعله يخلق في
ملكوت صيغ من مكارم الأخلاق .

ونهض عثمان وانطلق قاصدا أبا بكر والأفكار تتزاحم في
رأسه . إنه تمنى ذات يوم أن يتزوج رقية بنت محمد وكانت من
أجمل خلق الله . وما كانت رغبته فيها لذلك الجمال فحسب بل
ليربط الأسباب بينه وبين ذلك الرجل الكريم الذي تسلل
محبه إلى قلوب الناس . ولبتير له أن ينهل من ينبوع
الحكمة الذي تفجر في قلب محمد من طول سهره مع الله .
ولكن بينما كان في فناء الكعبة قيل : أنكح محمد عتبة بن
أبي لهب بنته رقية . فدخلته حيرة ألا يكون سبق إليها ، فإن
كان زواج رقية من عتبة قد أبعده عن الرجل الذي تعلق به
فؤاده فهذه الدعوة الفاضلة التي يدعو إليها ستجعله يدنو منه
دنوا يشرح صدره ، ويسر له قبس النور من نبع النور .
وجاء أبا بكر فأصابه وحده ، وأطرق متفكرا فآله
أبو بكر عن تفكره فقال :

— انصرفت إلى منزلي فوجدت خالتي سعدى بنت كريز
فأخبرتني أن الله أرسل محمدا .

فراح أبو بكر يرغبه في الإسلام ويحثه أن يكون
من أوائل الملبين لداعي الله وعثمان يصفى في اهتمام ويستشعر
كان نورا يضيء في جوانحه ويردا ينزل على قلبه وسلاما يسر بل .

روحه ، وبينما النور ينداح في ظلام نفسه مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه على بن أبي طالب يحمل ثوباً ، فقام أبو بكر وهمس في أذن صاحبه . فقعد صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على عثمان فقال :

— أجب الله تعالى إلى جنته فإني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه .

فما تمالك عثمان حين سمعه أن قال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله .

وذاع في بني أمية أن عثمان قد دخل في الدين الجديد . وما إن صك ذلك النبأ أذنى عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية والد مروان بن الحكم حتى ثار ، وأغضبه أن يتكر ابن أخيه لآلهة آبائه فذهب إليه يحاول أن يثنيه عن ذلك الدين ، ولكن عثمان وقف في وجه عمه كالطود الأشم ، فلما فل سلاح الإقناع بالحسنى أخذه عمه فأوثقه كتافاً وقال :

— ترغب عن ملة آبائك إلى دين محمد ! والله لا أصلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه .

فقال عثمان في صلابة :

— والله لا أدعه ولا أفارقه .

واستمر الحكم في تعذيب عثمان وعثمان لا يهن ولا يضعف ولا يتزعزع إيمانه بل يظل صلباً في الحق ، فحشى عمه أن يقتن الضعفاء به فأطلقه وهو كاره حائر لا يدرى أحسن ساعة أن أوثقه أم أحسن ساعة أن أطلقه أم أساء في الحالتين !

وكانت الأفكار التي تدور حول محمد قد ملأت رأس الزبير ابن العوام . إنه ألقى سميعة إلى عمته خديجة فحدثته عن أبي القاسم أحاديث عجيبة استولت على لبه وأسرت فؤاده ، وأغار أمه صفية أذنيه فإذا بها تروى عن ابن أخيها روايات تتسرب إلى عين ذاته وترفع الحجب عن وجه الحقيقة فيستشعر كأن شيئا غامضا مثيرا يجذبه إلى صاحب الشخصية الفذة الأسرة الحبيبة .

إن علي بن أبي طالب قد أسلم وهو الفتى الذي لم يتجاوز بعد العاشرة من عمره أعلن إيمانه بالدين الجديد بعد أن استبان لعين بصيرته جمال الدعوة ، وهو قد بلغ الثانية والعشرين فما الذي يقعه عن الإقرار بوحدانية الله ورسالة الرجل الذي اصطفاه ربه لهداية البشر ؟ !

وانبعثت من أغواره هتافات تهيب به أن آمن بالله ورسوله ما دام نور اليقين قد أثار قلبك . فلم يجد ملاذا له إلا أن يأتي أبا بكر الرجل الذي يفزع إليه في كل ما يشغله ، فانطلق إليه يستشيريه وإن وضحت لعينه معالم الطريق .

ودخل علي أبي بكر وكان يألفه وراح يحدثه بما يساوره من أفكار ، فإذا بالرجل الحكيم يرغبه في الإسلام ثم يقوده إلى حيث كان محمد صلى الله عليه وسلم لينطق بالشهادتين اللتين اطمأن بهما قلبه .

وسمع عمه، الذي ثار على صفية يوم أن رآها تضرب ابن أخيه وهو صغير واتهمها بأنها لا تحبه، أن ابن العوام كفر بالكهنة

قومه واتبع من جعل الآلهة إلها واحدا ، فانقشع من قلبه كل عطف على الفتى اليتيم وذهب إليه والغضب يطل من عينيه وأمره في حدة أن يقطع عن تلك الصيوة التي عبث بعقله لكانما الإيمان يفر مرعوبا أمام سورة الغضب . وزاد في حنقه أن الزبير لم يرتعد فرقا من خشيته بل قال في جنان ثابت :
— لن أفارق ديني .

وشد عمه وثاقه وجاء يدخان يعذبه به فملا عينيه وأسأل منهما الدموع وراح يخز مقلتيه وخزا ما أقساه ، وترب إلى رثتيه فراح يسعل وقد ضاق نفسه حتى خيل إليه أنه الموت وأن روحه تكاد أن تفر من بين جنيبه . ولكن حلاوة الإيمان كانت تطفي على كل الآلام فكان يثبت على دينه في إصرار تحطمت عليه كل أدوات الاضطهاد .

إنه عانى شدة لا يحتملها إلا مؤمن عمر قلبه بحقيقة راسية كالجبال لا تززعها عواصف عذاب قد يؤلم الجسد ولكن يعجز عن أن يصل إلى الروح . وهي شدة هيأت أحسن القرص لنفوذ سر الله إليه فقد طهرت ضميره من الأدران كما تطهر النار المعادن من الخبث .

لم تكن معتقدات قومه كافية لإشباع طموحه بعد أن اعتاد أن يجلس إلى ابن خاله الأمين ويسمع حديثه عن ملكوت السماء . فلظالما ذهب لزيارة عته خديجة وما أكثر ما شارك على بن أبي طالب وزيد بن محمد متعة الإصغاء إلى الرجل الذي تخرج الحكمة من بين شفتيه . فلما بلغه أن الله بعث

— ١٥٤ —

أبا القاسم رسولا وألقى سمعه إلى الدين الجديد وجد في دعوة ابن خاله روحا جديدا يؤذن بتجديد شباب البشرية وإعادة الكرامة إلى الإنسانية . فوطد النفس على أن يكون له ظهيرا يؤيده وينصره ويقف معه في وجه كل طغيان حتى يخرج الناس من الظلمات إلى النور .

والتقى أبو بكر بلال مولى بنى جمح فقال له :

— ظهر نبي هذه الأمة .

فقال بلال في اهتمام :

— من ؟

— محمد بن عبد الله .

فأحس بلال طابئة تنزل بقلبه وراحة تنساب إلى ضميره وتستقر في وجدانه . فهو يعرف لمحمد صلى الله عليه وسلم صدقه فلم يجرب عليه كذبا قط . وعرف له أمانته التي ذاعت في الآفاق وحسن خلقه وطهاره قلبه الكبير الذي يتسع لكل الناس ، فهو ليس فظا غليظ القلب كسيده أمة بن خلف ، ولا يتصف بالصلف والغرور الذي يملأ جوانح أبي الحكم بن هشام ، وهو كريم جواد لم يعرف عنه البخل الذي كان صفة لأبي سفيان ، ليس بصخاب في الأسواق ، لا فرق عنده بين سيد وعبد ولا أبيض ولا أسود ، فهو خالق بالرسالة . وهو كفء لحمل الأمانة .

وشرد بلال يفكر في خصال أبي القاسم وهو مبهور بشخصيته الفذة التي ليس لها مثال في الناس ، ولا غرو فهو ربيب السماء

صنعه الله على عينه واصطفاه وجعل فيه نورا يجذب إليه
البصائر قبل الأبصار ، وراح أبو بكر ييسط لبلال دعوة
محمد - صلى الله عليه وسلم - فيقول :

- إنه يدعو إلى التحرر المطلق من عبودية هذه الأحجار
إلى عبادة خالق السماء الصافية ، والصحراء المترامية ، والنجوم
اللامعة ، والشمس الساطعة ، والماء والرياح ، والهواء
والغياض . إن دعوته لا تفرق بين السادة والعبيد أمام الله
إلا بقدر العقيدة والعمل . وتخلي الطريق بين العبد وربّه يدخل
إليه بغير واسطة ويتقرب إليه بغير زلفى . إنه يدعو إلى
التراحم والتوَادد والبر والتقوى ، وينفر من الوأد والطاعة .
إن دعوته لهناءة الدنيا وسعادة الأبد .

وانطلق أبو بكر وبلال إلى دار خديجة ودخلا على محمد
صلى الله عليه وسلم ، فإذا بلال يرى بعين ضميره كأنما الكون
كله يفيض بأنوار سماوية . وراح أبو القاسم يعرض على بلال
الإسلام فإذا بخشوع ينزل بفؤاده ، وإذا بلسانه يتحرك بوحى
من ذات مؤمنة بأجمل ما تحرك به لسان : شهادة بنفى الربوبية
عن الآلهة جميعا وإثباتها لله وحده لا شريك له ، وأن محمدا
عبد الله ورسوله .

وتلألأ فى نفس بلال الإحساس بالخير الأسمى ، وشاع
فيها الرضا بعد أن محق الشرك من فؤاده وأنصف ذاته ، بل
البشر جميعا ، لأن الشرك ظلم عظيم . وغادر بلال دار النبوة
وهو مرفوع الرأس يستشعر الراحة والرضا ، وكأنه قد خلق

خلقا جديدا . فقد دخل على محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو عبد لبنى جمح وخرج من عنده وهو عبد لله وحده ليس عليه سلطان إلا ربه ، وهام في الوجود مستبشرا عظيما في نفسه قد هان في عينه كل سلطان أرضي بعد أن ربط الأسباب بينه وبين السماء .

وأصبح بلال سابق الحبشة إلى الإسلام من أتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - يختلف إليه حينما تغفل أعين الناس ، في قائلة النهار حينا وتحت ستار الظلام أحيانا ، يرشف الحكمة من نبع الحكمة ويتأدب من مؤدب البشرية وينهل الشجاعة من معين الشجاعة ويتزود بالتقوى خير الزاد . ويتعلم أن الناس سواسية . وأن لا فضل لعربي على أعجبي ولا أبيض على أسود إلا بصلاح الأعمال .

وسرى الهمس في مكة بأن محمد بن عبد الله يزعم أنه نبي يدعو سرا إلى توحيد إله واحد . وبلغ الهمس دار سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فإذا بسعيد يتذكر وصية أبيه الذي هجر دين آبائه وآمن بالله وحده ووقف على باب الكعبة يعلن على الملأ أن ليس في القوم من هو على دين إبراهيم غيره . إنه كان ينتظر ظهور النبي الأُمى الذي بشرت به الأنبياء ليصدقه ويؤمن به ، فلما وافته منيته أوصى ابنه سعيدا أن يسارع بتصديقه إذا ما ظهر . وها هو ذا النبي الذي كان أبوه يرقب مبعثه قد بعث ، فذهب سعيد إلى زوجه فاطمة بنت الخطاب وقال لها في فرح :

— ظهر نبى هذه الأمة : إنه محمد بن عبد الله وإنه لخليق
بالرسالة .

ودار حوار بين الزوجين اللذين كانا ينتظران ذلك النبى
الذى أوصاهما باتباعه زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن يذهب
للقاء ربه ، وانتهى الحوار بأن ارتدت فاطمة ثياب الخروج
وانطلقت مع زوجها إلى دار الطاهرة وسيدة نساء قرش .

وجلس سعيد وفاطمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقد أعاره السمع : فكان حديثه الشجى ينفذ إلى القلب ويشرح
الصدر ويجعل نور الإيمان يشرق فى الأفئدة ويرقق النفوس
ويرفعها من العالم المادى المحدود إلى عالم الروح الذى ليس
دونه منتهى ولا وراءه مرمى .

وشهد سعيد شهادة الحق وهو مستبشر بأنه قد صار على
نور من ربه وقد احتلت صورة آية زيد بن عمرو بن نفيل
رأسه وهو على راحلته يقول : اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه
إليك عبدتك به ولكن لا أعلم . إلهى إله إبراهيم ودينى دين
إبراهيم ، ثم يسجد على ظهر راحلته .

وكان سعيد متفرحا بالهدى الذى أنزل السكينة على قلبه
بعد أن عرف أحب الوجوه إلى الله يعبد به ، وكانت فاطمة
تستشعر نشوة روحية فياضة وهى تنطق بالشهادتين ، وودت
لو أن آل الخطاب جميعا كانوا معها ليحفظوا بسعادة الدنيا
وهناة الأبد .

وعاد من اليمن عبد عمرو بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة

وكان ينزل على عسكلان بن عواكن الحميري كلما سافر إليها ، ولما كانت اليهودية والنصرانية منتشرتين في اليمن فقد كان السمر يدور حول الدين والأنبياء وحول البشارات التي يفيض بها الكتاب المقدس عن ظهور نبي من الأمم . وكان ابن عوف يسمع من الأحبار والرهبان أنه سيبعث من البيت الحرام نبي مثل موسى : فلما دخل على أبي بكر وسمع منه أن الله قد أوحى إلى عبده محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ما أوحى وأنه قد بعثه رسولا إلى الناس كافة : تذكر عمرو بن عوف كل ما سمعه عن النبي المنتظر وملاه إحساس عميق برسالة محمد كأنما قد أوحى إليه الإيمان به ووجدته أهلا للرسالة : فهو ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فقام مع أبي بكر وانطلقا إلى دار خديجة .

كان محمد — صلى الله عليه وسلم — جالسا وإلى جواره على ابن أبي طالب ، فلما دخل عليه أبو بكر وعبد عمرو بن عوف الزهري رحب بهما ثم راح يعرض على عبد عمرو الإسلام . حتى إذا ما شرح الله قلبه للإيمان وشهد بوحدانية الله ورسالة محمد بن عبد الله : قال له النبي عليه السلام :

— أنت عبد الرحمن .

ولاح البشر في وجه ابن عوف . إنه دخل دار خديجة وهو عبد عمرو ، فإذا بالرسول يسميه عبد الرحمن ، وابتسم أبو بكر

إضيا فهو أول من ساء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من
لمسلمين . ساء عبد الله بعد أن كان اسمه عبد الكعبة .

كان عبد الرحمن تاجرا من أنجح تجار قریش طارت شهرته
في الأفق لعفته وصدقه وأمانته ، وكان إضيا بما نال من ثقة
من وثقوا به وكلفوه بالانتجار في تجارتهم ، فلما سمع رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول له :

— أنت أمين في أهل الأرض أمين في أهل السماء .. أنت
صادق صالح بار .

أحس كأنما قد ذهب عنه كل حزن ونزلت على قلبه سكينه
وتهلل بفرح فياض ونشوة روحية تفوق لذات الأرض جميعا .

وعاد طلحة بن عبيد الله من سوق بصرى ، فلما دخل مكة
قال :

— هل من حدث ؟

— نعم ، محمد بن عبد الله الأمين يدعو إلى الله وقد تبعه
ابن أبي قحافة .

كان طلحة من بنى تيم وكان أبو بكر سيد بنى تيم ولما يبلغ
بعد الأربعين وإن كان أبو قحافة لا يزال يمشى في الأرض ،
فأبو بكر رجل يألفه الناس محبب سهل أنسب قریش لقریش
وأعلم قریش بها وبما كان فيها من خير وشر ، وهو تاجر
ذو خلق ومعروف .. وكان طلحة يألفه لعلمه وحسن مجالسته

وكان حديثه عن صديقه محمد بن عبيد الله ينبض بالحفاصة والإيمان ، فما إن سمع طلحة أن أبا القاسم يدعو إلى الله وأن أبا بكر قد تبعه حتى هرع إلى أبي بكر وألقى إليه سمعه فإذا بنور اليقين قد أشرق في فؤاده ، فخرج أبو بكر وطلحة بن عبيد الله حتى دخلا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فابتسم لهما فتألفت أسنانه المفلجة البيضاء ، فاستشعر طلحة كأن الكون كله يبتسم ، وجلسا إليه وراح أبو بكر يتحدث فإذا برسول الله يصغى ~~لشيئا~~ إليه بكل جسمه ، إنهما ما جاءا إلا ليعرض رسول الله - عليه السلام - على طلحة الإسلام ، فراح محمد - صلوات الله عليه - يتحدث بلسان فصيح عن الدين الجديد تشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تجت أهداب طوال حوالك ، وينفذ حديثه الأخاذ إلى قلب طلحة لكأنما كان كلامه يكتب على لوح فؤاده بأحرف من نور ، وإذا بأنوار تشرق وتضيء ظلمات نفسه وإذا بلسانه يتحرك في انفعال المأخوذ بالشخصية العظيمة التي بهرته بحكمتها :

- مد يدك أبايعك -

وشهد طلحة بن عبيد الله أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وشهد بدين الإنسانية في أمة العصية ، وآمن بفجر تاريخ البشرية الجديد ، ووطن النفس على أن يكون ظهيرا للدعوة التي ستعيد للبشرية كرامتها وتخرجها من الظلمات إلى النور .

خرج محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى جبال مكة وهو
حزين فقد انحبس عنه الوحي بعد أن نزل عليه : اقرأ باسم ربك،
وكان ذلك إيذانا بنزول ما يقرأه على الناس وتأكيداً بأن
الوحي الذي يأتيه إنما هو وحى ربه . لقد ارتجفت بوادره من
الخوف لما غطه جبريل يوم أن جاءه في غار حراء ففر هارباً في
الأرض : بيد أنه الآن في شوق عظيم إلى الروح الأمين لسمع
منه ما يسكن ذلك القلق الذي استولى عليه .

وراح يغدو إلى جبل ثبير وهو يسأل نفسه : أكان ما رآه
في غار حراء حقيقة واقعة أم وهماً من الأوهام ؟ ! أبعثه الله
رسولاً إلى الناس كافة أم هو يخدع نفسه ؟ ! إنه يريد لها
حقيقة ناصعة ترضيه ، فهو صادق مع نفسه قبل أن يكون
صادقاً مع الآخرين .

شق عليه أن فتر الوحي عنه وخشى أن يكون به جنون
أو يكون كاهناً ، وفيما هو في حزنه تبدى له جبريل على هيئة
رجل قد ملأ الفضاء فقال :

— يا محمد إنك رسول الله حقاً .

(دعوة إبراهيم)

فسكن جائته وقرت نفسه وعاد إلى دار خديجة يتعبد في
الغرفة التي أعدت لمناجاة ربه . ومرت أيام أخرى وهو يقابل
الذين هداهم الله للإسلام ولم ينزل عليه الوحي بقرآن يقرأه
على الناس فعاد إليه قلقه وشق ذلك عليه فعدا إلى حراء وراح
يفكر في انحباس الوحي عنه . وعادت إليه فكرة أن يكون
ما يدور بخلده وهما من الأوهام أو ما من الجنون فلفه حزن
ثقيل . إنه يريد جوهر الحقيقة . يريد لها ناصعة لا شية فيها .
وفيا هو في قلقه وأساه تبدى له جبريل في صورة رجل صاف
قدميه في أفق السماء فقال :

— يا محمد إنك رسول الله حقا .

فسكن روعه واطمأن قلبه وعاد إلى مناجاة ربه وطول السهر
معه يسأله أن يكشف له عن حقيقة أمره . واجتهد في عبادته
وفي سهره حتى أصابته وعكة فترك قيام الليل ليلتين . وعجبت
جارة من جيرانه لذلك الانقطاع فجاءته فقالت :

— يا محمد إنني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ،

لم أره قربك منذ ليلتين .

ولفه حزن ثقيل ، وزاد في أساه وشق عليه أن أهل مكة
قالوا : ودعه ربه وقلاه . وخشى أن يكون ذلك هو الحقيقة
الموجعة لنفسه ، فعدا إلى جبال مكة وتمنى لو يرى جبريل على
الهيئة التي خلقه الله عليها لا على هيئة رجل في أفق السماء ،
وفيا هو في تفكره تبدى له جبريل على هيئة رجل يسبح في
الفضاء . فقال له محمد — صلى الله عليه وسلم :

- ١٦٣ -

- وددت أنى رأيتك فى صورتك .

فرآه فى الأفق الأعلى من الأرض قد طلع من المشرق فسد
الأفق إلى المغرب ، فخر النبى - صلى الله عليه وسلم - مغشياً
عليه ، فنزل جبريل عليه السلام فى صورة الآدميين وضمه إلى
نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه .

وأفاق من غشيته فانطلق إلى خديجة وقد أخذته رجفة ،
وما إن وقعت عيناه على الطاهرة حتى قال :

- دثرونى .. دثرونى .

فراحت خديجة تدثره حتى إذا ما سكن روعه صبت عليه
الماء ، فجاءه الوحى :

« يأيها المدثر . قم فأندر . وربك فكبر . وثيابك فطهر .
والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر » (١) .
وطابت نفس محمد - عليه السلام - فربه يأمره بإنذار
قومه ، وحصى الوحى وتتابع ، فنزل عليه :

« يأيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه
قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقى عليك قولاً
ثقيلا . إن ناشئة الليل هى أشد وطأً وأقوم قيلا . إن لك فى
النهار سبحاً طويلا . واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا . رب
المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا . واصبر على
ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً » (٢) .

ثم أوحى إليه :

« والضحي . والليل إذا سجي . ما ودعك ربك وما قلى .
والآخرة خير لك من الأولى . وسوف يعطيك ربك فترضى » (١) .
ثم أوحى إليه :

« ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون .
وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم » (٢) .
وعرف محمد — عليه السلام — أن الله أوحى إليه قرآنه
ليقرأه على الناس ، ونفى عنه فكرة الجنون التى طافت به ،
ومدحه ربه بأنه على خلق عظيم فلم يعد فى شك من أمره ،
ولكنه أشفق على نفسه من تكاليف الرسالة . إنه سيقف فى وجه
قومه يدعوهم إلى الله والله معه وإنها لدعوة ستغضب الناس
الذين ألفوا حياتهم ووقر فى ضمايرهم عبادة ما كان آباؤهم
يعبدون ولكن ماذا يهمهم من أمر الناس ما دام ربه قد أمره
بإنذارهم وهو وكيله وهو ناصره ؟ فوطن النفس على أن يدعو
إلى رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو وأن يصبر على ما يقولون
حتى تشرق أفئدتهم بالنور .

وراح يبلى ما أنزل عليه على كتاب وحيه ، أبى بكر وعلى
والزبير بن العوام وعثمان بن عفان . وراح المسلمون الأوائل
يقرءون القرآن سرا على من يتقون فيهم من أصحابهم آملين
فى أن يخرجوهم من الظلمات إلى النور ، فكان المكيون
يسمعون آيات الله ويمعجون ببلاغتها ، فكانت صدور تنشرح
للإيمان وكانت قلوب تثقل نوافذها فى وجه النور دون أن تثور ،

وكان رجال يغضبون لجعل الآلهة إلهًا واحدًا فيقومون بتعذيب من آمنوا منهم ليردوهم عن الحق المبين .

وبينا كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقوم الليل ويرتل القرآن ترتيلاً كان خالد بن سعيد بن العاص في سبات عميق . فرأى في نومه ناراً متأججة يشيب من هولها الوليد ، ورأى نفسه على شفيرها وأن أباه يريد أن يلقيه فيها وأن محمداً بن عبد الله — عليه السلام — أخذ بحجزته يسنعه من الوقوع فيها . فقام من نومه فزعا ترتعد فرائضه يحس كأن روحه تكاد أن تغفل من بين جنبه ، وظل مرعوباً حتى إذا ما سكن روعه وانزاح الرعب عن عقله قال في نفسه :

— أحلف بالله أن هذه رؤيا حق .

وما أشرفت الشمس حتى انطلق إلى أبي بكر ليقص عليه ما رأى ويسمع منه تأويل رؤياه .

فلما جلس إليه وقص عليه حلمه الذي أفزعته قال له أبو بكر :

— أريد بك خيراً . هذا رسول الله — عليه السلام — فاتبعه .

وذهب إلى حيث كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

فقال خالد :

— يا محمد ما تدعو إليه ؟

— أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده

ورسوله ، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا

يبصر ولا يضر ولا ينفع .

فسرد خالد قليلا كأنما يتذكر شيئا ثم قال :

— كنت ذات ليلة نائما فرأيت كأنه غشيت مكة ظلمة حتى لا يبصر امرؤ كفه . فبينما أنا كذلك إذ خرج نور من زمزم ثم علا في السماء فأضاء في البيت ثم أصاب مكة كلها . ثم تحول إلى يثرب فأصابها حتى إنى لأنظر إلى البر في النخل ، فاستيقظت فقصصتها على أخى عمرو بن سعيد فقال : يا أخى إن هذا الأمر يكون في بنى عبد المطلب . ألا ترى أنه خرج من حفر أبيهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

— يا خالد أنا والله ذلك النور ، وأنا رسول الله .

وأسلم خالد . وقرىء القرآن هسا في نوادي بيوت أشراف مكة العشرة ، وعرف أقوام أن محمدا — صلى الله عليه وسلم — قد عاب آلهم وسفه أحلام آبائهم فغضبوا وكان منهم سعيد بن العاص . فلما بلغه أن ابنه قد صبا عن دين آبائه واتبع الدين الجديد امتلا غضبا ، وضايقه وهو السيد المطاع في قريش أن يتبع ابنه محمدا الذى خالف قومه وجاءهم بما لا علم لهم به ، فأرسل في طلبه فنهره وضربه بمقرعة كانت في يده حتى كسرها على رأسه ثم قال :

— اتبعت محمدا وأنت ترى خلافة لقومه وما جاء به من

عيب آلهم وعيب من مضى من آبائهم ؟

فلم يأبه سعيد لغضب أبيه وهانت آلام جسده بعد أن عرف لذة الوصال برب المشرق والمغرب فقال :

— والله اتبعته على ما جاء به .

فغضب أبوه وقال :

— اذهب يا لكع حيث شئت . والله لأمنعك القوت ..

— إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به .

— اخرج .. اخرج .

تم التفت إلى بنيه وقال :

— لا يكلمه أحد منكم .

فانصرف خالد إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يلزمه .
ويعيش معه ويغيب عن أبيه في نواحي مكة وهو سعيد بالنور
الذي يملأ جوانحه وبصحة رسول الله التي وجد فيها نعمة من
الله لا تقرن بها نعمة أخرى ، فهو ينهل من نبع الحكمة ويقبس
من مصدر النور .

وجلس كتاب الوحي يكتبون ما نزل على رسول الله ومحمد .
يتلو في صوت يخشع له الكون : « بسم الله الرحمن الرحيم ..
الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين ..
إياك نعبد وإياك نستعين . إهدنا الصراط المستقيم . صراط
الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » (١) ..
وإذا بكل من في الدار من أوائل المسلمين يقولون : آمين .
وهم يستشعرون كأنما آيات الله قد رفعتهم إلى الملكوت .

ومر صهيب على دار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وفي
رأسه أفكار وفي صدره رغبة جامحة . إنه سمع قرآن محمد وقد

— ١١٦ —

سمع من قبل في دار عبد الله بن جدعان شعر فحول الشعراء ،
 فرأى بذوقه المرفه أن قرآن محمد من نبع سماوى غير ذلك
 النبع الذى نهل منه الشعراء ، وما يدعو إليه يقبله العقل
 ويستريح إليه الفؤاد . إنه استفتى قلبه فزين له الإيمان برسالة
 الأمين . فجاء ليدخل على رسول الله . وفيما هو يتقدم ليدخل
 رأى عمار بن ياسر يحوم حول الدار ، إن عمارا خرج مع محمد
 من قبل في تجارة خديجة وكان معه يوم أن بعثت خديجة إليه
 من يزين له التقدم لخطبتها وقد عرف عن كذب أماته ومكارم
 أخلاقه ، فلما سمع بعض آى القرآن وبلغه أن محمدا يقول إنه
 رسول الله وجده أنه أهل للرسالة ، فجاء ليشهد أن لا إله إلا
 الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .

ودنا عمار من صهيب وقال :

— أين تريد يا صهيب ؟

فقال صهيب فى ثبات :

— أريد أن أدخل إلى محمد فأسمع كلامه وما يدعو إليه .

فقال عمار فى انشراح :

— وأنا أريد ذلك .

فدخل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأمرهما
 بالجلوس فجلسا ، وعرض عليهما الإسلام وتلا عليهما ما أنزل
 من القرآن فتشهدا . واستأنسا بحديثه فظلا يسعدان بعلنه
 الفياض الذى أشرق فى قلبه من رحمة ربه حتى إذا أمسيا خرجا
 مستخفيين ، فدخل عمار على أمه وأبىة فسألاه :

— ١٦٩ —

— أيت كنت ؟

فقال في ثقة وياسر وسمية ينظران إليه في دهش وكأنه قد عاد إليهما رجلا آخر :

— كنت عند محمد — صلى الله عليه وسلم — . وقد عرض على الإسلام فأسلمت .

ودار حوار طويل بين عمار وأبويه ياسر وسمية : عمار يتلو آيات من القرآن فيشرح صدر سمية ويستشعر ياسر كأن نورا ينسكب في وجدانه ويشرق في فؤاده . فيجادل ابنه في ضعف ثم ينتهي الحوار الذي دار في سكون الليل بين ابن يار مؤمن وأبوين يريدان وجه الحقيقة لا يخشيان زوال سلطان ولا ضياع أموال إذا أسلما . فتهازل وجه عمار الطيب المطيب بفرح واستبشار ورأى بعين بصيرته الأنوار تغمر الدار .

وقف عمرو بن عبسة السلمي يعترض الركبان الخارجين من مكة بعد أن رغب عن آلهة قومه ورأى أنها آلهة باطلة . حجارة لا تضر ولا تنفع ، وبعد أن لقي رجلا من أهل الكتاب فسأله عن أفضل الدين فقال : يخرج رجل من مكة يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها وهو يأتي بأفضل الدين ، فإذا سمعت به فاتبعه . فلم يكن له هم إلا مكة يسأل : هل حدث فيها حدث؟ فيقولون : لا ، فينصرف إلى أهله . وأهله من الطريق غير بعيد .

ولمح قافلة قادمة من مكة فاعترضها فسأل من فيها :

— هل حدث في مكة حدث ؟

فنظروا إليه في دهش وقالوا :

— لا .

فانقلب راجعا إلى أهله . ثم خرج إلى الطريق ذات يوم وقعد ينتظر الركبان الخارجين من مكة وإذا به يرى راكبا مقبلا فقام إليه فقال له :

— من أين أنت ؟

— من مكة .

— هل فيها من خبر ؟

— نعم . رجل رغب عن آلهة قومه ودعا إلى غيرها .
فقال عمرو في فرح :

— صاحبى الذى أريد .

فشد راحلته وجاء مكة ونزل منزله الذى كان ينزل فيه .
فسأل عنه فوجده مستخفيا فانتظر في الحرم . وما لبث أن
جاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليطوف بالحرم وسادات
قريش في مجالسهم لا ينكرون ما يقول شيئا . فما عاب الله
آلتهم التى بعدونها . وما ذكر بعد هلاك آبائهم الذين
ماتوا على الكفر . فكانوا يشيرون إليه . ويقول في سرية :
— إن غلام بنى عبد المطلب ليكمل من السماء .

وعرفه عمرو بن عبسة فذهب إليه فقال :

— من أنت ؟

— أنا نبي الله .

— وما نبي الله ؟

— رسول الله .

— وبهم أرسلك ؟

— بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيء ، وتكسر

الأوثان وتحقق الدماء وتوصل الأرحام .

وكان محمد — عليه السلام — وحده أعزل من كل سلاح إلا

سلاح إيمانه ، وراح يقنع الرجل بالموعظة الحسنة لم يشهر في وجهه

منيفاً ولم يرغبه على الكفر بدين آبائه . فلما اقتنع الرجل
عنظته قال :

جـ نعم ما أرسلت به . أشهد أنى آمنت بك وصدقتك .
ايست يدك أبايكم .

فبايعه على الإسلام ثم قال له :

— أقيم معك يا رسول الله ؟

— لا . ولكن الحق بقومك فإذا سمعت أنى قد خرجت
فاتبعنى .

وانطلق عمرو بن عبسة السلمي إلى قومه وقد استراحت
نفسه إلى الدين الذى كان ينتظر بزوغ نجمه مذ لقى ذلك
الرجل من أهل الكتاب الذى قال له : يخرج رجل من مكة
يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها : وهو يأتى بأفضل
الدين .

وكان أبو ذر الغفارى وأخوه أنيس جالسين أمام الدار
فجاء رجل من مكة ونزل بهما وراح يقص أخبار أهل الحرم .
وقال فيما قال إن رجلاً خرج بمكة يزعم أنه نبي ، فشغل أبو ذر
بذلك النبأ حتى إنه لم يعد يلتفت إلى ما يقول المكى ، فلما
انصرف التفت أبو ذر إلى أنيس وقال :

— انطلق إلى هذا الرجل فكلمه وأتني بخبره .

وذهب أنيس وبقي أبو ذر يرقب عودة أخيه فى لهفة ،
حتى إذا جاء هرع إليه وقال له :

- ١٧٣ -

— ما عندك ؟

— والله رأيت رجلا يأمر بالخير وينهى عن الشر يزعم أن الله أرسله ، ورأيت يأمركم بالأخلاق .

— فما يقول الناس فيه ؟

— يقولون : شاعر . كاهن . ساحر . والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون .

— اكفنى حتى أذهب وأنظر .

— نعم . وكن على حذر من أهل مكة .

فحمل أبو ذر جرابا وعصا ثم أقبل حتى أتى مكة فجعل لا يعرفه ويكره أن يسأل عنه ، فمكث في المسجد وطال مكثه . وجاء على بن أبي طالب ولم يتجاوز عيْد العاشرة من عمره ليطوف بالبيت ، فالتقى أبا ذر جالسا وقد سجا الليل فذهب نحوه وقال :

— كأن الرجل غريب ؟

— نعم .

— تعال معي .

فانطلق على به إلى حيث ينزل الضيفان بدار خديجة فبات أبو ذر ليلته ، ولما أصبح الصباح خرج إلى الحرم يبحث عن النبي لا يسأل أحدا ولا يخبره أحد عنه بشيء . وانقضى النهار وجاء الليل وأقبل على ومر بأبي ذر فقال :

— أما آن للرجل أن يعرف منزله بعد ؟

— لا .

— فانطلق معي .

فانطلقا وبات أبو ذر ليلته ، ثم خرج إلى المسجد يبحث
عن النبي وتصرم النهار وأرخى الليل سدوله ، وجاء على ومر
بأبي ذر فقال :

— تعال معي .

وسارا صامتين ثم قال علي :

— ما أمرك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟

— إن كنت على أخبرتك .

— فإني أفعل .

— بلغنا أنه خرج هنا رجل يزعم أنه نبي ، فأرسلت أخى
ليكلمه فرجع ولم يشفني من الخبر فأردت أن ألقاه .

— أما إنك قد رشدت . هذا وجهي إليه فاتبعني ، ادخل
حيث أدخل ، فإن رأيت أحدا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأنني
أصلح نعلي فامض أنت .

وانطلقا ودخل على علي النبي — صلى الله عليه وسلم —
وأبو ذر معه ، فلما رأى النبي — صلى الله عليه وسلم —
استشعر استبشارا وقال :

— السلام عليكم .

وكانت أول تحية ألقيت في الإسلام ، فقال النبي — صلوات
الله عليه — :

— وعليك السلام وزحمة الله وبركاته .

— أنشدني ما تقول .

— ما هو بشعر فأنتشك . ولكنه قرآن كريم :

— اقرأ على .

وراح النبي يقرأ على الرجل ما أنزل عليه من ربه وأبو ذر
يصغى وهو مأخوذ . ثم قال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

وقال له النبي :

— ممن أنت ؟

— من غفار .

فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يرفع بصره فيه ويصوبه
تعجبا . لما كان يعلم من غفار قبيلة السطو والنهب وقطع
الطريق . ثم قال :

— إن الله يهدي من يشاء . يا أبا ذر اكنتم هذا الأمر وارجع
إلى قومك فأخبرهم يأتونى ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل .
— والذي بعثك بالحق لأمرخن بهذا بين ظهرائهم .

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو من يثق بهم
إلى الإسلام سرا ، وكان المكيون ينظرون إليه وهو يصلى فى
الحرم هو وبعض أنصاره دون ميالة ، فالحرية الدينية مكفولة
فى بيت الله ما دام العابد لا يتعرض لديانة قريش بسوء ولا يجرح
شعورهم ، وكان أقصى ما يفعلونه أن يسخروا من ذلك الذى
يزعم أن الخبر يأتى من السماء ويصفونه تارة بأنه شاعر وتارة
أخرى بأنه كاهن أو ساحر . وكان بعض أصحاب الأمزجة
الحادة يؤدبون من انسلخ عن الصابئين عن دين الآباء ثم يقل

سلاحهم أمام صمود المؤمنين . ها هو ذا أبو ذر يأبى أن ينسل
إلى قومه راضيا بإيمانه الذي أشرق في قلبه . بل وطد العزم
على أن يعلن إسلامه مدويا في جنبات بيت الله . فلما اجتمعت
قريش بالمسجد نادى بأعلى صوته :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .
كانوا في لهوهم وعشهم فما بال هذا الرجل قد جاء يعكر
صفوهم ، فمال عليه أهل الوادي بكل مدرة وعظم حتى خر
مغشيا عليه . فأكب عليه العباس ثم قال لهم :
— ويلكم ! ألستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم
عليهم !

فخلوا عنه ، فجاء زمزم فغسل عنه الدم وقصد رسول الله
صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا بكر ، فقال له محمد —
صلوات الله عليه وسلامه :

— متى أنت ها هنا ؟

— كنت ها هنا منذ ثلاثة أيام .

— فمن كان يطعمك ؟

— ما كان لى طعام إلا ماء زمزم .

فقال أبو بكر أ

— ائذن لى يا رسول الله فى طعامه الليلة .

وانبلج صبح اليوم التالى فخرج أبو ذر إلى المسجد
فألقي قريش فى نواديهم ، فنظر إليهم فهانوا فى عينيه ، وأحس
رغبة فى أن يعاود الجهر بإسلامه فصاح بأعلى صوته :

- يا معشر قرش .. يا معشر قرش .

فالتفت الناس إليه فصاح فيهم :

- أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فزجر القوم وقاموا إليه وأشبعوه ضربا فخر مغشيا عليه ،
وأقبل العباس يواسيه ثم أقبل على القوم فقال :

- ويلكم تقتلون رجلا من غفار وتجركم ومركم على

غفار ! .

ترى أكان العباس الذي أسلمت زوجه أم الفضل مشفقا
على قومه حقا أن قلبه قد مال إلى دين ابن أخيه فراح
يحييه ويحسى المؤمنين برسالته وإن التمس أعدارا تبدو فيها
النصيحة لقومه !

وعاد إلى حيث كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم ،
فجلس راضى النفس ثم استأذن في العودة إلى قومه فقال له
الرسول الكريم :

- إني قد وجهت إلى أرض ذات نخل فلا أحسبها إلا
يشرب ، فهل أنت مبلغ عنى قومك لعل الله عز وجل ينفعهم بك
ويأجرك فيهم ؟

- نعم أفعل .

وخرج أبو ذر وأتى أنيسا فقال له أخوه :

- ما صنعت ؟

- قد أسلمت وصدقت .

دعوة ابراهيم

— ما لى رغبة عن دينك فإنى قد أسلمت وصدقت .

فاتيا امها فقالت لأبى ذر :

— ما رأيت ؟

— رأيت رجلا أفضل قومه مروءة ، واحسنهم خلقا ،
وأكرمهم مخالطة . وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلسا وأمانة .
وأصدقهم حديثا . وأبعدهم من الفحش والأذى ، وما رثى
ملاحيا أبدا ولا مهاريا أحدا ، حتى ساء قومه بالأمين ، يدعو
إلى الله بالحسنى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، فشهدت أن
لا إله إلا الله . وأن محمدا عبده ورسوله ، وأسلمت وأسلم
أخى أنيس .

فقالت أمها :

— ما لى رغبة عن دينكما ، فإنى قد أسلمت وصدقت .
وأتى أبو ذر قومه فألقاهم جالسين عند خفاف بن إيماء بن
رحضة الغفارى سيدهم ، فراح يتحدث فى إيمان عن محمد
صلى الله عليه وسلم — ويوجب أهله فى الإسلام ، حتى أسلم
خفاف بن رحضة وتبع كثير من القوم سيدهم ، وطبع أبو ذر
فى إسلام غفار كلها فالتفت إلى من أبوا أن يدخلوا فى دين الله
وقال :

— وأنتم . ما يمنعكم من الإسلام ؟

فقالوا :

— إذا قدم رسول الله أسلمنا .

في عماية الصبح فتح باب دار خديجة فخرج منه رسول الله صلى الله عليه وسلم - وعلى بن أبي طالب وزيد بن حارثة وهند ابن أبي هالة وخالد بن سعيد بعد أن هجر أباه ولزم النبي صلى الله عليه وسلم ، وانطلقوا في شوارع مكة الفسيحة المسقوفة حتى بلغوا الحرم فطافوا بالبيت سبعا . ثم انسلوا إلى شعاب مكة ليلتقوا بالمسلمين ليصلوا لله بعيدا عن عيون الذين لم يشرح الله صدورهم بعد للإسلام .

ومن دور بنى تيم خرج أبو بكر ومولاه عامر بن فهيرة وصهيب مولى عبد الله بن جدعان وطلحة بن عبد الله .

وخرج من دور بنى هاشم جعفر بن أبي طالب في خطى ثابتة فأبو طالب يعلم بإسلامه بل هو الذي أمره أن يصلى مع ابن عمه ، فقد رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - وعليهما يصليان وعلى على يمينه ، فقال لجعفر : صل جناح ابن عمك . فصلى عن يساره ، وكان جعفر في حيرة من أمر أبيه فهو لم يثر لما عثر ذات يوم على النبي - عليه صلاة الله وسلامه - وعلى ابنه على وهما يصليان في الشعب مستخفين ، بل قال لابنه : إنه لم يدعك إلا إلى خير فاتبعه ، فلماذا لم يتبع أبو طالب ابن أخيه ؟

أحقيقة إنه يخشى أن تقول نساء قريش إن شيخ بنى هاشم قد أسلم قياده إلى فتى من فتيان بنى هاشم أم لأنه يؤمن بأن الله أجل من أن يبعث رجلاً رسولاً ؟

ومن دور بنى أمية خرج عثمان بن عفان وهو على يقين من أن إسلامه قد تلم كرامة الأمويين ، فالمنافسة على السيادة كانت مشتتة الأوار بين بنى هاشم وبنى أمية ، وقد كاد أبو سفيان أن يكون زعيم قريش بلا منازع . أفقبل بنو أمية أن يكون من منافسيهم رسول يأتيه خبر السماء ؟ ترى ماذا يفعل أبو سفيان عندما يعود من رحلة اليمن ويعلم أن وحياً من السماء قد نزل على محمد بن عبد الله سليل البيت الهاشمي العتيد ؟

كان عثمان هاشمياً من ناحية أمه أموياً من ناحية أبيه فكان موزع العواطف بين الحيين المتنازعين على زعامة قريش ، فلما أشرق قلبه بنور اليقين نسي عصبيته لقييلته ، بل جعل دبر أذنه عصبيته لقوميته بعد أن علمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن الناس سواسية وأن لا فضل لأحد على أحد عند الله إلا بالتقوى ، فصارت غاية أمانيه أن يهدي الله قومه إلى الحق وأن تفيض رحمة ربه على العالمين .

وخرج من دور بنى أسد الزبير بن العوام وكان في الثانية والعشرين من عمره وقد فرحت عمته خديجة بإسلامه ، إلا أن ذلك الفرح قد كدّره عدم إسلام ابن أخيها حكيم بن حزام ،

فهي تحب ابن حزام وتسنى له الهداية وأن يكون من السابقين لتلبية نداء الله . ولكن ما كان ذلك ميسورا فحكيم قد أصبح صاحب دار الندوة اشتراها بماله ليكون له شرف امتلاك دار حكومة قومه . وهو مسموع الكلمة في الدار التي يشرب بأعناقهم إليها الطامحون من رجال قريش . وهو شريف محدود من أشرف قريش . أو يترك كل هذا المجد ليصبح تابعا من أتباع زوج عمته ؟ ! إن قلب حكيم مشغول بالدنيا متعلق بغرورها بينما كان الزبير لا يزال خلى القواد لم يعم قلبه عن الحقيقة ، فلما بزغ نور الحق لم تعترض سبيله عوائق من المطامع والأهواء .

وخرج من دور بنى زهرة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأخوه عامر ، وقد كانت أمهما تعير سعدا بأخيه عامر وتقول : هو البر لا يفارق دينه ولا يكون تابعا . وقد جاء سعد ذات يوم والناس مجتمعون على أمه وعلى أخيه عامر فقال : ما شأن الناس ؟ فقالوا : هذه أمك قد أخذت أخاك عامرا وهي تعطي الله عهدا لا يظلمها نخل ولا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى يدع صباه . فالتفت سعد إليها وقال : والله يا أمه لا تستظلين ولا تأكلين ولا تشربين حتى تبوئي مقعدك من النار .

كان عبد الرحمن يشق طريقه ليكون من أشهر تجار مكة ، وقد ذاعت أماتته في الأمصار حتى إن البضائع كانت ترسل باسمه حيثما كان في الأسواق ليبيعها ويأخذ نصيبه ثم يرد

الأموال وأرباحها إلى أصحابها كاملة غير منقوصة . وكان سعد في التاسعة عشرة وكان عامر في السادسة عشرة وكانا على الرغم من صغر سنهما يرغبان في الحقيقة ، فلما اتضح لهما صدق دعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - أسرعا بالتصديق ، ولم يؤثر فيهما وهما الباران بأمهما صياحها ومحاولاتها لتعيدهما إلى الظلمات بعد أن عرفا طريق النور .

ومن دور بنى مخزوم التي كانت تطل على الحرم من فوق الصفا خرج الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي وعياش بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي أخو أبي الحكم بن هشام (أبي جهم) فأماهما أسماء بنت مخربة التيسية . وكان عياش يعرف قسوة قلب أبي الحكم وأطماعه التي ليس لها حد ، فأموال بنى المغيرة ممدودة ورجال بنى مخزوم رجال الكر والفر والظعن والنزال ، ومن هذه صفاته لا بد أن يرنو إلى الصدارة وإلى منافسة بنى هاشم وبنى أمية . فإن كان الوليد بن المغيرة هو سيد بنى مخزوم فما أقصر أيامه في الأرض ، فإن ذهب فلا خليفة له غير أبي الحكم . كانت الدنيا تملأ قلبه وتستولى على تفكيره ، وكانت السيادة تتخيل له والزعامة هدف حياته فما كان يستطيع أن يتصور أن يقوم في قرش من ينافسه في أطماعه ، فما بالك إذا قامت دعوة تقوض كل قصور أحلامه وأمانيه ؟ كان عياش يرتجف فرقا من أخيه وكان يجل أبا الحكم ، فلما عرف الإيذان طريقه إلى قلبه هان في عينيه كل سلطان إلا سلطان الله ، ولم يعد يخشى بنى المغيرة ولا بنى مخزوم بل

ولا العالم بأسره ، فإن كان ينسل الآن ليصلى مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما ذلك إلا استجابة لرغبة النبي الكريم ، فهو لا يريد أن تقف النبتة في وجه العواصف قبل أن يشتد عودها .

وخرج أبو سلمة المخزومي مشرق النفس فألمه برة بنت عبد المطلب تبارك دعوة ابن أخيها ، فهو كالزبير بن العوام كلاهما ابن عمه صاحب الدعوة ، غير أن الزبير ابن أخى خديجة حاضنة الإسلام .

وخرج عمار بن ياسر وأبوه ياسر متسللين حتى لا يفجأهما أحد من بنى مخزوم ، فهما ليسا منهم بل حلفاء لهم . تزوج ياسر سمية وكانت جارية من جواريتهم ، فلما جاء عمار ثمة ذلك الزواج شب فيهم وإن كانت عواطفه منذ نعومة أظفاره مع محمد بن عبد الله ، فقد بهرته مكارم أخلاقه وما آتاه الله من الحكمة ، فلما سمع أن الله قد بعث صديقه العظيم رسولا إلى الناس كافة هرع إليه مغتبطا ليعلن إسلامه ، فهو يراه خليقا لأن يكون رسول رب العالمين .

ومن دور بنى جمح خرج عثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله وحاطب بن الحارث وأخواه خطاب ومعوذ وبلال بن رباح مولى أمية بن خلف ، وانطلقوا في هدوء لا يترقبون قد غمرتهم نشوة روحية أنستهم كل خطر ، وكانوا فرحين بما آتاهم الله يغذون السير لينعموا بلقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسعدوا بالوقوف بين يدي رب العالمين .

وخرج عبد الله بن مسعود من دار عقبة بن أبي معيط ، إنه يخرج في غنم لآل عقبة ، وذات يوم جاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومعه أبو بكر إلى حيث كان عبد الله يرعى الغنم . إنه قصير طوله نحو ذراع ، خفيف اللحم رجلاه دقيقتان ، ما يراه أحد إلا ويتسم لقصره ودقة رجليه ، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم دنا منه وقال في صوت رصين ليس فيه أثر من سخرية أو هزء :

— هل عندك لبن ؟

— نعم ، ولكن مؤتمن .

وكشف الصبي القصير عن ضمير حى ومعدن نفيس . فأقبل رسول الله عليه السلام يحادثه وابن مسعود يشتمع كأن نورا يصب في قواده فتشرق نفسه بالنور . وما انتهت المقابلة إلا وكان ابن أم عبد — وكان يعرف بأمه — قد نطق الشهادتين بلسانه بعد أن أقر بهما قواده ، وقال : يا رسول الله علمنى . فمسح رأسه وقال : بارك الله فيك فأنت غلام معلم .

كان صدق إيمانه وحسن حفظه ونعمة الله عليه ما حرك لسانه بالتماس العلم من ريب السماء ، فإذا به يحسن بعد أن مسح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رأسه كأن كنوزا من الحكمة تفجرت في قلبه ، وتعلق الفتى بالرسول الذى آمن به وصدقه فسار يمشى أمامه ومعه ويستتره إذا اغتسل ويوقظه إذا نام ويلبسه نعليه إذا قام ، فعرف بصاحب سر رسول الله .

وخرج أبو عبيدة بن الجراح مشرق القلب يحمد الله على أن

هداه إلى الإسلام ، فمن حسن طالعه أنه كان يآلف أبا بكر ،
ومن رحمة الله عليه أن جعله ذا بصيرة تستطيع أن تغوص في
نفس أبي بكر لتكتشف الكنوز الزاخرة فيه بالصدق ورجاحة
العقل وإرهاف الضمير ، فوقر في وجدانه أن أبا بكر رجل
عظيم لا تهفو نفسه إلا إلى العظمة والكرامة والظهر . فإن كان
أبو بكر قد آمن بما جاء به محمد بن عبد الله فلا بد أن ما جاء
به شيء عظيم ! فلما ألقى سمعه إلى الرسول — صلى الله عليه
وسلم — إذا ما رآه وما سمعه يفوق كل ما تصوره عقله . وإذا
بغشاوة تنزاح عن قلبه ، وإذا به يمتلئ بأنوار اليقين .

وخرج من دور بنى عدى سعيد بن زيد وما كان يهاب من
قومه غير عمر بن الخطاب ، فهو يعرف ما قال أباه زيد بن عمرو
ابن نفيل من اضطهاد الخطاب بن نفيل لما آمن بوحداية
الله وفكر في أن يدعو قومه إلى دين أبيهم إبراهيم . إن الخطاب
كان يحرض عليه شباب مكة فكانوا يرمونه بالحجارة حتى
اضطروه لأن يفر إلى الجبال ، وهو على ثقة بأن عمر بن الخطاب
أشد تعصبا لآلهة قومه من أبيه ، فلو عرف عمر أن سعيدا ابن
عمه قد أسلم وكهر بدين آبائه ، وأنه قد يسر لأخته فاطمة بنت
الخطاب الدخول في الدين الجديد ، فسيطش عمر الجبار به
وبزوجه ولن يرقق قلبه أنه ابن عمه وأنها أخته ، فهو لا يحفل
بأية صلة إذا ما ثار للأرباب !

ومن دور عبد شمس خرج هاشم بن عتبة بن ربيعة . إنه
ابن سيد عبد شمس ، بل ابن من تجله قرشي كلها حتى إن

أبا سفيان يراه أشرف الناس . أويرضى عتبة عن صوة ابنه ؟
 عتبة الذى كان يرشحه أمية بن أبى الصلت للرسالة لما عرف
 من الرهبان أن الرسالة المنتظرة فى قرش وليست فى ثقيف ؟
 إنه كان يراه الرسول الموعود لولا أنه أذرت به السن فقد فات
 عتبة الأربعين ، وقد قيل لأمية إن النبی المنتظر يبعث على رأس
 الأربعين . كيف فات هاشم أنه باتباعه لحمد يسىء إلى أبيه
 وإلى أبى سفيان زوج أخته هند ؟ ! إن نور الدعوة قد بهره
 وبساطتها أرضت فطرته السليمة ، إنها الحق وإنها من ربه ،
 وما كان ليحفل بأبيه ولا بأبى سفيان بعد أن استبان له العدل
 وأن الشرك ظلم شديد .

بذر محمد - صلى الله عليه وسلم - بذرة الإيمان فى كل بيت
 من بيوت شرف قرش العشرة بعون من ربه الذى جعل قلوب
 الأحرار والعبيد تفتح لدينه القويم . وستغلغل البذور فى
 المجتمع المكى ، وستروى بنماء الشهداء لتستوى أعوادا
 قوية ، وتترعرع لتظلل الإنسانية من هجير الوثنية .

وأحسن بعض المكين بالمتسللين فخرجوا فى أثرهم
 يرصدونهم ، حتى إذا ما اجتمع المسلمون برسول الله - صلى
 الله عليه وسلم - وألقوا إليه أسماعهم وتفتحت له قلوبهم ،
 عادوا مهرولين إلى دور بنى مخزوم وأفضوا إلى أبى جهل بما
 رأوا ، فجمع أبو جهل بعض رجاله ثم انطلق إلى حيث كان
 محمد - صلى الله عليه وسلم - وصحبه .

كان المسلمون قد اصطفوا خلف نبيهم الأمين وقد أسلسوا وجوههم لله رب العالمين ، قد قطعوا كل علاقتهم بالدنيا وراحوا ينعمون بسناجاة ربهم الواحد القهار . فلما أقبل أبو جهل ورفاقه أخذهم ذلك الخشوع الذي ران على المصلين الواقفين بين يدي إله لا يرونه ، فاخطفوا خلف صخرة ينظرون وقد صوبت عيونهم إلى سليل بنى هاشم وقد أم أصحابه . فاستشعر أبو جهل حسدا أسدل حجابا على بصره وبصيرته فلم ير عياش بن أبي ربيعة بين المصلين ، ولم ير الأنوار التي غمرت المكان وفاضت من القلوب . كل ما رآه أن على بعد خطوات منه جماعة شقت عصا الطاعة وعبدت إلها غير ما يعبدون ، فوجب عليه تأديبهم . ولكنه رأى أن ما معه من رجال أهون من أن يقضوا على هؤلاء الصابئين ، فوقف ينظر وهو يتميز غيظا يكاد صدره أن يتمزق .

وقضيت الصلاة وانطلق سعد بن أبي وقاص وبعض أصحابه لقضاء حاجة فمروا بأبي جهل وصحبه ، فراح أبو جهل يسخر بمحمد وبما جاء به وبمن اتبعه ، فمشى الرجال إلى الرجال وتشابكوا بالأيدي وراحوا يتقارعون بالألسن . المسلمون يعجدون ربهم في إيمان والمشركون يذكرون هبل واللات والعزى ومناة وما يخطر على قلوبهم من أسماء آلهتهم ، فكانت قلوب المسلمين على قلب رجل واحد تتجه إلى رب واحد . بينما كانت قلوب المشركين شتى تتعصب لآلهة متعددة لا ترتفع إلى أكثر

من حجارة منحوتة أو أخشاب محفورة أو منقورة أو معادن مصنوعة ، ما أيسر أن تكبها على وجوها يد إنسان .

وامتدت الأيدي إلى الحجارة فما كانت السيوف في مناطق الرجال ، وتناول سعد بن أبي وقاص عظم بعير فضرب به وجه رجل من رجال أبي جهل فشججه ، فسالت أول دماء بين المسلمين والمشركين . كانت دماء يسيرة ولكنها كانت إيذانا بإراقة دماء تروى أرض العرب في الصراع المرير الذي سينشب بين الحق والباطل ، حتى يتم نور الله .

واشتد الصراع ضراوة وأصيب سعد بن أبي وقاص بشج أذنه وارتفعت أصوات المتلاحمين ، فخشى أبو جهل أن يبلغ الصوت محمدا وصحبه فيخفوا لتجدة إخوانهم ، فانسل والذين معه من المكان وقد غرس في قلب طاغية قريش كراهية محمد وأصحابه ، فإن كان ينقلب إلى أهله اليوم والفيظ ينهش صدره فسيعمل على استئصال البدعة التي جاءهم بها ابن أبي كبشة ، فلم ينس القرشيون أن أبا كبشة جد محمد - صلى الله عليه وسلم - من ناحية أمه قد ابتدع يوما لقومه عبادة الشعري دون سائر الكواكب والنجوم .

وعاد سعد ورفاقه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - والدم يسيل من أذنه ، فضمه محمد - عليه السلام - له جرحه وقال له :

— في سبيل الله دمك يا سعد .

خرجت قريش كلها لاستقبال القافلة العائدة من اليمن ،
وانطلق أشراف قريش لاستقبال أبي سفيان فهو سيد بني أمية ،
وقد تزوج في بيوت شرف قريش والقبائل فربط الأسباب بينه
وبين ذوى الجاه في العشائر ، فأمه صفية بنت حزن بن بجير
من بني عامر بن صعصعة ، فكان بنو عامر أخواله ، وهى عمه
ميمونة وأم الفضل بنت الحارث زوجة العباس بن عبد المطلب ،
وقد تزوج صفية بنت أبي العاص بن أمية فكان له منها حنظلة
ورملة وأميمة ، وتزوج زينب بنت نوفل فكان له منها يزيد
ابن أبي سفيان ، وتزوج عاملة بنت أبي أزيهر من الأزد فكان
له منها عنبسة ثم محمد ، وتزوج صفية بنت أبي عمرو بن أمية
ابن عبد شمس وكان له منها عمرو وهند وصخرة ، وتزوج
لبانة بنت أبي العاص بن أمية ، وتزوج هند بنت عتبة بن ربيعة
ابن عبد شمس فكان له منها معاوية وجويرية وأم الحكم وعتبة .

جمع أبو سفيان بين الأختين وتزوج في قريش وفي اليمن
لأن هذه كانت سنة قومه ، وليجمع حوله الأصهار والأنساب
من ذوى الجاه والسلطان ممن يهبون لنصرته إذا تحزبت الأمور
واحْتَاج إلى أعوان .

وتعاقب الرجال الذين أشرقت وجوههم بالبشر للقاء بعد طول الغياب . وهرع الأبناء ليلقوا بأنفسهم في أحضان الآباء . ونظرت النسوة من الشرفات والقلوب تخفق بين الجوانح والدموع تترقق في العيون والعواطف الجياشة تمور في الصدور . فاليوم من أيام مكة النابضة بأحر المشاعر وأغنى الإحساسات .

وانطلق أبو سفيان إلى داره ومن حوله أولاده وأصهاره حنظلة ويزيد وعنبسة وعمر و معاوية . وعيد الله بن جحش زوج ابنته أم حبيبة ، وحويطب بن عبد العزى زوج أمية . والحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب زوج هند ، وسعد ابن الأخنث بن شريق الثقفي زوج صخرة وكان ييغض قريشا ، وأبو مرة بن عروة بن مسعود ، وفتحت أبواب دار أبي سفيان لاستقبال الوافدين لتحية أبي حنظلة .

وجاء الناس يسلمون عليه ويسألون عن بضائعهم ، وجاء محمد — صلى الله عليه وسلم — ودخل على أبي سفيان وهند بنت عتبة عنده تلاعب صبياتها فسلم عليه وسأله عن سفره ومقامه ولم يسأله عن بضاعته ، ثم قام — صلى الله عليه وسلم — تملوه المهابة والوقار فقال أبو سفيان لهند :

— والله إن هذا ليعجبني . ما من أحد من قريش له معنى بضاعة إلا وقد سألتني عنها وما سألتني هذا عن بضاعته . فقالت له هند وهي مستمرة في ملاعبة صبياتها :

— وأما علمت شأنه ؟

فقال أبو سفيان وهو فزع .

— ما شأنه ؟

— يزعم أنه رسول الله .

فشرد أبو سفيان وتذكر ما كان بينه وبين أمية بن
أبي الصلت يوم أن خرجا معا إلى الشام ودخل أمية على عالم
من علماء النصارى يسأله عن أشياء فقد كان يطمع في أن
يكون النبي المرتقب ، ورن في وجدانه ما كان بينهما من
حوار :

— حدثني عن عتبة بن ربيعة ، أيجتب المظالم والمحارم ؟

— أى والله .

— ويصل الرحم ويأمر بصلتها .

— أى والله .

— وكريم الطرفين وسط في العشرة ؟

— نعم !

— فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟

— لا والله لا أعلم .

— أمجوج هو ؟

— لا . بل هو ذو مال كثير .

— وكم أتى عليه من السن ؟

— قد زاد على المائة .

— ١٩٢ —

— فالشرف والسن والمال أزرين به ؟

— كلا والله ما أزرى به ذلك ، وأنت قائل شيئا فقله .

— لا . تذكر حديثي يأتي منه ما هو آت .. فإن الذى رأيت أصابنى أنى جئت هذا العالم فسألته عن أشياء ، ثم قلت أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر . قال : هو رجل من العرب . قلت : قد علمت أنه من العرب فمن أى العرب هو ؟ قال : من أهل بيت يحجه العرب . قلت : وفيما بيت تحجه العرب ! قال : هو من إخوانكم من قريش . فأصابنى والله شىء ما أصابنى مثله قط ، وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة ، وكنت أرجو أن أكون إياه . قلت : فإذا كان ما كان فصنفه لى . قال : رجل شاب حين دخل فى الكهولة . بدو أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة ، أكثر جنده من الملائكة .

فرجف أبو سفيان حتى قالت له هند :

ت مالك ؟

فانتبه فقال :

— إن هذا هو الباطل ، لهو أعقل من أن يقول هذا .

— بلى والله إنه ليقولن ذلك ويدعو إليه ، وإن له لصحابة على دينه .

— هذا هو الباطل .

وخرج أبو سفيان ، فينا هو يطوف بالبيت إذ به قد لقي الرسول عليه السلام فقال له :

— إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا فأرسل من يأخذها
ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومي . كأن فيها خير .

فأبى رسول الله إلا يأخذ منه أبو سفيان ما يأخذه من
قومه وقال :

— إذن لا آخذها .

— فأرسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي .

فأرسل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى بضاعته
فأخذها ، وأخذ منه أبو سفيان ما كان يأخذه من غيره .

ولم ينشب أن خرج إلى اليمن ثم قدم الطائف فنزل على
أمية بن أبي الصلت ، قال أمية :

— يا أبا سفيان ما تشاء ، هل تذكر قول النصراني ؟

— أذكره وقد كان .

— ومن ؟ .

— محمد بن عبد الله .

فقال أمية في انفعال :

— ابن عبد المطلب ؟

— ابن عبد المطلب . قالت لي هند : يزعم أنه رسول الله .

وأحس أمية كأن خنجرا يعوص في قلبه ويمزق أحشائه ،

فقد عاش سنين طويلة وهو يحلم بأن يكون النبي المنتظر .

وياطالما جلس إلى نساء ثقيف يحدثهن حديث الدين ويقول
دعوة إبراهيم

فى زهو إنه المرتقب والموعود ومن بشرت به الأنبياء . وقد نزل به هم ثقيل لما قال له عالم النصارى إن الموعود من قريش وإنه فى الأربعين . فخرجت النبوة من يده فهو ليس من قريش وقد فات تلك السن بأعوام كثيرة . فلما تلفت فى قريش لم يجد فيها غير عتبة بن ربيعة إلا أن المال والسن والشرف أزرين به . وما خطر له على قلب أبو القاسم فهو فى عزلة عن نوادى قومه وساحات الشعراء ، وقد حسب أنه استكان إلى الدعة التى وفرتها له الطاهرة وسيدة نساء قريش .

كان حزنه عسقا لما وصف له النصراني نبي الأميين ، وقد اعتكف بعد عودته من تلك الرحلة وكره الدنيا والناس . أفينستر فى زعمه بأنه ينتظر أوامر ربه ليبلغ رسالته أم يطبق شفتيه ويلتزم الصمت حتى ينسى أهل الطائف ما سرى بينهم من وهم كان هو مصدره ؟

تبخرت آمال سنين عقب مقابلة ذلك النصراني ، وهانت فى عينيه مسوح الرهبان التى كان يرتديها ، وفترت حماسته وهو ينظر فى كتب الدين فقد كان يتعبد لغاية . فلما تصدع يقينه واهتر إيمانه باصطفاء الله إياه استشعر هو أن أمره ، وتمنى من أعماقه لو أن الناس غضوا أبصارهم عنه وتركوه فى زوايا النسيان يمزغ آلامه وحده .

إنه عانى أعق الأسى لما قيل له إنه ليس المنتظر . أما وقد بعث الله رسوله فهو يستشعر بنفسه تذهب شعاها وكأنما لم

يعد له وجود ، وأحس استحياء من نساء قريش وإن لم يلق
منهن أحدا أنه كان يحدثهن أنه هو .

وقال في صوت خافت كأنما يأتي من قرار سحيق :

— فالله يعلم ؟

وأخذ يتصبب عرقا ثم قال :

— والله يا أبا سفيان لعله . إن صفته لهي ، ولئن ظهر وأنا

حتى لأطلبن من الله في نصره عذرا .

تري أو يصدق وعده ويتبع أمية بن أبي الصلت من كان

يطمع في النبوة محمدا — رسول الله صلى الله عليه وسلم — ،

وقد استبان له الرشاد ؟

ومضى أبو سفيان إلى اليمن وكان في القافلة العباس بن

عبد المطلب ، وراحت الأيام تضي في هدوء أشبه بذلك الهدوء

الذي يسبق العاصفة .

دبت الحياة في بيت خديجة : فأم أيمن تعدو وتروح في الدار
وقد لاح على وجهها الاهتمام : ووقفت فاطمة الزهراء عند
مدخل غرفة نوم أمها الحبيبة . بينا كانت زينب والقابلة عند
فراش الطاهرة ينتظران أن تضع ما في بطنها .

وجلس محمد - صلى الله عليه وسلم - حيث اعتاد أن
يجلس أهل البيت . وعلى مقربة منه على بن أبي طالب وهند بن
أبي هالة وزيد بن حارثة وقد لزموا الصمت وإن أرهفت
حواسهم وامتدت آذانهم إلى حجرة سيدة نساء قريش .

وخفت الرجل بعد أن هرعت أم أيمن إلى سيدتها ، ولف
الدار سكون وعلا الوجوه ترقب وانتظار ، وإذا بصوت وليد
يجلجل في المكان فتنتشى النفوس وتنزل طمأنينة بالقلوب
وتنبسط الأسارير ، وإن كان في الضمائر تشوف إلى نوع
المولود .

وجاءت أم أيمن تسبقها فاطمة وعلى وجهيها البشرى ،

وقبل أن تصلا إلى حيث كان رب الدار سبقتهما إليه أصواتهما
الناطقة بالفرح :

— ولد .. ولد ..

وانفجرت ابتسامة رضا عن أسنان رسول الله — صلى الله
عليه وسلم — المفلجة ، وحمد الله على ما آتاه ، وغسر الدار فرح
فياض . وزاد في غبطة رسول الله — عليه السلام — أن رأى تبلل
الاستبشار على وجوه على وفاطمة وهند وزيد وأم آيسن . فقد
كانت المشاعر النبيلة تهزه حتى لتكاد الدموع تبلل أهداب
عينيه .

وقام ليدخل على زوجه التي واسته وشدت أزره ووقفت
إلى جواره على الدوام ، فمشى يتقلع كأنما ينحط من صلب
ذريع الخطوة سائل الأطراف تعلوه مهابة ، قد غص طرفه
نيخفى الفرع الذي يترقرق في مقلتيه .

وتقدم من فراش خديجة فتوجت شفثيه ابتسامة رقيقة
ما إن رأتها زوجه حتى تبددت كل أوصابها واستشعرت كأن
رحمة من ربها فاضت عليها ، فإذا بكل مشاعرها تسجد لله
شكرا وإذا بروحها تؤدي في لحظة أعمق صلاة .

ومدت زينب يديها ورفعت الوليد في رقة فقدمته إلى
أييها ، فأخذ رسول الله عليه السلام على كفى الحنان فدفتت
من كنوز قلبه مشاعر نابضة بأجمل ما في النفس البشرية من
إحساسات الحب والرفقة والرحمة والإشفاق .

ورنت خديجة إلى زوجها وفلذة كبدها بين يديه وهو يميل

عليه ليضع قبلة على جبينه فأحست كأن فؤادها يلثم الوجود
جميعه ، وكأن كل أفراح الأرض والساء تنسكب في وجدانها
وتغمر عواطفها ، فلا تجد لها منفسا إلا أن تترقرو في مآقيها
الدموع كأنها من رحمة الرحمة وعين الرأفة وذات الرقة
والإشراق . كانت ترجو أن يكون لها ولد من الرجل العظيم
الذي اصطفاه رب العالمين لتبليغ رسالته ، فهو شرف لا يدانيه
شرف في الدنيا أن يكون لها ولد من خاتم الأنبياء . وكانت
تقدر النعمة الكبرى التي خصها الله بها من فيض كرمه فلم تجد
للتعبير عن شكرها العميق لما أعطاه الله غير الإنفاق في سبيل
الله . فأمرت بنحر النخائر وتوزيعها على فقراء مكة ابتغاء
مرضاة الله .

وذاع في مكة أن الطاهرة وسيدة نساء قريش أنجبت
لأبي القاسم ذكرا وأنه سماه عبد الله ، فهرع المسلمون
مستبشرين فرحين إلى دار النبي - صلى الله عليه وسلم - مهئين
بأن من الله عليه بمن يرث الأمجاد . ولما خرج أبو القاسم عليهم
به خفقت قلوبهم بالحب وهم يمدون أعينهم إلى بضعة من الرسول
عليه السلام . ولما كان عبد الله قد ولد بعد اصطفاء الله لأبيه
صلى الله عليه وسلم - ولم يشهد من أمر الجاهلية شيئا ، فقد
لقبه المسلمون بالطيب والظاهر ، ولا غرو فقد ولد في نور
الإسلام .

وتعلق قلب خديجة بالوليد فأبت أن تدفع به إلى المرضعات
في اليوم الثامن من مولده كما كانت عادة سادات قريش ،

وأقنعت نفسها بأنه لن يجد في قبائل البادية من هو أفصح من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا من هو في مثل علم على بن أبي طالب ربيب ربيب النساء . كانت دارها متارة للدين الجديد وإنه لخير لعبد الله أن يشب في منبع الحكمة والنور . وكان على وفاطمة يداعبان عبد الله وخديجة ترنو إليهما متفرخة وسرعان ما يشرذ خيالها فتذكر ما قال زوجها الحبيب ليلة مولد ابن أبي طالب : « لقد ولد لنا الليلة مولود يفتح الله علينا به أبوابا كثيرة من النعمة والرحمة » . ففى تلك الليلة كشف عن بصر محمد - صلى الله عليه وسلم - فشاهد أنوارا وهو يتبتل في غار حراء ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتيمن بتلك السنة ويسمىها سنة الخير وسنة البركة . كان على في حجر ابن عمه ولد على الفطرة وقبل أن يفسد أبواه تلك الفطرة بتلقيه عادات قومه ومعتقداتهم ، أكرمه الله بأن دفع به إلى دار النبوة ليتولى أبو القاسم تربيته فيعصمه من مساوىء الجاهلية ، فإن كان الله قد كرم وجهه على وقد ولد قبل الرسالة بعشر سنين فعبد الله قد ولد بعد المبعث ولا كان كافرا طرفه عين .

كانت خديجة سعيدة بعلى ، سعيدة بفاطمة ، سعيدة بنور النبوة التى أشرقت من دارها . وبلغت سعادتها ذروتها لما أنجبت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عبد الله ، فغبطتها قد فاقت ذلك السرور الذى غشيها لما جاءت بالقاسم ، فالقاسم كان ابن الرجل النبيل الذى تطمع خديجة في أن يكون هو

النبي المرتقب . أما عبد الله فهو وريث مجيد رسول الله من
اصطفاه ربه ليبلغ الناس رسالته . وهو مجد ليس دونه منتهى
ولا وراءه مرمى .

وراحت خديجة تحتضن ابنها وقد جاشت عواطف الأمومة
فيها حتى كادت تفتتها عن جليل رسالتها . فهي لم تخلق لتكون
حاضنة لوليد حتى لو كان ولد رسول الله — صلى الله عليه
وسلم — . بل خلقت لتكون حاضنة أعظم رسالة حملها بشر ،
تكون أمًا للمؤمنين جميعا في مشارق الأرض ومغاربها ، أمًا
يفيض حنانها وعطفها وشذى ذكراها العطرة على أبناء ذلك
الدين القويم الذي بزغ نوره أول ما بزغ من دارها على مر
السنين والأجيال والقرون . وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .
كان الإسلام لا يزال سرا في صدور المؤمنين به ، فإن كان
الله قد أمر رسوله بأن يقوم وينذر ويكبر ربه فقد كان يدعو
صحابته ومن يثق بهم . وكان أبو بكر يدعو سرا في ناحية
وعثمان يدعو سرا في ناحية وسعد والزبير وطلحة وعبد الرحمن
ابن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وكل من أشرق قلبه بنور
اليقين يدعون إلى الدين الجديد همسا ، فما استعلن أمر
الإسلام بعد : وهو في حاجة إلى جهود مضنية وصبر طويل
وكفاح مرير حتى يتم الله نوره ، وهو أحوج ما يكون إلى
إيمان خديجة ونصرتها وصدورها كالطود إلى جانب الرسول
عليه السلام ، لا تزغها عواصف الشرك ولا تنال من عزيمتها
أسلحة الاضطهاد ولا يشغلها عن تأييد دين الله مشاغل من ولد

ودنيا ، فقد ارتضت أن تكون لله ومن كان لله لا يشغل عنه
بسا سواه .

ومرت الأيام ومحمد - صلى الله عليه وسلم - يقابل
الراغبين في الدين الجديد في داره أو في شعاب الجبال بعيدا
عن عيون سادات مكة وأشرفها ، يعرض عليهم الإسلام أو
يفقههم فيه ثم يعود إلى خديجة يقص عليها ما كان في يومه وهي
تصغى إليه في فرح واستبشار . ثم تدفع إليه بابه عبد الله فيأخذه
ويقبله ويداعبه فيستشعر كأن أوصاب اليوم قد تبخرت وأن
عواطف رقيقة حانية تتفجر من فؤاده فتغمره بسعادة واستبشار .
كان يحب زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وكان يفيض
عليهن من فيض قلبه الكبير . وقد حزن على موت القاسم ،
فلما منَّ الله عليه بعبد الله وجد فيه عوضا عن أخيه فتعلق به
وأحبه . وكان يحس غبطة لما يسمع أصحابه يكونون الصغير
بالطيب والطاهر . وقد شكر الله بلسانه وفؤاده وكل جوارحه
أن جاء عبد الله بعد أن اصطفاه ربه لرسالته ، فسيشب في وهج
الأنوار .

وذات يوم هرعته إليه خديجة وفي وجهها هلع وقالت له
إن عبد الله مريض ، فحفف إلى حيث كان ابنه في أحضان أم أيمن
ونظر في وجهه فألفاه ذابلا وقد ضاق صدره وكأنه يتنفس
من ثقب إبرة ، فأحس أبو القاسم أسى يطوف به ، وتحركت
رقتة فمد يديه وتناول ابنه وضمه إلى صدر الحنان ، فاستشعر
بالطيب ينتفض في حضنه فترقرق الدمع في عينيه . ورأت

خديجة العبرات بين أهدابه الطويلة . فاشتد وجيب قلبها
واتشربت رهبة بين ضلوعها ونزل حزن ثقیل . فقد فطنت
إلى أن عبد الله يموت .

أيمضى عبد الله هكذا سريعا بعد أن ملأ الدار حياة وأملا ؟
أتوت أمانها المشرقة المجنحة العريضة التي داعبتها كلما مدت
عينها إلى ابن رسول الله - صلى الله عليه وسلم ؟ كانت ترى
فيه وريث النفحة الإلهية والشرف الذي لا يسمو إليه شرف .
وما اتضحت لها في ذلك الوقت حقيقة أن ما جاء به محمد عليه
السلام ليس ميراث فرد من البشر أو جماعة من الناس ، بل
ميراث البشرية جمعاء .

إنها تقرأ في وجه زوجها هول الفاجعة وتستشعر من الأسى
الذى غمره قمة المأساة فترتجف من الرأس إلى القدم ، فعبد الله
يجود بأنفاسه ويدب الفناء فيه ليودع الدنيا .

واحر قلباه ! واكرباه ! ذهب عبد الله ولن يثوب ، وسيقبر
كما قبر أخ له من قبل مخلقا في القلب حشرات . إنها حزنت على
فقد القاسم ولكن حزنها على فقد عبد الله يفوق كل ما مر بها
من أحزان ، فالأمل في أن تنجب لأبى القاسم ولد بعد القاسم
كان كبيرا ، أما اليوم فلا أمل في الإنجاب . ووقعت عيناها على
زوجها الواله الحزين وهو يسجى ابنه الحبيب في فراشه
والدموع تسيل على خديه وتبلل لحيته ، فلم تستطع احتمال
لوعة النفس فأجهشت بالبكاء . وارتفع صوت أم أيمن بالنحيب ،

— ٢٠٣ —

وجاء على وفاطمة وقد فطنا إلى أن الموت قد اختطف الطيب
فخنقتهما العبرات ، وراحت خديجة تذرف الدمع الهتون ولقيت
من مصيبتها نصبا ، فذهب إليها رسول الله - صلى الله عليه
وسلم يوأسيا ويسح بجناحه عن قوادها الأحزان ، وإن كان
قواده يكاد ينفطر على الطاهر الحبيب .

راح محمد - صلى الله عليه وسلم - يدعو الناس إلى الإسلام سرا وجهرا ، فاستجاب الله تعالى من شاء من أحداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن بالله ، وكفار قريش غير منكرين لما يقول . ودخل دار الأرقم بن أبي الأرقم وكانت على الصفا تطل على الحرم ودار الندوة وتكشف حركات سادات قريش وكل ما يجري في الكعبة .

وفي دار الأرقم كان المسلمون يصلون ويتفقهون في أمر الدين ، وكان الراغبون في الإسلام يفتدون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يلقون إليه أسماهم فتنشرح صدورهم للدين الجديد ، وما كان كفار قريش يفعلون أكثر من السخرية من ذلك الذي يأتيه خبر السماء فيما كانوا يقدررون خطر دعوته . كانت العبادات تمارس في حرية في أول بيت وضع للناس ، فكانت اليهودية والنصرانية والمجوسية والوثنية والحنيفية والصابئة تعيش في ظل الكعبة جنبا إلى جنب ما دام أصحاب تلك الديانات لا يعيبون دين قريش . وما كان أكابر القوم يرون في دعوة ابن عبد الله ما يثير غضبهم فقد حسبوها في أول الأمر

دعوة من دعوات التوحيد الهادئة التي كانت تظهر بين الحنفاء بين الحين والحين .

وأوحى الله إلى عبده : « وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ^(١) » . فاشتد ذلك على النبي - صلى الله عليه وسلم - فمكث شهرا جالسا في بيته يفكر في أمر الله وخديجة تشد أزره وتهون عليه الأمر ، وهو يستشير عجزه عن احتمال الوقوف في وجه بنى هاشم وبنى عبد المطلب وبنى عبد شمس وبنى نوفل الثأرين الغاضبين . وظنت عساته أنه مريض فدخلن عليه عائدات ، فقال - صلى الله عليه وسلم :

- ما اشتكت شيئا ولكن الله أمرني بقوله : وأنذر عشيرتك الأقربين . فأريد أن أجمع بنى عبد المطلب لأدعوهم إلى الله تعالى .

- فادعهم ولا تجعل عبد العزى (أبا لهب) فيهم فإنه غير مجيبك إلى ما تدعوه إليه .

وراح محمد - صلى الله عليه وسلم - يفكر فيما أمره به ربه . إنه أوحى إليه : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » ^(٢) . وقد نصحه عساته ألا يدعو عمه أبا لهب ولكنه لا يستطيع أن يستجيب لتلك النصيحة ، فعمه من عشيرته الأقربين . وما كان لرسول أن يعصى أوامر ربه وإن كان على يقين أن أبا لهب سيسمعه ما يكره ، بل قد تكون دعوته إلى الإسلام من أسباب تنغيص حياة ابنتيه الحبيبتين رقية وأم كلثوم ،

— ٢٠٦ —

فقد زوج ابنته لابنى عمه عتبة ومعتب وهما العوبة فى يد أمهما
أم جميل بنت حرب التى تنهش الغيرة قلبها إذا ما أصاب غيرها
خير :

وأصبح الصباح فبعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
إلى بنى عبد المطلب فحضروا وكان فيهم أبو لهب وقد ظن أنه
ما جمعهم إلا لأنه يريد أن ينزع عما يكرهون إلى ما يحبون ،
فقال له :

— هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك فتكلم بما تريد ، واترك
الصباة واعلم أنه ليس لقومك بالعرب طاقة ، وإن أحق من
أخذك وحبك أسرتك وبنو أبيك . إن أقمت على أمرك فهو
أسر عليك من أن تب عليك بطون قريش وتمدها العرب ،
فما رأيت يا بن أخى أحدا قط جاء بنى أبيه وقومه بشر
مما جئتهم به .

ودار حوار شديد بين عبد المطلب وبين رسول الله صلى
الله عليه وسلم انتهى بأن انسحب الموجودون دون أن يستجيب
أحد منهم إلى دعوة محمد — صلى الله عليه وسلم — ومرت أيام
ونزل عليه جبريل وأمره بإمضاء أمر الله تعالى فجمعهم رسول
الله — صلى الله عليه وسلم — ثانيا وخطبهم ثم قال لهم :

— إن الرائد لا يكذب أهله . والله لو كذبت الناس جميعا
ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم . والله الذى
لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة .
والله لمتوتن كما تنامون ، ولتبغثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن
بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها

لجنة أبدا أو لنار أبدا . والله يا بنى عبد المطلب ما أعلم شابا جاء قومه بأفضل منا جئكم به . إني قد جئكم بأمر الدنيا والآخرة .

فتكلم القوم كلاما ليثا غير أبى لهب فإنه قال :

— يا بنى عبد المطلب هذه والله السوء ، خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم فإن أسلمتموه حينئذ ذلتم وإن منعتموه قتلتم .

فكانت له أخته صفية :

— أى أخى أيحسن بك خذلان ابن أخيك ؟ فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئىء (أصل) عبد المطلب نبى فهو هو .

قال أبو لهب فى ضيق :

— هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء فى الحجال ، إذا قامت بطون قريش وقامت معها العرب فما قوتنا بهم ؟ فوالله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس .
فقال أبو طالب :

— والله لنمنعه ما بقينا .

وأحسن محمد — صلى الله عليه وسلم — صدق تأييد أبى طالب ، فذهب إلى داره واجتمع هناك بنى عبد المطلب فقال لهم :
— يا بنى عبد المطلب إن الله قد بعثنى إلى الخلق كافة وبعثنى إليكم خاصة ، فقال : وأنذر عشيرتك الأقربين . وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين فى الميزان : شهادة أن

الله لا إله إلا هو ، وأنى رسول الله . فمن يجيبنى إلى هذا الأمر ويؤازرنى على القيام به ؟
فصمت القوم فقام على فقال :
— أنا يا رسول الله .

— اجلس . فمن يجيبنى إلى هذا الأمر ويؤازرنى على القيام به ؟

فصمت القوم فقام على فقال :

— أنا يا رسول الله .

— اجلس .

ثم أعاد القول على القوم ثالثا فلم يجبه أحد منهم : فقام على فقال :

— أنا يا رسول الله .

— اجلس ، فأنت أخى ووزيرى .

وعزم محمد — عليه السلام — على أن يدعو قريشا فقام على الصفا وقال :

— يا معشر قريش .

فقال قريش :

— محمد على الصفا يهتف .

فأقبلوا واجتمعوا فقالوا :

— مالك يا محمد ؟

— أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكتتم تصدقوننى ؟

— ٢٠٩ —

— نعم ، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط .
— فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . يا بني عبد
المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة ...
حتى عدد الأفخاذ من قريش .

— إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقرين ، وإنني لا أملك
لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا :
لا إله إلا الله .

فقال أبو لهب :

— تبا لك سائر اليوم .
وانصرف أبو لهب وسار معه رجل من قريش . فقال له
الرجل :

— فما تفعل إن كان ما يقوله محمد حقا ؟

فقال أبو لهب في سخرية :

— إن كان ما يقوله محمد حقا افتديت منه بمالي وولدي .
وعاد أبو لهب إلى داره وراح يروي على امرأته ما كان من
محمد ابن أخيه ، فراح أم جليل تشاركه في هزئه وسخرته
ولكن ذلك لم يشف غليلها فهي حاقدة بضعها . أنانية لا تطيق
الخير لغيرها . فهي تستشعر بالنار ترعى في أحشائها كلما وصف
قومها خديجة بالظاهرة . ولولا الخشية من أن تكشف عن
خبيثة نفسها الحاسدة الخبيثة لأعلنت على اللأ سب خديجة .
فلما بلغها أن محمدا لم يكتب بأن زعم أن الخبر يأتيه من السماء
بل دعا قومه إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله ،
دعوة إبراهيم

زاد حنقها على ابن عبد الله وزوجه ، فلو آمن الناس بدعوته لربا شرف سيدة نساء قريش . وأعنتها الغيرة عن أن ترى في نبوة محمد شرف بنى هاشم بل شرف قريش كلها . وأبت أن تصيخ إلى صوت قلبها الذى حاول أن يقنعها بأن نبوءه محمد - صلى الله عليه وسلم - شرف عظيم سيسر بل ولديها معتب وعتبة زوجى ابنتى رسول الله . فأحست رغبة طاغية في أن تحطم الدعوة الجديدة وما تاتى به من أمجاد لغريمتها التى صارت هدفا لغل نفسها .

وانسلت من الدار لتدور على دور قريش تسب محمدا عليه السلام وتنال من خديجة لتشفى مرض قلبها وتحرض الناس على من جعل الإلهة إلها واحدا وزعم أنه يكلمهم من السماء . فطفقت تنفث سمومها وتزين للناس مقاومة الدعوة التى فرقت بين الأخ وأخيه . والمرء وأبيه . والرجل وصاحبه التى تؤويه . وبعد أن طافت بالدور وفيما هى فى طريق عودتها إلى دارها راحت تجمع الحطب . فلم تنس بخلها الذى جبلت عليه وهى تشن حربها الشعواء على محمد - عليه السلام - وزوجه ، فهى كأخيها أبى سفيان شحيحة وكان البخل أبرز صفاتهما .

وأوجى الله إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - : « تب يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامراته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد » (١) .

- ٢١١ -

فأرسل لمن كان عنده من كتاب الوحي ليكتب ما أنزل عليه
ولما انتهى شرد يفكر في ذلك الهجاء الشديد لعمه وامراته
فتبين أن قد انفصمت كل الصلات الطيبة بينه وبينهما .

كانت رقية وأم كلثوم في كنف ابني عمهما وقد تيقن بعد
نزول الوحي بسورة المسد أن لم يعد لبنتيه الحبيبتين مكان
في دار أبي لهب ، فلو كان الأمر بيده ما هجا عمه ولا امراته
وما عكر صفو رقية وأم كلثوم ، ولكن الله هجاهما وقد أمره
الروح الأمين بأن يصدع بما يؤمر فراح يقرأ على المسلمين
ما أنزل عليه .

وذاعت سورة المسد في مكة ومشى بعض الناس بها إلى
أبي لهب وأم جميل ، فأريد وجه أبي لهب واستبد به الحق
والغضب فبعث في طلب عتبة ومعتب وقال لهما إن محمدا قد
سبه وسب أم جميل ، ثم التفت إلى عتبة وقال :

— رأسى ورأسك حرام إن لم تفارق ابنة محمد .

فقال معتب في غضب :

— لآتين محمدا فلأؤذينه في ربه .

وانطلق معتب إلى محمد عليه السلام وكان عند أبي طالب .

فأتاه وسب إليه ثم بصق في وجهه ورد عليه ابنته وطلقها .

فقال محمد — صلى الله عليه وسلم :

— اللهم ابعث عليه كلبا من كلابك .

فوجم لها أبو طالب وقال :

— ما كان أغناك يا بن أخي عن هذه الدعوة .

وخرج محمد عليه السلام إلى الحرم والتقى بأبى بكر فراحا
يتحاوران ، وفيما هما في حديثهما إذ أقبلت أم جميل وفي يدها
حجر وقد أعماها الغضب ، فلما رآها أبو بكر قال :

— يا رسول الله إنها امرأة بدية فلو قمت فوالله لتؤذينك .

— إنها لن ترانى .

فجاءت فقالت :

— يا أبا بكر ، صاحبك هجانى .

— لا ورب هذا البيت ما هجاك .

وكان أبو بكر يقول صدقا ، فما هجاها رسول الله بل
ما هجاها إلا الله .

— أنشد فى شعرا .

— والله ما صاحبى بشاعر وما يدرى ما الشعر .

— والثواب إنه لشاعر وإنى لشاعرة .

مذمما أينما ودينه قلينا

وأمره عصينا

ولم يغضب أبو بكر فقد صرف الله عن رسوله شتم قريش
ولعنهم ، يشتمون مذمما ويلعنون مذمما وهو محمد .

ثم ولت أم جميل ذاهبة فالتفت أبو بكر إلى الرسول —
صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأ فى وجهه أبى بكر التساؤل قال :

— جعل بينى وبينها حجاب .

ومر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على قومه وهم
يسجدون للأصنام فقال :

— يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم .
وعرفوا أنه يعيرهم بعبادة الأصنام ، فيا طالما قال لهم إنها
حجارة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فقالوا :
— إنما نعبد الأصنام حبا لتقربنا إلى الله .

وانصرف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى داره
فهرع إليه أصحابه ليتفقهوا في دينهم ، وجاءت قريش إلى
حصين وكانت تعظمه فقالوا له :

— كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبها .
فجاءوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبي — صلى الله
عليه وسلم — ودخل حصين وابنه عمران مع رسول الله — عليه
السلام — ، فلما رآه النبي قال :
— أوسعوا للشيخ .

فجلس حصين فقال :
— ما هذا الذي بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرها ؟
فقال :

— يا حصين كم تعبد من إله ؟
— سبعة في الأرض وواحد في السماء .
— فإذا أصابك الضر لمن تدعو ؟
— الذي في السماء .
— فإذا هلك المال من تدعو ؟
— الذي في السماء .

— ٢١٤ —

— فيستجيب لك وحده وتشارك معه ؟ أرضيته في الشرك
يا حصين ؟ أسلم تسلم .

واستمر الحوار فإذا بحصين ينشرح صدره للدين الجديد
فيعلن إسلامه ، فيقوم إليه ولده عمران فيقبل رأسه ويديه
ورجليه فرحا بأن هدى الله أباه إلى الإسلام وزحزحه عن
نار جهنم .

وبكى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فشخصت إليه
الأبصار فقال :

— بكيت من صنع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم
يقم إليه عمران ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم وفقى حقه فدخلني
من ذلك الرأفة .

فلما أراد حصين الخروج قال رسول الله — صلى الله عليه
وسلم — لأصحابه :

— شيعوه إلى منزله .

فلما خرج من سدة الباب رآته قريش قالوا :

— قد صبا .

وتفرقوا عنه وصدورهم تكاد تميز من الغيظ وتنفجر من
الغضب..

٢٤

كان أبو سفيان والعباس بن عبد المطلب يجوبان السوق في اليمن وإذا برسول يقدم من مكة ويقدم إلى أبي سفيان كتابا من ابنه حنظلة ، فيقرأ الكتاب فيتغير لونه ويظهر في وجهه أثر الانفعال . فلما رأى العباس ما اعتراه قال له :

— ماذا في الكتاب يا أبا حنظلة ؟

فقال أبو سفيان وهو شارد :

— إن محمدا قائم في أبطح مكة يقول : أنا رسول الله ، أدعو إلى الله .

قفشا ذلك في مجالس أهل اليمن فجاء خبر من اليهود إلى حيث كان أبو سفيان والعباس فقال :

— بلغني أن فيكم عم هذا الرجل الذي قال ما قال .
قال العباس :

— نعم .

فقال الخبر وهو يتفرس في وجه العباس :

— نشدتك الله هل كان لابن أخيك صبوة ؟

— لا والله ولا كذب ولا خان ولا كان اسمه عند قريش إلا الامين .

— هل كتب بيده ؟

فأراد العباس أن يقول نعم ، فخشي من أبي سفيان أن يكذبه ويرد عليه فقال :

— لا يكتب .

فوئب الحبر وترك رداءه وقال :

— ذبحت يهود وقتلت يهود .

ورجع العباس وأبو سفيان إلى منزلهما فقال أبو سفيان :

— يا أبا الفضل إن يهود تفزع من ابن أخيك .

كان العباس على علم بأن زوجه أم الفضل علي دين محمد ، وكان في كل ما فعل هواه مع ابن أخيه فقال :

— قد رأيت لعلك أن تؤمن به .

— لا أومن به حتى أرى الخيل في كداء .

وعجب العباس فما كانت الخيل تطلع على كداء فهو جيل وعمر ، فقال ؟

— ما تقول ؟

ولم يدر أبو سفيان لم قال ذلك القول فقال :

— كلمة جاءت على فمى إلا أنى أعلم أن الله لا يترك خيلا

تطلع على كداء .

ولو اخترق بصر أبي سفيان حجب الغيب لرأى خيل

خالد بن الوليد تطلع على كداء يوم فتح مكة ، يوم يأخذه

— ٢١٧ —

العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه .
وأقبل أبو سفيان حتى نزل على أمية بن أبي الصلت
بالطائف فقال :

— يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته .
وصمت أمية قليلا وهو يفكر في رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ثم قال :

— قد كان لعمرى .

— فأين أتت منه يا أبا عثمان ؟

— والله ما كنت لأؤمن برسول من غير ثقيف أبدا .

ورأى أبو سفيان الحيرة في وجه أمية فقال له :

— ما يمنعك من اتباعه ؟

فقال ابن أبي الصلت وهو يطرق برأسه :

— ما يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف . إني كنت

أحدثهن أنى هو ثم يريننى تابعا لغلाम من بنى عبد مناف .

وساد الصمت بينهما برهة ، ثم قال أمية :

— كأنى بك يا أبا سفيان قد خالفته ثم قد ربطت كما يربط

الجدى حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد .

وكان في ثقيف بيت آخر قد أهمه ظمور محمد - صلى
الله عليه وسلم - ودخله من النفاسة والحسد ما أقلق أهله ،
كان ذلك البيت بيت الحارث بن كلدة زوج خالة رسول الله
عليه السلام . وكان الحنق يملأ جوانب ابن خالته النضر فهو

يحبس أنه أعلم العرب طرا ما دام قد ذهب إلى الحيرة وجنديسابور وتعلم أجزاء الحكمة وأحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وسفنديار . فلما بلغه أن ابن خالته قائم على أبطح مكة يقول : أنا رسول الله أحس بالحق ينهش فؤاده ولم يستطع صبرا ، فشد الرحال إلى مكة ليكون على ابن خالته يهزأ به ويؤلب عليه الناس .

وشد أبو سفيان الرحال إلى مكة وهو يفكر فيما دهاها . ترى ما أمر الناس بها ؟ كان أشياخ قريش في طريقهم إلى أبي طالب وقد أجمعوا خلاف ابن أخيه وعداوته ، فلما جاءوه قالوا :

— يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أعلامنا وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافة .

فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه . ومضى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يظهر دين الله ويدعو إليه لا يردده عن ذلك شيء ، واستشرى الأمر وانتشر بينهم وبينه حتى تباعد الرجال وأضرموا له العداوة ولصحه ، فوثب الحكم بن العاص على ابن أخيه عثمان بن عفان وراح يعذبه . وأخذ نوفل بن العديبة أبا بكر وطلحة بن عبد الله فشدهما في حبل واحد ولم يمنعهما بنى تيم وراح يعذب القرينين ، وكان نوفل جيارا وكان يدعى أسد قريش . وعاد عم الزبير إلى

تعذيبه . وأقبل أبو سفيان إلى مكة فوجد أصحاب محمد — صلى الله عليه وسلم — يضربون ويحقرون ، وتذكر وصف أمة للنبي المنتظر في أثناء عودتهما من الشام : رجل شاب حين دخل في الكهولة ، بدو أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط في العشيرة أكثر جنده من الملائكة ، فجعل أبو سفيان يقول :

— فأين جنده من الملائكة ؟ —

فدخله ما يدخل الناس من النفاسة فمشى إلى أبي طالب مع عقبة بن أبي معيط ، وشيبة وعتبة ابني ربيعة بن عبد شمس ، وأبي البحتري العاص بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وأبو جهل عمرو بن هشام ، ونبه ومنبه ابني الحجاج ابن عامر ، والعاص بن وائل ، فقالوا :

— يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإننا قد استهيناك من ابن أخيك فلم تنه عنا ، وإننا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو تنازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

ثم انصرفوا عنه فعظم على أبي طالب غرقا قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لهم ولا خذلانه ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال :

— يا بن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه وأنه خاذله ومسلمه ، وإنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه فقال له :

— يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته .

ثم استعبر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقام ، فلما ولي ناداه أبو طالب فقال :

— أقبل يا ابن أخي .

فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقال :

— اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء

أبدا .

وعرفت قریش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وإسلامه ، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم فمشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له :

— يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قریش

وأجمله ، فخذمه فلك عقله ونصره واتخذه ولدا فهو لك خير ،

وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك

وفرقت جماعة قومك وسفه أخلامهم فتقتله ، فإنسا هو رجل

برجل .

— والله لبئس ما تسومونني ، أتعطونني ابنكم أغذوه لكم

وأعطيتكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبدا .

فقال له المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف :
— والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على
التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا .
فقال له أبو طالب .

— والله ما أنصفوني ولكنك جمعت خذلاني ومظاهرة
القوم على ، فاصنع ما بدا لك .
— فأرسل إليه فلنعطه النصف .

— فأرسل إليه أبو طالب : فجاء رسول الله — صلى الله عليه
وسلم — فقال :
— يا بن أخي ، هؤلاء عمومتك وأشرف قومك وقد أرادوا
ينصفونك .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— قولوا أسمع .

— تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك .

قال أبو طالب :

— لقد أنصفك القوم فاقبل منهم .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— أرايتكم إن أعطيتكم هذه هل أتمم معطي كلمة ، إن

أتمم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم ؟

فقال أبو جهل :

— إن هذه لكلمة مريجة ، نعم وأبيك لنقولها وعشر

أمثالها .

قال :

— قولوا لا إله إلا الله .

فاشمازوا ونفروا منها وغضبوا ، وقال عقبة بن أبي معيط :

— واصبروا على آلهم إن هذا لشيء يراد .

وخرجوا من عند أبي طالب وهم يقولون :

— لا نعود إليه أبدا وما خير من أن نقتل محمدا .

فلما كان من مساء تلك الليلة جاء أبو طالب وعمومة محمد صلى الله عليه وسلم — إلى منزله فقد بلغهم ما عزم عليه القوم فلم يجدوه ، فجمع أبو طالب فتيانا من بني هاشم وبني المطلب ثم قال :

— ليأخذ كل واحد حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخلت المجلس فليجلس كل فتى منكم إلى عظيم من عظمائهم ، فيهم ابن الحنظلية (أبو جهل) فإنه لم يغب عن شر إن كان محمد قد قتل .

فقال الفتيان :

— نفعل .

فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال ،

فقال :

— يا زيد أرايت ابن أخى ؟

فقال زيد :

— نعم كنت معه آنفا .

— ٢٢٣ —

فقال أبو طالب :

— لا أدخل بيتي أبدا حتى أراه .

فخرج زيد مسرعا حتى أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون . فأخبره الخبر فجاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى أبي طالب فقال :

— يا بن أخي أين كنت ؟ أكنت في خير ؟

— نعم .

— ادخل بيتك .

فدخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي — صلى الله عليه وسلم — فأخذ بيده فوقف على أندية قریش ومعه الفتیان الهاشيون والمطلبون فقال :

— يا معشر قریش . هل تدرون ما هممت به ؟

— لا .

فقال للفتيان :

— اكشفوا عما في أيديكم .

فكشفوا فإذا كل رجل معه حديدة صارمة ، فقال :

— والله لو قتلتموه ما بقيت منكم أحدا حتى تتفاني نحن

وأنتم .

فانكسر القوم وكان أشدهم انكسارا أبو جهل .

اجتمع المسلمون في دار الأرقم بن أبي الأرقم يتحدثون وكانت الدار على الصفا تطل على الحرم ، وحانت التفاتة من أبي بكر فرأى قرشا في مجالسهم فضاقت بأن المشركين كانوا آمنين في بيت الله بينما كان المسلمون يترقبون خشية من الناس . إنه على الحق وهم على الضلال فكيف يختفى النور تاركا الدنيا للظلمات ؟

وراح أبو بكر يحدث محمدا - صلى الله عليه وسلم - ويلج على رسول الله في الظهور ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

- يا أبا بكر إنا قليل .

كانوا قلة حقا ولكنهم كانوا أقوياء باليقين الذي نزل بأفئدتهم . فهان القوم في عيني أبي بكر فجعل يتحدث في حماس وصدق يزين له الخروج إلى المسجد لإعلاء كلمة الله ، ولم يزل به حتى خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن معه من أصحابه إلى المسجد .

وقام أبو بكر في الناس خطيبا ورسول الله - صلى الله عليه وسلم -

وسلم — جالس ودعا إلى الله ورسوله ، فامتأذ سادات قریش
حنقا فقد ضاقوا بدعوة ابن عبد الله وکلموا أبا طالب فيه ویتوا
العذر لمن سب آلهم وسفه آحلامهم . وقبل أن ینالوا منه
شیئا . آیأتی ابن أبی قحافة لیسخر منهم علی أعین الناس ؟
إنها الفتنة وإن سکتوا علیها استشرى الشر فی مكة . فثاروا
علی أبی بکر وعلی المسلمین وضربوهم ضربا مبرحا . ووضی .
أبو بکر بالارجل . وضرب ضربا شديدا . وصار عتبة بن ربيعة
يضرب أبا بکر بنعلین مطبقتین ویحرفهما إلى وجیهه بعنف حتی
صار لا یعرف أنفه من وجهه . فقد غرق فی دم غزير بعد هذه
القسوة القاسية .

وطار الخبر إلى بنی تيم رهط أبی بکر فجاءوا وانشر یط
من أعینهم واصوات مزمجره متوعدة تنطلق من أفواههم .
فأجلوا المشرکین عن أبی بکر وحملوه فی توب إلى أن أدخلوه
منزله لا يشکون فی موته ، ثم رجعوا فدخلوا المسجد فقالوا .
— والله لئن مات أبو بکر لنقتلن عتبة .

ثم رجعوا إلى أبی بکر . وصار والده أبو قحافة وبنو تيم
یکلمونه فلا یجیب ، حتی إذا کان آخر النهار تکلم وقال :

— ما فعل رسول الله صلی الله علیه وسلم ؟

فراحوا یلومونه علی ما فعل فعاد یقول :

— ما فعل رسول الله صلی الله علیه وسلم ؟

ونظر إلى أمه فثالت :

— والله ما لی غلم بمأجک .

(دعوة ابراهيم)

— اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسألها عنه .
وخرجت أمه إلى دار سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل
ودخلت على فاطمة بنت الخطاب وقالت لها :

— إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله .
فقلت فاطمة :

— لا أعرف محمدا ولا أبا بكر .

كانت فاطمة ترتجف خشية أن يعرف أخوها عمر بن الخطاب
أمر إسلامها فيأتى ليبطش بها ، فهو جبار لا يطيق الدعوة
الجديدة ويقتفى أثر المؤمنين بها ليصب عليهم سوط عذاب . فلما
احسنت فاطمة إلى أم أبى بكر قالت لها :

— تريدن أن أخرج معك ؟

— نعم .

فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريعا فصاحت
وقالت :

— إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وإنى لأرجو أن
ينتقم الله منهم .

فقال لها أبو بكر فى لهفة :

— ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فالتفت أم جميل ناحية أم أبى بكر وقالت :

— هذه أمك تسمع .

— فلا عين عليك منها .

— سالم .

— أين هو؟

— في دار الأرقم .

— والله لا أدوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله

صلى الله عليه وسلم .

وهمَّ أبو بكر بالنهوض فحفت إليه أمه وقالت :

— فأمهلتنا .

وراحت أم أبي بكر تفكر في ذلك الدين الذي يتحمل أتباعه

في سبيله كل هذا الاضطهاد فلا يزدادون إلا إيمانا وتسليما . إنها

تعرف ابنها عاقلا رشيدا وتعرف محمد بن عبد الله حق المعرفة .

فهو الأمين الصادق الذي عرف بخلق القويم . واستمرت تفكر

في الدعوة التي جاء بها فألفتها دعوة يقبلها العقل ويستريح إليها

النفوس . حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجت به أمه

وأم جميل بنت الخطاب يتكئ على أمه حتى دخل على رسول

الله — صلى الله عليه وسلم — . فرق له رقة تنديده وأكب عليه

يقبله وأكب عليه المسلمون يقبلونه وقد غامت أعينهم بالدمع ،

فقال أبو بكر :

— بأبي وأمي أنت يا رسول الله ما بي من بأس إلا ما نال

الناس من وجهي . وهذا أُمِّي برة بولدها فعسى الله أن ينقذها

بك من النار .

فدعا لها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ودعاها

إلى الإسلام . فقالت :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فطفق أبو بكر يرنو إليها وليس على وجه الأرض من هو
أسعد منه لإسلام أمه البارة بولدها .

ودخل إلى الحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض
صحابه فيهم عبد الله بن مسعود يمشى أمامه . وجلس المسلمون
وقام رسول الله . صلى الله عليه وسلم . يصلى وقد نحر
جزور بين إساف ونائلة وبقي روثه في كرشه . وكان أبو جهل
وعقبة بن أبي معيط وبعض سادات قريش في مجلسهم ، فلما
رأى أبو جهل محمداً . صلى الله عليه وسلم . يصلى . قال
لن عنده :

— أياكم يأخذ سلى الجزور فيضعه بين كتفيه إذا سجد ؟
فقام أشقى القوم عقبة بن أبي معيط وجاء بذلك الفرث
فالتقاء على النبي وهو ساجد . فاستضحكوا جعل بعضهم يميل
على بعض من شدة الضحك . وكان صحابة الرسول عليه
السلام من المستضعفين فهابوا أن يلقوه عنه . صلى الله عليه
وسلم فما كانت لهم منعة ، وإذا بفاضة قد أقبلت ورأت الروث
بين كتفى أيها فخفت إليه وألقته عنه . ثم نظرت إلى أبي جهل
وعقبة وأمّية بن خلف والذين معهم وفوضت أمرها وأمر أيها
إلى الله . فلما قضى رسول الله . صلى الله عليه وسلم . الصلاة
رفع يديه وقال :

— اللهم عليك بقريش . اللهم عليك بقريش . اللهم عليك
بقريش . اللهم عليك بأبي الحكم بن هشام (أبا جهل) . وعتبة
بن ربيعة ، وعقبة بن أبي معيط ، وأمّية بن خلف .

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وهابوا دعوته
وأصبحت العداوة سافرة بين محمد - صلى الله عليه وسلم
وسادات قريش الذين كانوا يرتجفون فرقا من أن تذهب الدعوة
الجديدة بنفوذهم وسلطانهم . فكانوا كلما التقوا به آذوه
وسخروا منه . فلما دخل - صلى الله عليه وسلم - يطوف بالبيت
ويده في يد أبي بكر . كان في الحجر ثلاثة نفر جلوس : عقبة بن
أبي معيط وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف . فسر رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره .
وكان عثمان بن عفان جالسا في الحرم فعرف في وجه النبي -
صلى الله عليه وسلم - أثر ما قالوا من فحش القول ، فقام فدنا
منه حتى جعله وسطا فكان - صلى الله عليه وسلم - بين عثمان
وبين أبي بكر ، وأدخل أصابعه في أصابع عثمان فطافوا جميعا ،
فلما حاذاهم قال أبو جهل :
- والله لا نصالحك ما بل بحر صوفة ، وأنت تنهى أن نعبد
ما كان يعبد آبائنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- أنا ذلك .

ثم مشى عنهم فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك ، حتى
إذا كان الشوط الرابع قاموا له ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ
بمجامع ثوبه - صلى الله عليه وسلم - فدفع عثمان صدره فوق
على إسته ، ودفع أبو بكر أمية بن خلف ، ودفع رسول الله

— ٢٣٠ —

صلى الله عليه وسلم عقبه بن أبى معيط ، ثم انفرجوا عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف ثم قال :
— أما والله ما تنتهون حتى يحل بكم عقابه . بئس القوم
أأنتم لنبيكم .

ثم انصرف إلى بيته . وتبعه أبو بكر وعثمان حتى انتهى إلى
باب بيته ، ثم أقبل عليهما بوجهه فقال :

— أبشروا فإن الله عز وجل مظهر دينه ومتمم كلمته وناصر
نبيه ، إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله على أيديكم عاجلا .

اجتمع عقبة بن أبى معيط وأبو الحكم بن هشام والعاث
ابن وائل وأبو سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة وأمية بن
خلف وأبى بن خلف وسهيل بن عمرو ومادات قرش وكبراؤهم
فى الحجر وكانوا يحسدون رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
على ما آتاه الله من فضله لخبث نفوسهم وتكبرهم وتعجبهم من
أن يتقدم عليهم غلام یتيم ، وخوفهم من أن يقوض سلطانهم
بدعوته التى استبالت الضعفاء فأحالت ضعفهم قوة . ولم يخطر
لهم على قلب أنه لا يطمع فى مال ولا جاء فقد عود نفسه الفكر
فى جلال الله وعظمته ، وملكوت أرضه وسماؤه . فصار ذلك الذى
عنده من كل نعيم ، فهو لا يزاحمهم فى دنياهم . فكل ما يبغيه
أن يهديهم سبل ربهم ولو اهتمدوا ما زاحموه فى لذته ، بل زادوه
لذة بشاركتهم إياه فى الأنس بالله .

إنه يطلب نعمة لا زحمة فيها ، ولذة لا كدر لها . فقد عرف
لذة الشوق بعد الذوق ، وهو يحب أن يرفعهم جسيما إلى
موائد ربه ليذوقوا . فمن لم يذق لم يعرف ومن لم يعرف لم

يشتق ومن لم يشتق لم يطلب ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم
يدرك بقى مع المحرومين في أسفل السافلين .

وقال سادات قریش وكبرائهم :

— ما صبرنا لأمر كصبرنا لأمر هذا الرجل قط . ولقد سفه
أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا .
لقد صبرنا على أمر عظيم .

وبدت البغضاء من أفواههم ، فبينما هم في حديثهم إذ طلع
عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشی حتى استلم
الركن ثم مر طائفا بالبيت . فلما مر بهم لمزوه ببعض القول فتغير
وجهه ، ثم مر بهم الثانية فلمزوه بمثلها فاحتقن وجهه بالدم ، ثم
مر بهم الثالثة فلمزوه فوقف عليهم وقال :

— أتسمعون يا معشر قریش ؟ أما والذي نفس محمد بيده
لقد جئتكم بالذبح .

فنزل الرعب في قلوبهم وما تبقى رجل منهم إلا وكأنما على
رأسه طائر وقع ، وصاروا يقولون :

— يا أبا القاسم انصرف فوالله ما كنت جهولا .

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان الغد
اجتمعوا في الحجر فقال بعضهم لبعض :

— ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا ناداكم بما
تكرهون تركتموه .

فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله — صلى الله عليه
وسلم — فتراثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به وهم يقولون :

— ٢٣٣ —

— أنت الذى تقول « إن للسقين عند ربهم جنات النعيم .
أفنجعل المسلمين كالمجرمين . ما لكم كيف تحكمون ؟ . أم لكم
كتاب فيه تدرسون ؟ » (١) .

— نعم أنا أقول ذلك .

— أنت الذى تقول : « ومن يعص الله ورسوله فإن له نار
جَهَنَّمَ خالدين فيها أبدا » (٢) .

— نعم أنا أقول ذلك .

— أنت الذى تقول : « إن هى إلا أسماء سيئتموها أتم
وآبأؤكم » (٣) .

— نعم أنا أقول ذلك .

فأقبل عليه عقبه بن أبى مفيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى
الله عليه وسلم ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديدا ، وتشبثوا
به بأجمعهم فأتى الصريخ إلى أبى بكر فقبل له :
— أدرك صاحبك .

فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد رسول الله صلى
الله عليه وسلم والناس مجتمعون عليه ، فقام أبو بكر دونه وهو
يبكى ويقول :

— ويلكم ، أقتلون رجلا أن يقول ربه الله وقد جاءكم
بالبينات ؟

وراحوا يجذبون رأسه صلى الله عليه وسلم ولحيته ، حتى

— ٢٣٤ —

سقط أكثر شعره وأبو بكر يحاول أن يحول بينه وبينهم .
فأقبلوا على أبي بكر يضربونه وأبو بكر يجاهد أن يدفعهم
عن حبيبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا بصوت الرسول
يرتفع كالنذير :

— دعهم يا أبا بكر ، فوالله الذي نفسى بيده إنى بعثت إليهم
بالذبح .

ففرجوا عنه وخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم . من
المسجد . وانطلق أبو بكر إلى داره ليغسل ما سال من دمائه
وهو يقول :

— تباركت يا ذا الجلال والإكرام .

وسار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى داره ، وما
تقدم في الطريق خطوات حتى سار الصبيان خلفه يهجون به شعر
لقنه إياهم عسرو بن العاص . فقد كان ابن العاص شاعرا لا هم له
إلا هجو محمد — صلى الله عليه وسلم .

وأفاق أبو لهب والحكم بن أبي العاص وعقبة بن أبي معيط
من الرعب الذي نزل بقلوبهم لما توعدهم رسول الله — صلى الله
عليه وسلم . فانطلقوا إلى داره وراحوا يطرحون عليه الأذى .
فأخذه وخرج به ووقف على بابه يقول :

— يا بني عبد مناف : أى جوار هذا ؟

وصبر واحتمل فهو يعلم أن أشد الناس بلاء الأنبياء .
وخرجت فاطمة الزهراء إلى الحرم فألفت سادات قريش في
الحجر ، وكانوا يتجاورون وقد سمعت نجواهم قالوا :

— ٢٣٥ —

— إذا مر محمد فليضربه كل واحد منا ضربة .

فدخلت على أبيها وقالت وهي تبكى :

— تركت الملا من قريش قد تعاقدوا في الحجر وحلفوا

باللات والعزى ومناة وإساف ونائلة إذا هم رأوك يقومون إليك

فيضربونك بأسيا فهم فيقتلونك .

فقال صلى الله عليه وسلم في حنان :

— يا بنية لا تبكى .

وذهب وتوضأ ثم خرج فدخل عليهم المسجد فرفعوا رؤسهم

ثم نكسوا . فأخذ قبضة من تراب فرمى بها نحوهم ثم قال :

— شامت الوجوه .

وراح محمد — صلى الله عليه وسلم — يصلى لله . وسادات

الكفر في الحجر ينظرون . فلما ذهب عنهم الروع قام أبو جهل إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

— ألم أنهك عن هذا ؟

فانصرف إليه النبي — صلى الله عليه وسلم — فنهزه . فقال

أبو جهل :

— والله إنك لتعلم ما بها ناد أكثر منى .

فأنزل الله تعالى : « أرايت الذى ينهى . عبدا إذا صلى .

أرايت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى . أرايت إن كذب

وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى . كلا لئن لم ينته لنسفعا

بالناسية . ناسية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندع الزبانية .

كلا لا تطعه واسجد واقترب » (١) .

وجاء العباس بن عبد المطلب وجلس في المسجد . فأقبل أبو جهل يرغى ويربذ فقال :

— لله على إن رأيت مجمدا ساجدا أن أظأ عنقه .

فخرج العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بقول أبي جهل ، فخرج غضبان حتى دخل المسجد فعجل أن يدخل من الباب ، فاقتحم من الحائط وقرأ :

— اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق .

اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم^(١) .
وكان النبى قد بلغ أبا جهل فاستمر فى القراءة :

— كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى^(٢) .

واستمر يقرأ إلى أن بلغ آخر السورة وسجد ، فقال إنسان لأبى جهل :

— يا أبا الحكم هذا محمد قد سجد .

فأقبل إليه أبو جهل ثم نكص راجعا فقليل له :

— لم تطأ عنقه !

فقال أبو جهل :

— ألا ترون ما أرى ؟ لقد سد أفق السماء على .

وجلس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتأهب ليتلو ما تيسر من القرآن فإذا سادات قريش يسرعون إليه ، تقف له جماعة عن يمينه وجماعة عن يساره وراحوا يصفقون ويصفرون

ويروون الأشعار بأصوات عالية حتى تختلط بآيات الله فلا يسمعونها ولا يسمعون أحد ممن في الحرم .

وراح رسول الله يفكر في وسيلة يسمع بها هؤلاء المجاهدون كلام الله لعل قلوبهم القاسية تلين . إنه إذا جهر بصلاته قاموا إليه ينشدون أشعارا ماجة لاستهواء أسماع الناس ، وإذا خافت بها لم تصل إلى الراغبين في سماع ما جاء به . ونزل عليه من وراء سبع سماوات ، فأوحى الله إليه « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » (١) حتى يستطيع من يهوى أن يلقى إليه السمع في غفلة من قومه أن يسمع ما يقرأ من آي الذكر .

وراح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلي لا يجهر بصلاته ولا يخافت بها وقرأ : « الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة ؟ كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فاهلكوا بالطاغية . وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية » (٢)

وكان النضر بن الحارث في سادات قریش الجالسين في الحجر وقد أعار محمدا - صلى الله عليه وسلم - سمعه . فلما من القرآن أذنيه أحس الحسد يأكل صدره ولم يطق أن يصبر على نار الغيرة التي تطلعت في جوفه ، فقام إلى ابن خاتمه محمد - صلى الله عليه وسلم - وقال لأصحابه :

— إن محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم وأسفنديار وأخبار الأكاسرة .

وجلس النظر وجعل يروى أحاديث رستم الشديد
واسفنديار . والتف حوله الوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام
وأبو لهب بن عبد المطلب وأمية بن خلف وآبى بن خلف
وسادات قریش وأظهروا إعجابهم به . فاستخفه الطرب فقال :
— والله ما محمد بأحسن حديثاً منى وما حديثه إلا أساطير
الأولين . اكتبها كما اكتبتها .

وهز السرور كفار قریش ، واستمر النظر . يروى ما سمع
في الحيرة وفي بلاط كسرى وأعجب بنفسه فقال في سخرية :
— سأنزل مثل ما أنزل الله .

فأنزل الله فيه : « ومن الناس من يسترى لهو الحديث
ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب
مهيّن . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن في أذنيه وقراً
فبشره بعذاب أليم » (١) .

« وقالوا أساطير الأولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة
وأصيلاً . قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه
كان غفوراً رحيماً » (٢) .

« ويل لكل أفلاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر
مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم » (٣) .

وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتقى وهو يخرج
من باب بنى سهم بالعاص بن وائل . فوفقا يتحدثان ومناوِد

قريش في المسجد جلوس ، فلما دخل العاص قالوا له :

— من الذي كنت تحدث ؟

فقال في سخرية :

— الأبتري .

ولاموه على أن وقف يحدثه فقال :

— دعوه فإنما هو رجل أبتري . لا عقب له لو هلك انقطع

ذكره واسترحتم منه .

فأنزل الله تعالى : « إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك

وانحر . إن شئت هو الأبتري » (١) .

وبلغت السورة كفار قريش فعجبوا . فالحديث كان يدور

بينهم وما كان فيهم أحد من أتباع محمد — صلى الله عليه وسلم .

وراحوا يناولون من رسول الله — صلى الله عليه وسلم . فقال

قائل منهم :

— أسروا قولكم لنلا يسع إله محمد .

فأنزل الله تعالى : « وأسرؤا قولكم أو اجهروا به إنه عليم

بذات الصدور » (٢) . فلما بلغ ذلك صناديد قريش لاح الدهش

في وجوههم وأطرق الوليد بن المغيرة يفكر فيما يسمع ،

فاستشعر رغبة طاغية ليلقى سبعة إلى قرآن محمد .

واجتمع أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ذات

يوم في الحرم فقالوا :

— والله ما سمعت قريش القرآن جهرا إلا من رسول الله

صلى الله عليه وسلم . فمن فيكم يسمعهم القرآن جهرا ؟

فقال عبد الله بن مسعود :

— أنا .

فقالوا في خوف :

— نخشى عليك منهم وإنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه

من القوم .

فقال ابن مسعود في إيمان :

— دعوني فإن الله سينعني منهم .

ثم قام عند المقام وقت الشمس وقريش في أنديةهم فقال :

— بسم الله الرحمن الرحيم .

ورفع صوته :

— يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط

مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتتذركوما ما أنذر آبائهم

فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون (١) .

وتأملته قريش وقالوا :

— ما بال ابن أم عبد ؟

— يتلو بعض ما جاء به محمد .

واستمر عبد الله بن مسعود في قراءته :

— إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون .

وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم

لا يبصرون (٢) .

— ٢٤١ —

وقام إليه سادات قریش وفيهم عقبه بن أبي معيط وهو في دهش وغيظ ، فما كان يدور بخلده يوما أن ابن أم عبد من كان يرعى له غنمه ومن لا يزيد طوله على ذراع . يقف ذلك الموقف متحديا سادات قریش كلها .

وراحوا يضربون وجهه وهو مستبصر في تلاوة آيات الله : — "وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب . فبشره بغفرة وأجر كريم . إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين" .

وانهالوا ضربا عليه وهو كالطود يستشعر حلاوة الإيمان فلا يزيده الاضطهاد إلا عزيمة وإصرارا . واستتر يتلو :

— واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون .

واستمروا يضربون وجهه وهو مستمر في قراءته حتى قرأ غالب السورة ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أدمت قریش وجهه ، فقال له أصحابه :

— هذا الذي خشينا عليك منه .

فقال في صدق :

— والله ما رأيت أعداء الله أهون على مثل اليوم .

ولو شئتم لآتيتهم بثلها غدا .

— لا . قد أسمعتهم ما يكرهون .

في دعوة إبراهيم

الإسلام ينتشر بين الضعفاء والعيبد الذين يتطلعون إلى الحرية ، والأحرار الذين لا يخشون أن يقوض الدين الجديد نفوذهم أو يذيب كنوزهم من ذهب وفضة ، واشتد الحوار في الحرم بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين شيوخ قريش وساداتها . واشتعل أواره بين ابني الخالة محمد عليه السلام والنضر بن الحارث ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يفحم النضر على الدوام بتأييد من الله .

وجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الكعبة فطاف بها ، فلما أتم الطواف ذهب إلى حيث كان الوليد بن المغيرة وأشرف قريش وكان فيهم النضر بن الحارث ، فتكلم رسول الله فعرض له النضر فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون . لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون » (١) . ثم قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقبل عبد الله بن

الزبعرى السهمى شاعرهم الفصيح فألفاهم واجمين . فقال وهو
يرمقهم فى دهش :

— ما لكم ؟

فقال الوليد :

— والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ،
وقد زعم محمد أننا وما نعبد من آلهتنا هذه حسب جهنم .

فقال عبد الله بن الزبعرى فى خيلاء :

— ادعوه لى .

وأرسلوا يدعون أبا القاسم فجاء ووجهه يبتسم ، فهو
يرحب بكل حوار يدور بينه وبينهم حتى تتاح له فرصة إبلاغ
رسالة ربه إليهم . فقال له ابن الزبعرى :

— يا محمد ، هذا شئ ، لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من

دون الله ؟

— بل لكل من عبد من دون الله .

فصاح ابن الزبعرى صيحة فرح وقال :

— خصمت ورب هذه البنية .

أقسم بالكعبة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد
وقع فيها نصب له من فخاخ ، إنه سيلزمه الحجة على الملأ . فقال
وهو يتהלل بالفرح :

— ألسنت تزعم أن الملائكة عباد صالحون وأن عيسى عبد

صالح ؟ وهذه بنو مليح يعبدون الملائكة ، وهذه النصارى

يعبدون عيسى ، وهذه اليهود يعبدون عزيزا .

وصاح أهل مكة فرحين :

— ألزمه الحجة .. ألزمه الحجة .

فأنزل الله على عبده : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيها وهم فيما اشتت أنفسهم خالدون » (١) .

ونزل فيمن يعبدون الملائكة ويقولون إنها بنات الله : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين » (٢) .

« ولا ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون وقالوا آلأهتنا خير أم هو ما ضربه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون وإنه لعينم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم » (٣) .

وعجب الوليد من حجة وخصومته ومست آيات الله وترا حساساً في نفسه ، ولكن الحسد جثم على صدره فعقل لسانه عن أن يشهد بالحق فقال :

— أيتنزل على محمد وأترك وأنا كبير قریش وسيدها ؟

(٢) الانبياء ٢٦ - ٢٩

(١) الانبياء ١٠١ : ١٠٢

(٣) الزخرف ٥٧ : ٦١

ويترك أبو مسعود عمرو بن عبيد الثقفى سيد ثقيف ونحن
عظيما القريتين !

فأنزل الله فيه : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من
القريتين عظيم . أ هم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم
معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات
ليأخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون » (١)

وأراد أبو جهل أن يسخر من محمد — صلى الله عليه وسلم
على الملا خشية أن يفتن الناس به فقال :

— يا معشر قريش . هل تدرون ما شجرة الزقوم التى
يخوفكم بها محمد ؟

قالوا :

— لا .

فقال وهو يضحك ملء شذقيه :

— عجوة يثرب بالزبد ، والله لئن استمكننا منها لتزقمنها

(نبتلعها) تزقما .

فأنزل الله تعالى : « إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم . كالمهل
يغلى فى البطون . كغلى الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء
الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت
العزیز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون » (٢) .

وملا الحق فؤاد أبى جهل ، وزاد فى حنقه أنه قال لرسول
الله — صلى الله عليه وسلم : أنا العزیز الكريم . فإذا بقرآن محمد

يسخر منه ، وإذا بتلك السخرية الأليمة تنتشر في مكة بين المسلمين والكافرين على السواء .

ومشى أبى بن خلف إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم بعظم بال قد تحطم وتكسر ، فقال :

— يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم (بلى) ؟
ثم فته في يده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— نعم أنا أقول ذلك . يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ، ثم يدخلك الله النار .

فأنزل الله تعالى فيه : « وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » (١) .

وكان الأحنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة من أشراف القوم ومن يستمع منه . فكان يجادل الرسول صلى الله عليه وسلم ويرد عليه ، وكان الرسول — صلوات الله عليه — يعرف عيب نسه فما كان يلزمه به ، فأنزل الله تعالى فيه : « ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . متاع للخير ممتد أنيم . عسل بعد ذلك زنيم » (٢) .

كان سادات قريش يحرضون على ألا يسمعوا القرآن وإن كانوا فى شوق إلى أن يلقوا إلى أبى القاسم أسماهم ، إنهم سمعوا منه آيات متفرقة فى أثناء الحوار الذى كثيراً ما يدور

بينه وبينهم ولكنهم يريدون أن يصفوا إليه في هدوء لولا خشية أن يراهم الناس وهم جالسون إليه ، فيفتحوا بذلك أبواب الفتنة التي بذلوا كل الجهود لتظل مغلقة في وجه دعوة ابن عبد الله . وذات ليلة خرج أبو سفيان بن حرب وأبو جهل ابن هشام والأخنس بن شريق ليستمعوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يصلي في الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض :

— لا نبرح حتى تتعاهد ألا نعود .

فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال :

— أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟

— يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد

بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها .

— وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج الأخنس من عنده حتى أتى أبا الحكم بن هشام فدخل عليه في بيته فقال :

— يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال أبو جهل في حق وحسد :

— ماذا سمعت ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ،

أطعموا فأطعمناه ، وحملوا فحملناه ، وأعطوا فأعطيناه ، حتى إذا

— ٢٤٨ —

تجاذبنا (١) على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه
الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به
أبدا ولا نصدقه .

كانوا يتلفنون على سماع القرآن وكانوا ينسلون إلى دار
النبي صلى الله عليه وسلم وقد أرهقوا أسماعهم حتى لا يفوتهم
شيء مما يقرأ ، حتى إذا ما خرج رسول الله عليه السلام إلى
الكعبة وتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا يهزءون به :
— قلوبنا في آفة مما تدعونا إليه لا تفقه ما تقول ، وفي
آذاننا وقر لا نسمع ما تقول ، ومن بيننا وبينك حجاب قد حال
بيننا وبينك ، فاعمل بما أنت عليه إننا عاملون بما نحن عليه .
إننا لا تفقه عنك شيئا .

فأنزل الله تعالى عليه : « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك
وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا . وجعلنا على
قلوبهم آفة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في
القرآن وحده ولوا على أدبارهم تقورا . نحن أعلم بما
يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذا هم نجوى إذ يقول
الظالمون إن تبعون إلا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا
لك الأمثال فاضلوا فلا يستطيعون سبيلا . وقالوا
إذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ قل كونوا
حجارة أو حديدا . أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون
من يعبدا ؟ قل الذى فطركم أول مرة ، فسينغضون إليك
رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا » (٢)

(١) تجاذبتا : اتفينا ، والشهور تجاذبتا على الركب ، وهو تمصيف .

(٢) الإسراء ٤٥ : ٥١

٢٨

كان العاص بن وائل يتأهب للانطلاق إلى القافلة الخارجة إلى الشام ، وكان لخباب بن الأرت دين عليه فأتاه يتقاضاه . فقال له العاص :

— لا والله حتى تكفر بمحمد .

فقال خباب في قوة :

— لا أكفر حتى تموت وتبعث .

فقال العاص في سخرية :

— وإني لمبعوث بعد الموت ؟ فسوف أقضيك إذا رجعت

إلى مالي .

وكانما استمرأ العاص الهزء بخباب فقال :

— أولستم تزعمون أن في الجنة ذهاباً وفضة وحريراً ؟

— بلى .

— فأخزني حتى أقضيك في الجنة ، فوالله لئن كان ما تقول

حقاً إني لأفضل فيها نصيباً منك .

فأنزل الله تعالى : « أفرأيت الذي كمر بآياتنا وقال لأوتين

مالاً وولداً . أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً . كلا

سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا . ونرثه ما يقول
ويأتينا فردا . واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا .
كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا . ألم تر أننا
أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا . فلا تعجل عليهم
إنما نعد لهم عدا . يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا . ونسوق
المجرمين إلى جهنم وردا . لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند
الرحمن عهدا . (١)

وخرج العاص بن وائل إلى الطريق لينطلق إلى السوق
حيث ترك جاريته للبقاء لتعود إليه بأموال طلاب الشهوة ،
وفيما هو يدرج في زهوهِ إلى الحرم رأى عبد الرحمن بن
عوف وصديقه أمية بن خلف يوسع من خطوه ليلحق به وهو
ينادي :

— يا عبد عمرو ... يا عبد عمرو ..

وصلك صوت أمية أذننى عبد الرحمن فلم يخفل به . فأسرع
أمية خلفه فلما لحق به قال له :

— أفسدك محمد علينا فتركت دين آبائك ودخلت فيما
يدعو إليه ، وأدعوك بعد عمرو فلا تجيب ، أرغبت عن اسم
سماكه أبوك ؟

فقال عبد الرحمن في هدوء :

— أنت تعلم أنى سميت حين أسلمت عبد الرحمن .

— إني لا أعرف الرحمن فأجعل بينى وبينك شيئا أدعوك

به ، أما أنت فلا تجيبنى باسمك الأول وأما أنا فلا أدعوك
بما لا أعرف .

— يا أبا علي ! اجعل بيني وبينك ما شئت .

— فأنت عبد الإله .

— نعم .

وساروا إلى حيث أناخت القافلة ، وكان بنو هاشم في وداع
أبي لهب وابنه معتب ورجال آل عبد المطلب . وكان محمد -
صلى الله عليه وسلم - هناك ولم يكن قد أتى لوداع عمه ، فإن
المطلبين جميعا قد استجابوا لدعوة عمه أبي طالب ونهضوا
لحمايته إلا أبا لهب فقد انضم إلى بنى أمية في عداوتهم بفضل
زوجه أم جميل ، بل جاء ليودع عقبة بن أبي معيط ، فعقبة صار
يختلف إليه كثيرا بحكم صلة القرابة التي بينهما ، وقد ألقى
إليه السمع وفتن بالقرآن وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم
بات يطمع في إسلام عقبة والتفريق بينه وبين حليفه أبي بن
خلف ، فيحطم حلقة من حلقات العداوة التي تقف في وجه
انتشار دعوة الإسلام والسلام .

وانفصلت القافلة وانطلقت لتغيب في الأفق البعيد ، وقد
ضمت لأول مرة في تاريخ قريش قلوبا عامرة باليقين وقلوبا
يتجاذبها اليقين والشك وقلوبا أبت أن تفتح نوافذها للنور .
وعلى الرغم من ذلك التنافر فقد كانت مشغولة برسول الله
صلى الله عليه وسلم - تنبض بحبه أو تخفق بغيظه بعد أن كانت

تنشرح للقاءه وعذب حديثه وحكمته قبل أن يأتي بسا سفه به
معتقدات الآباء وسخر به بما وقر في العقول ..
ونزلوا منزلا فأشرف عليهم راهب من دير فقال لهم :
— هذه الأرض مسبعة .

فأجمعوا متاعهم إلى صومعة الراهب ثم فرشوا لمبيتهم .
ثم جبعوا جمالهم وأناخواها حولهم . وسقط الليل وجاء أسد
يتشم فلما دنا من المعسكر وأحست الجمال به رغت . فاستيقظ
معتب فلما رأى الأسد كاد يموت من الرعب لما تذكر دعوة محمد
عليه السلام يوم أن بصق في وجهه : « اللهم سلط عليه كلبا
من كلابك » . وأراد أن ينهض ليفر من وجه الأسد فإذا
بالأسد يشب عليه ويضربه ضربة بذنبه ، فيشق سكون الليل
صرخة معتب المفروعة . فيهب رجال القافلة من نومهم ويدب
الذعر بينهم ، فيستشعر الأسد بالخطر فينسل بعيدا .

والتف الرجال حول معتب فإذا به يجود بأنفاسه بين يدي
أبيه وقد لاح في وجه أبي لهب الرعب والأسى ، إنها دعوة ابن
أخيه . ومات معتب ففرح بموته من كان هواه مع أبي القاسم
وشق ذلك على الكافرين .

وانطلقت القافلة إلى الشام ولا حديث للرجال إلا عن محمد
صلى الله عليه وسلم . بينما كانت الأحداث تجري في مكة على
غير هوى الكافرين ، فأيات الله تنزل على قلب الأمين والناس
يهمسون بها فتشرح لها قلوب فيهرع من شرح الله فؤاده

للإسلام للقاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خفية من قومه لينطق بالشهادتين وهو سعيد .

وكان الوحي ينزل بردود مفحمة على ما يثيره الكافرون من جدل ، وكان يروى أحداثهم التي كانت تقع بعيدا عن عيني محمد صلى الله عليه وسلم — فيثير دهشتهم — ويقص ما يجري في نجواهم فينظر بعضهم إلى بعض كأنما كل منهم يتهم صاحبه بأنه يحبل إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سرهم ، فقد أبوا أن يؤمنوا بأن الله يوحى إلى أحد من خلقه .

كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل أسبوع جزورين . فهو وإن كان بخيلا إلا أنه كان يخشى أن يفضل بنو هاشم بنى أمية بالإتفاق . فأتاه ذات يوم يتيم فسأله شيئا من لحم الجزور فغلبه طبعه فلم يعطه عن سماحة نفس بل قرعه بعصا . فأنزل الله تعالى : « أرأيت الذي يكذب بالدين . فذلك الذي يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين » (١) .

وراح الوليد بن المغيرة يغشي النبي — صلى الله عليه وسلم — وأبا بكر حتى حسبت قريش أنه يسلم . فجاءه أبو جهل وقال له :

— إن قريشا تزعم أنك إنما تأتي محمدا وابن أبي قحافة تصيب من طعامهما .

فغضب الوليد فأقبل على قريش يؤنبهم ، وفي ثورة غضبه نطق بالحق قال :

— إنهم ذوو أحساب وذوو أحلام ، وإنكم تزعمون أن
محمدا مجنون ، وهل رأيتموه يتكهن قط ؟
— اللهم لا .

— تزعمون أنه شاعر ، هل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟
— لا .

— فتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟
— لا . فما هو ؟

— ما هو إلا ساحر وما يقوله سحر .
فقال له أبو جهل :

— لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .
فأطرق الوليد قليلا ثم قال :

— فدعني حتى أفكر فيه .
ولم يجد الوليد جديدا يقوله فقال :

— هذا سحر يؤثر .

فأنزل الله تعالى : « ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له
مالا مسدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن
أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر
وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس
وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر .
إن هذا إلا قول البشر » (١) .

وكان النضر بن الحارث يستشعر الغيرة تنهش فؤاده إذا
ما ذكر القرآن بخير ، فكان يقول :

— قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا . إن هذا إلا أساطير الأولين .

وكانت عداوته للرسول صلى الله عليه وسلم تبلغ مداها لما يجد الناس يدخلون في دين الله . فكان يقول في سخرية لينفر الناس عن الحق :

— اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .

فأنزل الله فيه : « سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريباً » (١) .

كانت سخرية النضر بن الحارث تستهوى الكافرين ولكنها سرعان ما تذهب أدراج الرياح ، إنه قال عما نزل في عاد وثمود من آيات إنها أساطير الأولين . وحدث عن رستم واسفنديار ولكن ما إن خلا الناس إلى أنفسهم حتى راحوا يتلون بين الدهش والإعجاب : « الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية » (٢) .

وصار محمد — صلى الله عليه وسلم — ورب ابن عبد الله وما نزل عليه من قرآن حديث الدور في مكة ، حتى إن رجلين من

قريش وختنا لهما من ثقيف كانوا في بيت فقال بعضهم :

— أترون الله يسمع نجوانا ؟

فقال بعضهم :

— قد سمع بعضه ولم يسمع بعضه .

— لئن كان يسمع بعضه لقد سمع كله .

وخرجوا إلى الحرم فإذا برسول الله — صلى الله عليه وسلم

يتلو : « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى

إذا ما جاءوها وشهد عليهم سماعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا

يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله

الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون .

وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا

جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون . وذلكم

ظنكم الذي ظننتم يريكم أدراكم فأصبحتم من الخاسرين » (١) .

فراح الرجال من قريش وختنها يتبادلون النظرات وهم

يعجبون ، فقد نزل القرآن يرد على ما كان يدور بينهم من

حديث وما كان الأمين فيهم وما سمع نجواهم ، وفيما هم في

قمة انفعالهم وبينما أفئدتهم تخفق بالرهبة تكاد أن تنفتح

قلوبهم للنور ، إذا بأصوات ترتفع في الحرم :

— الصابىء .

— الكاهن . لا تصفوا إليه إنه مجنون .

— بل ساحر .

— هذا منجر مبین .

ودنا أبو جهل والنضر بن الحارث من الرسول صلى الله عليه وسلم وقالوا له في انتصار :
— إنك لتشقى بترك ديننا .

فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم وهو حزين ، فإذا بجبريل الأمين يأتيه بما يطئن فؤاده : « طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخش . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » (١) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلوذ بأبى طالب بين وقت وآخر ، فأبو طالب قد عادى قريشا كلها فى سبيل حمايته . فإن كان صناديد الكفار يحجمون عن قتله فما ذلك إلا خوفا من أن يجمع أبو طالب رجال بنى هاشم وينهض للشار لابن أخيه ، وقد هم ذات يوم بأن يشنها حربا شعواء على بنى أمية وبنى مخزوم وبطون قريش الأخرى لما ظن أنهم قد غدروا بالأميين . ولم يضع السلاح إلا بعد أن رأى أبا القاسم واطمأن إلى سلامته .

كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يحاور عمه وكان يطمع فى إسلامه فهو يحبه ويحب هدايته ، وبينما كانت المناقشة بينهما تدور ، تذكر أبو طالب أن محمدا — عليه السلام — قد شغل بالحديث عن الطعام ، فقام وأتى النبي عليه الصلاة والسلام بخبز

ولبن ثم جلس ، فبينما هو جالس إذ انحط نجم فامتلا الأفق بنار .
قفزع أبو طالب وقال :
- أى شئ هذا ؟

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :
- هذا نجم رمى به ، وهو آية من آيات الله .
فعجب أبو طالب وسكن روعه ، فأنزل الله تعالى : « والسماء
والطارق . وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب . إن كل نفس
لما عليها حافظ . فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق .
يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعة لقادر . يوم
تبلى السرائر . فما له من قوة ولا ناصر » (١) .

وعجب أبو طالب وراح يسأل نفسه : من أين أوتى ابن
أخيه هذه الحكمة ؟ إنه شب في داره وما كان يروى في الدار
غير شعره وشعر أخيه الزبير بن عبد المطلب وشعر شعراء
قريش . وقد فرح بنو هاشم لما ظهر فيهم أبو سفيان بن الحارث
ابن عبد المطلب ، فقد وجد الشاعر الذي يدافع عنهم وينزل
الرعب في قلوب القبائل من حدة لسانه ، أما أن يتكلم إنسان من
السماء فما خطر ذلك لهم على قلب . وإن أبا طالب وإن كان
يحب راحة لدعوة ابن أخيه إلا أن فكرة أن الله أكبر من أن
يخاطب بشرا كانت مستحوزة عليه ووقرت في عين ضميمه .

كان راضيا عن جوهر دعوة محمد - عليه السلام - وما فيها
من دعوة إلى مكارم الأخلاق ، وكان إعجابه بابن أخيه لا يحد
إلا أنه كان مخلصا مع نفسه ومع تنزيهه لله عن أن يتصل بالبشر أو

يوحى إليهم . وكان كلما جلس إلى ابنه على يزداد خيرة فمن أين لعل كل ذلك الفهم ومن أين له التفقه في الدين وهو في مثل سنه وحداثته ؟ ولو سمع قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعل بن أبي طالب : « إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك وتعي ، وحق على الله أن تعي » وآمن بما قاله ابن أخيه لزال عجبه ، ولوجد راحة نفسية للقلق والموار بين جنبيه .

ورجعت قافلة قريش من الشام وخف الناس لاستقبال العائدين ، فإذا بأبي لهب بأسر الوجه قد نكأت العودة جرح قلبه فهو يعود بعد أن غيب معتبا التراب . وراح أبو طالب والعباس وحزمة وسادات بني هاشم يرحبون بأبي لهب وهو حزين في عينيه دموع ، وما كانت دموع الفرح باللقاء بل دموع الواله الحزين على فلذة الكبد وهوى الفؤاد . وفطن الرجال إلى أسى الرجل الذي عرف بينهم بقسوة القلب فلما سألوه عما به وعرفوا أن أسدا قضى على معتب لاح في وجوههم الحزن . وتذكر أبو طالب دعوة ابن أخيه أبي القاسم على معتب لما بتق في وجهه فرنت في أذنيه كأنما كانت قضاء رهيبا : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك . فتقاصرت نفسه ولفه خوف وهو يسأل نفسه : ترى أجا قتل الأسد لابن أخيه معتب مصادفة أم أن الله رب محمد استجاب لدعوته ؟

وكان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلا صنع طعاما فدعا إليه أشراف قومه ، فلما قدم من سفره هذا صنع طعاما

— ٢٦٠ —

فدعا الناس ودعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى طعامه ، فلما قرب الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
— ما أنا بأكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله ،
وأنى رسول الله .

فقال عقبة :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وإن محمدا رسول الله .

فأكل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد انشرح صدره لإسلام من لج في عداوته ومن كان من أقصى المستهزئين بالدين القويم .

كان أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط متحالفين وكان أبى غائباً ، فلما أخبر بما كان بين عقبة ومحمد عليه السلام كاد يطيش له ، ففى إيمان عقبة تقويض لركن ركين في عداوة ابن أبى كبشة الذى جاء بدعوى تجتث سلطانهم من مكة بل من كل أرض العرب . فخرج وشرر الغضب يتطاير من عينيه حتى إذا ما دخل على عقبة قال له :

— صبأت يا عقبة . وجهى من وجهك حرام إن تابعت

محمدا . .

وخشى عقبة غضب أبى أكثر من خشيته من غضب الله ،

فقال معتذرا :

— والله ما صبأت ولكن دخل على رجل فأبى أن يطعم من

طعامي إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم

فشهدت فطعم .

— ٢٦١ —

ولم يقنع ذلك القول أبى بن خلف فقال :
— ما أنا بالذى رضى منك أبدا إلا أن تأتبه فتبزيق في وجهه
وتطأ عنقه .

وخرج عقبة إلى المسجد فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم — ساجدا ، فداس على عنقه حتى كادت عيناه — صلى الله عليه وسلم — أن تخرجا من محجريهما : فقام عليه السلام وهو يلتقط أنفاسه في جهد فبزيق عقبة في وجهه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف .
وضج الكافرون بالضحك فما كان لمحمد عليه السلام أنصار يمنعونه ، وما كانت لهم بصائر يرون بها نصر الله الذى وعده به رسوله ، ولم ينزل الوحي ينهاء عن وعده بقتل عقبة إن لقيه خارجا من مكة بل نزل الروح الأمين بالوعيد : « ويوم يعرض الظالم على يديه يقول : يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا . وقال الرسول : يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ، وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا . وقال الذى كفروا لولا نزل عليه القرآن جلة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » (١) .

علم أبو جهل أن أبا سلمة المخزومي قد دخل في دين محمد صلى الله عليه وسلم فاستبد به الغضب ، فما كان يحسب أن الفتنة تدخل دور بنى مخزوم . إنه يجاهد ليكنم صوت الحق حتى لا يذهب الشرف كله لبنى قصي فإذا بأبي سلمة يسلم ويقر بنبوّة محمد بن عبد الله .

وتذكر أبو جهل ذلك الحديث الذي دار بينه وبين الأخنس ابن شريق ، قال له الأخنس :

— يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس هنا من يسمع كلامك غيري .

— والله إن محمدا لصادق وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجّابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟

وتذكر ما أنزل الله فيه : « قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » (١) . فلم يلبس قلبه ويستجيب للحق بل زاد طغيانا وعزم على أن يعذب أبا سلمة حتى يفتته عن دينه .

كان أبو سلمة يعلم أن أخا أبي جهل عياش بن أبي ربيعة قد أسلم ، وكان يعلم أن أبا جهل يطلبه لينزل به عذابه فلم يقل له : اذهب إلى أخيك قبل أن تأتي إلي . بل انطلق إلى خاله أبي طالب ليكون في جواره فهو ابن برة بنت عبد المطلب ، فكان على أخواله أن يحموه من غضب بنى مخزوم .

وجاء أبو جهل على رأس قوم من بنى مخزوم إلى أبي طالب فقالوا له :

— لقد منعت منا ابن أخيك محمدا فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

قال أبو طالب في ثقة :

— إنه استجار بي وهو ابن أختي ، فإن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أختي .

وكان أبو لهب حاضرا فقال مغضيا :

— يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيء ؟ ما تزالون تتوثبون عليه في جواره من بين قومه . والله لتنتهن عنه أو لتقومنَّ معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد .

وخشى أبو جهل أن ينسلخ أبو لهب عنهم أو تأخذه العصية فينضم إلى ابن أخيه ، فتشدد دعوة محمد — صلى الله عليه وسلم — وتقوى فقال :

— بل تنصرف عما تكره يا أبا عتبة .

وانصرفوا وسار أبو جهل وهو يستشعر قهرا ، حتى إذا ما بلغ الصفا مرَّ برسول الله — صلى الله عليه وسلم — فتحرك

غضبه فراح يسب من سفه أحلامهم وفرق جماعتهم ، ثم صب التراب على رأسه وجارية من دار عبد الله بن جديعان تسمع وتنظر .

وانصرف أبو جهل إلى نادي قريش وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم — دون أن ينبس بكلمة .

وظلت مولاة عبد الله بن جديعان تشرح الطرف فيما حولها ، حتى إذا ما رأت حمزة بن عبد المطلب مقبلا متوشحا بسيفه راجعا من قنصه متجها إلى الحرم ليطوف بالبيت قبل أن يعود إلى أهله ، تأهبت لتقص على حمزة ما كان بين أبي جهل ومحمد ابن عبد الله .

ومر عليها حمزة فقالت له :

— يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام ! وجده ها هنا جالسا فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد .

فسار حمزة نحو الحرم وهو خائف ، وما كاد يقطع في الطريق خطوات حتى لحقت به مولاة أخته صفية بنت عبد المطلب وقالت له :

— إن أبا الحكم بن هشام صب التراب على رأس محمد وألقى عليه فرثا .

فاحتل حمزة الغضب ودخل المسجد فرأى أبا جهل جالسا في القوم ، فأقبل نحوه حتى قام على رأسه ورفع القوس وضربه فشجه شجة منكرا ثم قال :

— أنشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد على ذلك
إن استطعت .

فقال أبو جهل في تضرع :

— سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا .

فالتفت حمزة إلى القوم وقال في حدة :

— ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله . أشهد

أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل

فقالوا :

— ما نراك إلا قد صبات .

— وما ينعنى وقد استبان لى منه . أنا أشهد أنه رسول

الله وأن الذى يقول حق . والله لا أنزع فامنعونى إن كنتم

صادقين .

فقال لهم أبو جهل : دعوا أبا عمارة فإنى والله لقد أسمعت

ابن أخيه شيئا قبيحا .

ورجع حمزة إلى بيته وراح يفكر فيما كان بينه وبين

أبى جهل : إنه ثار لابن أخيه وأعلن إسلامه فى نوبة من نوبات

غضبه فراح الشيطان يوسوس له : « أنت سيد قریش اتبع

هذا الصابى وتركت دين آبائك . الموت خير لك مما صنعت » .

واستشعر الرجل الشجاع الذى لا يخشى الردى خوفا يلقه

وحيدة تكتنفه ، وحاول أن ينام ولكن لم يطف الكرى بعينه .

إنه في قلقه وأرقه . وفي جوف الليل راح يتهل إلى الله في
حرارة :

- اللهم إن كان راشدا فاجعل تصديقه في قلبي ، وإلا
فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجا .

وراح حمزة يعدو ويروح في الغرفة يحاول أن يستفتي قلبه
مرة ، ويصيخ سماعه إلى همزات الشيطان مرة ، ويتهل إلى الله
مرات أن يدركه برحمته ويلقى في عين بصيرته نورا يرى به
جوهر الحقيقة . إنه أقر على الملأ بوحداية الله ورسالة ابن
أخيه ، وقد كان إعلانا حركته عصبية لأبى القاسم أخيه في
الرضاعة وابن أخيه ورفيق الصبا والشباب وحبيب الفؤاد ، إلا
أنه لما خلا بنفسه قامت هواجسه تهاجسه في قسوة ، وراح ينقب
عن كبد الحقيقة ، فما كان يجب أن يخدع نفسه أو أن يكون
منافقا في عين ذاته . إنه يبغي الحق ولا شيء غير الحق .

وبات حمزة بليلة لم يبت بمثلها راح فيها يستعرض حياة ابن
أخيه فلم يجد فيها مثلبا ، فهو الأمين الذي لم يجرب عليه الكذب
قط ، إنه لم يكذب على الناس ، أو يكذب على ربه ؟ إنه يحسن
الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه ، له نور يعلوه كأن
الشمس تجري في وجهه ، قد أوتى الحكمة لا ينطوي إلا على
الإخلاص ، قد خرج من سلطان نفسه فلا يغضب لها بل يغضب
للحق . إنها صفات لا تجتمع إلا في إنسان يعد لرسالة كبيرة ،
وإن ابن عبد الله كفاء لحمل أعظم رسالة .

وما يكاد يتنعم نفسه بصدق ابن أخيه حتى تهب الوساوس لتقتلع بذور اليقين التي تحاول أن تستقر في أغوار ذاته وتهجس في نفسه ، أنه يحاول أن يجد ثبريرا لتسرع في إعلان إسلامه استجابة لغضبه الذي انبعث لما حاق بابن أخيه من مهانة ، حتى إذا ما أسفر الليل عن وجه الصباح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

- يا بن أخى إني قد وقعت في أمر لا أعرف المخرج منه ، وأقامة مثلى على ما لا أدرى ، أرشد هو أو غي شديد .

وقص على ابن أخيه قصته فراح محمد صلى الله عليه وسلم يذكره - ويعظه ويخوفه ويشره ويتلو عليه القرآن ، وحمزة مأخوذ بما يسمع يستشعر كأن أسجافا ترتفع عن قلبه وأن نورا يشرق في عين ذاته وأن حديث ابن أخيه يرتفع به عن عالمه المحدود إلى عوالم من الرفعة والسمو والنور . وألقى الله في قلبه الإيمان فقال في فرح وانفعال :

- أشهد أنك لصادق ، فأظهر يا بن أخى دينك .

وسر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بإسلام أعز فتى في قريش سرورا كبيرا ، فقد أعز الله الإسلام بأشد قريش شكيمة ، وأحس أن آلام الاضطهاد الذي تحمله سنين طويلة قد أثمرت خيرا ثمرا ، فبات يرحب بكل عذاب وشدة وهو على ثقة من أن الله سيتم نوره ولو كره الكافرون .

وأنزل الله تعالى فيما كان من حمزة وأبى جهل : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله

في الظلمات ليس بخارج منها كذلك نين للكافرين ما كانوا يعملون . وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا لنؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتى رسول الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغاراً عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون . فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون . وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » (١)

كان الحق يملأ نفوس سادات قريش ، فإسلام حمزة شد
أزر دعوة محمد عليه السلام ، فما كان حمزة يخشى أبا جهل
ولا أبا سفيان ولا أبا لهب ولا الوليد بن المغيرة ولا ابنى خلف
ولا العاص بن وائل ولا النضر بن الحارث ولا عقبة بن أبي
معيط ولا عتبة بن ربيعة ولا أخاه شيبه ولا أحدا من أهل
العداوة والمباداة لابن أخيه الذين يطلبون الجدل والخصومة .
فسيف حمزة أسرع من لسانه ، وما كان أحد من هؤلاء بزاهد
في الدنيا حتى يثير غضب أبي عماره .

وعز رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن دخل حمزة في
دين الله ، فكف كفار مكة عن بعض ما كانوا ينالون منه : فلم يعد
الرجال يقفون عن يسيره وعن يساره ويصفقون ويصفرون
ويخلطون عليه بالأشعار إذا قرأ القرآن . ولم يعد أحد يجروا
على وضع ثوبه على عنقه وخنقه به خنقا شديدا . وكف خيانه
أبو لهب والحكم بن أبي العاص بن أمية وعقبة بن أبي معيط
عن طرح الأذى عليه ، ولم يعد أبو جهل يفكر في صب التراب
على رأسه ، فأغلق بإسلام حمزة باب اضطهاد محمد عليه السلام

الذى ظل مفتوحا على مصراعيه سنوات ، وفتحت أبواب الجدل
وطلب المعجزات .

وفي ذات يوم خرج بلال من دور بنى جمح في البكرة
وانطلق إلى الحرم ، فوجد خلوة من الناس فصار يبصق على
الأصنام التى وضعت في جوف الكعبة ومن حولها وراح يقول :
— خاب وخسر من عبدكن .

ورآه رجل من قريش فانطلق إلى أمية بن خلف فقال له :
— أصبوت ؟

فقال أمية في غضب :

— ومثلى يقال له هذا ؟ ! .

— إن أسودك بصق على الآلهة .

واقشعر بدن أمية وخشى غضب الآلهة فقال لقريش :
— خذوا مائة من الإبل وانحروها للآلهة .

ثم انطلق أمية إلى حيث كان بلال وراح يصب عليه جام
غضبه وبلال ثابت لا يتزعزع ، يأمره أن يكفر بمحمد وإله محمد
وأن يعود لعبادة آلهة قريش وبلال يهزأ بقلبه وبلسانه من
الأصنام التى لا تنفع ولا تضر . ودب اليأس في قلب أمية وزاد
في حنقه عناد عبده الأسود فألبسه أسمالا بالية ووضع في عنقه
حبلا من مسد ثم نادى صبيان القبيلة ودفع به إليهم ، فخرجوا
به يتصايحون ويسبون الكافر باللات والعزى وبلال يردد
شعاره :

— أحد .. أحد .

وراح بنو جمح يعذبون حمامة أم بلال ، فقد كفرت مع ابنها بدين قريش ودخلت في الإسلام ويسألونها أن تذكر محمدا عليه السلام بسوء وأن تعود إلى عبادة اللات والعزى ، فكانت تحتل العذاب في صبر ولا يتحرك لسانها إلا بحمد الله على أن أخرجها من الظلمات إلى النور .

واكتشف أمية بن خلف أن ابنه عليا قد فتن عن دين آبائه فأنزله به سوط عذاب ، فلم يحتل على بن أمية الآلام المبرحة التي نزلت به فأعطى معذبه ما يحبون وفتن عن دينه ورجع إلى الشرك والضلال .

وقامت كل قبيلة تعذب من اعتنقوا الإسلام من أبنائهم ومواليهم ليرتدوا إلى دين قريش قبل أن يستفحل الأمر وتنتشر دعوة محمد عليه السلام في القوم فيترزع سلطان السادة ويضيع مجد قريش ، فخرج بنو مخزوم بأبنائهم ومواليهم المسلمين وراحوا يعذبونهم على أعين الناس تخويفا لمن تسول له نفسه هجر دين الآباء والدخول فيما يدعوا إليه محمد بن عبد الله ، فكانوا يضربون بالسياط أبا قيس بن الوليد ابن المغيرة وعمارا وأمه سمية وأباه ياسرا ضربا تنزق منه الجلود فتسيل الدماء تروى الرمال .

وزاح عمر بن الخطاب يعذب جارية أسلمت استمر يضربها حتى مل ، ثم قال لها :

— إني أعتذر إليك فإني لم أتركك حتى ملت .

فقلت له وهي تتلوى من الألم :

— كذلك يعذبك ربك إن لم تسلم .

ولم يكن عمر يدري أن أخته فاطمة بنت الخطاب قد أسلمت ، ولم يخطر له على بال أن زوج أخته سعيد بن زيد قد دخل في دين الله . ولو عرف عمر أن الفتنة قد دخلت دور أهله لانطلق حانقا لينزل بالصابئين ألوان العذاب .

وكان خبات بن الأرت مولى لأم أنمار وكان حدادا يعمل طوال النهار ليعود لمولاته بشمرة عرقه ، فلما قامت القبائل على من فتن فيها بالإسلام صارت أم أنمار تأخذ الحديدية وقد أجمعتها بالنار فتضعها على رأسه وتسأله أن يسب محمدا عليه السلام وأن يكفر بدينه ، ولكنه كان يحتسل النار في صبر عجيب ولا تتحرك شفاته إلا بذكر الله .

وضاقت أم أنمار بذلك العناد فدعت رجلا من أهلها ليعاونوها على تعذيب ذلك العبد الآبق لعله يعود عن غيه . فأوقدوا نارا ووضعوها على ظهره فارتفع أنين خباب . وراح الرجال يقولون له :

— سب محمد وإله محمد .

فلم تتحرك شفاته إلا بالخير ، واستمرت النار تسرى فيه لا يطفئها إلا دهن ظهره .

ومر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على عمار وأمه سمية وأبيه ياسر وبنو مخزوم يعذبونهم بالنار ، فقال :

— صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة .

وضاق أبو جهل بثبات سمية فقال لها :

— ما آمنت بمحمد إلا أنك عشقته لجماله .

ثم طعنها في قلبها فماتت فكانت أول شهيدة في الإسلام ،
ولم يحتفل ياسر عذاب النار ففاضت روحه والنبي صلى الله
عليه وسلم يدعو ربه :

— اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بالنار .

وراح صفوان بن أمية يعذب مولاه أبا فكيهة فيخرجه
نصف النهار في شدة الحر مقيدا إلى الرمضاء فيضع على بطنه
صخرة حتى يخرج لسانه ، ورجال من قرابة صفوان يقولون
له :

— زده عذابا حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره .

ومرت الأيام والعذاب يترادف على المؤمنين فمنهم من
صبر ومنهم من قضى نحبه ومنهم من لم يحتل العذاب فارتد
عن دينه : فرجع إلى الشرك الحارث بن ربيعة بن الأسود
وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة والعاص بن منبه بن الحجاج ،
فشجع ذلك الكفار على أن يعالوا في تعذيب المؤمنين لعلمهم
يرجعون إلى دين الآباء فتسوت دعوة الإسلام في مهدها قبل أن
يشدد عودها وتسبح بها القبائل التي تقد إلى الحزم في الموسم .
وأتى خباب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو
متوسد بردة في ظل الكعبة ولقد لقي المسلمون من المشركين شدة
شديدة ، فقال :

— يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟

فقعد صلى الله عليه وسلم محمرا وجهه فقال :

(دعوة إبراهيم)

— إنه كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دور
عظنه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار
على فرق رأس أخذهم فيشقق ما يصرفه ذلك عن دينه .
وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء
إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه .

وأطرق خباب وقد تقاصرت نفسه . ولم يطل إطراقه فقد
مس أذنيه صوت الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو يدعو
له كأنه صوت رحيم آت من السماء :
— اللهم انصر خبابا .

وراح أبو جهل بنفس عن حقه لمحمد عليه السلام بتعذيب
كل من آمنوا بما جاء به ، لم يدع رجلا ولا امرأة إلا صبت عليه
سوط عذاب ، إنه رأى أناسا يعذبون امرأة كانت جارية من
جوارهم وقد فتنت بالدين الجديد فذهب ليشترك في صب
جام غضبه عليها . فألقاها قد عذبت حتى عسيت فلم يرق لها
قلبه . بل راح يضربها ويقول لها :

— إن اللات والعزى فعلا بك ما ترين .
فقلات له في إيمان :

— كلا والله لا تملك اللات والعزى نفعا ولا ضرا . هذا أمر
من السماء وربى قادر على أن يرد على بصري .
فأصبحت تلك الليلة وقد رد الله تعالى عليها بصرها فقلات
قريش :

— إن هذا من سحر محمد .

وجيء ببلال مقيدا وكان اليوم قائظا وقد ألبسوه درعا من
حديد وأضجموه على الرمال وتركوه للشس وانصرفوا :
فأحس كأنه فى أتون نار ولكنه ظل صابرا ولم يعرف الجزع
طريقه إلى قواده : وجاء أمية بن خلف وأبو جهل والمشركون
يتفصد العرق منهم من شدة الحر ، وقالوا لبلال :
— سب محمدا .

فقال بلال يردد نشيده :

— أحد .. أحد .

أيسوا من أن يسب العبد الحبشى محمدا أو يذكره بسوء ،
فلا أقل من أن يذكر آلهتهم بخير ليطلقوه فقد لاحت الهزيمة
لأعينهم بشعة إذا ما استمر بلال على عناده ، فقالوا له :
— اذكر اللات والعزى .

— أحد .. أحد ..

— قل كما تقول .

فيقول بلال فى سخرية .

— إن لسانى لا يحسنه .

فرفسه أبو جهل رفسة شديدة وهو يقول :

— أما زلت على غيك يا ابن السوداء .

وتمادوا فى تعذيبه وبلال ينشد نشيده :

— أحد .. أحد . إن يقتلوني فلم أكن لأشرك بالرحمن من

خشية القتل ، فيارب إبراهيم ويونس وموسى وعيسى نجنى
ثم لا تبلى .

ذاق بلال حلاوة الطاعة وتملقت همته بالله وعرف مراقبة
أنفاسه وأحب الله من كل قلبه فصبر على الشدة ، فمن ذاق
شيئا من خالص محبة الله ألهاه ذلك عن سواه . إنه أصبح
يحتقر جلاده ، هانوا في عينيه ، وبات يستشعر عزة تملأ
جوانحه فكان الاضطهاد يشعل نار اليقين في قلبه ويدنيه من
ربه ويجعله يحس وهو مكبل بالقيود أنه أكثر حرية من الذين
يتوسلون إليه أن يذكر آلهتهم بخير ليحفظوا كرامتهم المزعومة
وكبرياءهم الجوفاء .

واشتد البلاء بأصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فرأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فتقصها
على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من
أذى المشركين .

ومرت الأيام وإيذاء قريش للمسلمين يزداد والأمر بالهجرة
لا ينزل من السماء ، فجاءوا إلى رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - وقالوا :

- يا رسول الله متى نهاجز إلى الأرض التي رأيت ؟
فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى :
« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما
جاءهم هذا سحر مبين . أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا
تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا
بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم . قل ما كنت بدعا من الرسل
وما أدري ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا

إلا نذير مبين» (١).

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه :

— إنما هو شيء رأيته في منامي ما أتبع إلا ما يوحى إلي
وضاقت أمة بن خلف وأبو جهل والمشركون بثبات بلال على
دينه على الرغم من كل صنوف العذاب التي أنزلوها به .
وخشوا أن يكون عذابه وثباته فتنة للناس عوضا عن أن يكون
زجرا وترهيبا فأخرجوه إلى الرضاء ووضعوا صخرة عظيمة
على صدره ، فراح بلال ينشد نشيده مستخفا بالعذاب
والأهوال :

— أحد .. أحد ..

— اذكر اللات والعزى ..

— أحد .. أحد ..

— قل كما نقول .. اذكر اللات والعزى بخير .

— أحد .. أحد ..

وراحوا يرفسونه في حلق ويضربونه في غضب قائم وهو
يقول :

— إن يقتلونى فلم أكن لأشرك بالرحمن من خشية القتل ،

فيا رب إبراهيم ويونس وموسى وعيسى نجنى ثم لا تبلى ..

وخرج أبو بكر من عند النبي صلى الله عليه وسلم في

الهجرة وقد تشاور الصحابة في أمر بلال وانطلق إلى ساحة

التعذيب ، وما إن رأى بلالا يئن تحت الصخرة وهو يقول :

أحد .. أحد . حتى أحس كأن كبده تكاد أن تتصدع وهرع إلى أمية وقال له :

— حتى متى تعذب هذا العبد ؟ ألا تتقى الله فيه ؟

— كفى يا بن أبي قحافة ، إنه يعذب بسببك فما أفسده سواك .

وكانما أرادوا أن يتخلصوا من عار صمود بلال على التعذيب وعدم النطق بما يحبون ، فقال أمية :

— أنقذه مما ترى .

كان أمية بن خلف زاهدا في عبده الذي وقف كالطود في وجه سادات قريش يردد نشيده : « أحد .. أحد » مستحقرا كل شيء سوى ربه الذي ثبت فؤاده . وقد مل أمية تعذيب بلال وما كان يرتجف إلا من أن يضطر أن يعلن على الملأ أنه هزم أمام عبده الذي استخف بأهوال العذاب في سبيل عقيدته ، فلما عرض عليه أبو بكر أن يشتري بلالا بخمس أواق ذهباً قال دون تفكير :

— لو أبيت إلا أوقية لبعناكه .

فقال أبو بكر في صدق :

— لو أبيتتم إلا مائة أوقية لأخذته .

ورفعت الصخرة عن صدر بلال وأخذه أبو بكر وانطلقا إلى حيث كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، وفي الطريق التفت بلال إلى أبي بكر وقال :

— إن كنت إنما اشتريتنى لنفسك فأمسكنى ، وإن كنت

إنما اشتريتنى لله فديعنى وعمل الله .
ودخلا على النبى — صلى الله عليه وسلم : فلما رأى بلالا
بأن السرور فى وجهه فالتفت إلى أبى بكر فقال :
— الشركة يا أبأ بكر .
— لقد أطلقت سراحه يا رسول الله .
وراحت قريش تقول :

— إنما أعتق أبو بكر بلالا ليد كانت له عنده فيكافئه بها .
أرادوا بذلك أن يشككوا فى فعل أبى بكر وفى أن عمله لم
يكن خالصا لوجه الله ، ولم يلتفت أبو بكر إلى افتراءات
الكافرين بل استمر يشتري جماعة آخرين من كان يعذب فى
الله ، فاشتري حمامة أم بلال وعامر بن فهيرة وأبا فكيهة
والنهدية وابنتها وكانتا للوليد بن المغيرة وكان يعذبهما عذابا
شديدا .

ورأى أبو قحافة ما يفعل ابنه فهرع إليه يقول :
— يا بنى ! أراك تعتق رقابا ضعافا : فلو أنك إذا فعلت
أعتقت رجالا جلدة يمنعونك ويقومون دونك .
فقال أبو بكر لأبيه الذى لم يشرق اليقين فى قلبه بعد :
— يا أبت إنى إنما أريد ما أريد .
— يا بنى لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك .
— ما منع ظهري أريد .

فأنزل الله تعالى قرآنا يرد به على افتراء الكافرين على
أبى بكر وزعمهم أنه ما أعتق أبو بكر بلالا إلا ليد له عنده .

وليقارن بين فعل أبى بكر وفعل أمية بن خلف : « والليل إذا
 يغشى . والنهار إذا تجلّى . وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم
 لشتى . فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره
 لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى .
 فسنيسره للعسرى . وما يغنى عنه ماله إذا تردى . إن علينا
 للهدى . وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم نارا تلظى .
 لا يصلها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى .
 الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى .
 إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى » (١) .

التذيل

عن عائشة رضى الله تعالى عنها :

« أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله تعالى كرامته ورحمة العباد به : الرؤيا الصالحة ، لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح » .

وإنما ابتدئ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالرؤيا لئلا يفجأه الملك بالرسالة فلا تتحملها القوى البشرية ، فكانت الرؤيا تأنيسا له - صلى الله عليه وسلم - . فأول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل عليهم الوحي فى اليقظة . وقد نزل القرآن كله فى اليقظة تأكيدا لما يقال أو يراى . وقال بعض الرواة إن بعض السور نزلت والرسول - صلى الله عليه وسلم - نائم ، وقد استندوا فى ذلك إلى ما رواه مسلم فى صحيحه عن أنس قال : بينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين أظهرنا إذ غفا إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما ، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : أنزل على آتفا سورة . فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر » ^(١) . والحقيقة أن الحالة التى اعترته عند نزول الكوثر لم تكن إغفاءة نوم ، بل الحالة التى كانت تعتريه - صلى الله عليه وسلم - عند الوحي ، فقد كان يؤخذ عن الدنيا .

كأنت الرؤيا الصادقة ستة أشهر قبل نزول الوحي ، وقد

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعكة حين بعث ثلاث عشرة سنة ، وبالمدينة عشر سنين يوحى إليه ، فبعدة الوحي إليه في اليقظة ثلاث وعشرون سنة . وقد قيل : حصل ابتداء الرؤيا في شهر ربيع الأول وهو مولده — عليه السلام — ثم أوحى إليه في اليقظة في رمضان في أثناء تحنثه في غار حراء .

وقيل إنه — صلى الله عليه وسلم — مكث خمس عشرة سنة يسمع الصوت أحيانا ولا يرى شخصا ، وسبع سنين يرى نورا ولم ير شيئا غير ذلك ، وأن المدة التي بشر فيها بالنبوة كانت ستة أشهر من تلك المدة التي هي اثنتان وعشرون سنة : وعلى الرغم من ذلك الإعداد الطويل فإنه فر في الأرض مرعوبا لما خاطبه الملك ، لأن رؤيا ملك من الملائكة وسباع صوت من غير أصوات البشر شيء فوق طاقة الإنسان . وقد كان صادقا لما قال لخديجة : لقد أشفقت على نفسى .

وقيل : إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خرج في شهر رمضان الذي أراد الله تعالى به ما أراد من كرامته — عليه السلام — إلى حراء ، كما كان يخرج لجواره ومعه أهله . ولكنى لم آخذ بهذا الرأي لأنه لو كان قد خرج ومعه خديجة — رضى الله تعالى عنها — لنزع إليها لما فاجأه الملك ، ولما فر هاربا إلى وسط الجبل . ولو كان معه فاطمة وعلى بن أبى طالب وزيد بن خارثة وأم أيمن للاذ بهم من خوفه ولورد ذلك في أحاديثهم ، وإنه لشرف عظيم يروى أن يكون أحدهم في صحبة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ليلة أن أنزل عليه الوحي .

وقيل إن ابتداء الوحي كان في شهر رمضان : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » ^(١) ولكن بعض المفسرين قال بأن المراد بنزول القرآن في رمضان نزوله جيلة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة في سماء الدنيا .

وقال بعض المفسرين والإخباريين إن ابتداء الوحي كان في السابع عشر من رمضان : مستشهدين بقول الله تعالى : « إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » ^(٢) . وكان التقاء الجمع : المسلمين والمشركين في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة . وقال آخرون إن ابتداء نزول القرآن كان في سحر ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان ، مؤيدين قولهم بأن « هي » التي جاءت في سورة القدر : « إنا أنزلناه في ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر . سلام هي حتى مطلع الفجر » ^(٣) . هي الكلمة السابعة والعشرون من السورة ، وقد جاء ذلك لتأكيد أن ليلة القدر كانت في السابع والعشرين من رمضان !

وقد جزم الإمام أبي حنيفة بأن أول نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان في سحر ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان .

وقد اتفق الرواة في معنى الحوار الذي دار بين محمد صلى الله عليه وسلم — وجبريل الأمين وإن اختلفوا في اللفظ . وقد

وجد المستشرقون في بعض الروايات وهي رواية ابن إسحاق في السيرة النبوية لابن هشام بالتحديد . ما يحاولون أن ينكروا به عدم معرفة الرسول ﷺ صلى الله عليه وسلم — بالقراءة والكتابة ، ولا أقول أمية الرسول ، فقد سبق في الأجزاء السابقة أن وضحت أن صفة الأمية التي جاءت في القرآن إنما يقصد بها النسبة إلى الأمم ، أى من لم يكونوا من بنى إسرائيل : « هو الذى بعث في الأميين رسولا ^(١) » أى في الأمم ، « النبي الأمي ^(٢) » أى النبي الذى جاء من غير بنى إسرائيل ، أما عدم معرفة الرسول القراءة والكتابة فقد وضحها القرآن الكريم بقوله « وما كنت تخطه يمينك ^(٣) » .

جاء في البخارى عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبّد لليلالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق ^(٤) وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . قال : فأخذني فغطني ^(٥) حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارىء . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت :

(١) الجبسة ٢ (٢) الأعراف ١٥٨ (٣) النعكبوت ٤٨

(٤) أى الأمر الحق . (٥) أى غطني ومغمري .

أما رواية ابن اسحاق فتقول : ... حتى إذا كان الشهر للذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته في السنة التي بعث الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجوارحه ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالة ورحم العباد منها ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءني جبريل وأنا قائم . بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أقرأ . قال : ففتنى ^(١) به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أقرأ . قال : ففتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أقرأ . قال : ففتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ . قال : قلت : ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا اقتداء منه أن يعصود لى بمثل ما صنع بى ، فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » قال : فقرأتها ثم انتهيت فانصرف عني وهيب من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتابا .

٥ (٢) ألفت : حبس النفس -

(۱) الملق ۱ : ۲

جاء في رواية البخارى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال لجبريل : ما أنا بقارىء . أما في رواية ابن اسحاق ، فقد قال - صلى الله عليه وسلم - في المرة الأولى والثانية « ما أقرأ » . وفي الثالثة « ماذا أقرأ ؟ » ولو أن ما أقرأ وما أنا بقارىء تعنيان معنى واحدا « فما » في الجملة الأولى ك « ما » في الجملة الثانية أداة تقي لا استفهام ، إلا أن بعض المستشرقين رأوا أنها « ما » استفهامية ، وأن رواية ابن اسحاق وقد جاء فيها أن في المرة الثالثة قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : ماذا أقرأ ؟ ، تؤكد معنى الاستفهام ، وأغفلوا تدارك ابن إسحق ذلك بقوله على لسان محمد - صلى الله عليه وسلم - : ما أقول ذلك إلا افتداء منه لأن يعود لى بشئ ما صنع بى .

وقال المستشرقون لو أن جبريل كان يعلم أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - لا يعرف القراءة لما جاءه بنمط من ديباج فيه كتاب ولا قال له : اقرأ . ولما كانت رواية ابن اسحاق تؤكد أن أول ما جاء الوحي إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - كان وهو نائم . فقد قال بعض المفسرين إن الإنسان في نومه يستطيع أن يفعل أشياء لا يقوم عليها في اليقظة ، وأن القراءة في النوم محتملة لمن لا يعرف القراءة ، ولكنى لا آخذ بهذا الرأي وسأوضح أن الحوار الذى كان بين جبريل وبين محمد - صلى الله عليه وسلم - كان في اليقظة وأن رواية ابن اسحاق محض خيال . لم يأت لنمط الديباج ذكر في حديث عائشة ، ولم تقل عائشة إن الوحي نزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو

نائم . ثم إن رواية ابن اسحاق لا يعول عليها لأنه يرويهما عن وهب بن كيسان عن عبيد بن عمير وهو من التابعين ، وليس في الحديث صحابي واحد ممن صاحب الرسول - صلى الله عليه وسلم ، وعلى ذلك فالحديث مرسل ليس في مرتبة الصحيح ولا يحتاج به .

ومما يؤكد أن حديث النمط والديباج والكتاب المكتوب مجرد خيال فإنه لم يثبت أن الوحي نزل يوما على محمد - صلى الله عليه وسلم بقرآن مكتوب - «ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين» (١) . ولم يفهم محمد - صلى الله عليه وسلم - أن جبريل يريد منه أن يقرأ من صحيفة ولكنه فهم أنه يريد منه أن يتلو شيئا : وما كان محمد - عليه السلام - بقادر أن يتلو من الكتب السابقة على القرآن فإنه كان يتلقى الحكمة من ربه مباشرة بتجلية قلبه وترصد ما يهبط عليه من خزائن الملكوت ، وعلى ذلك ترجح رواية عائشة التي يقول فيها الرسول - صلى الله عليه وسلم - «ما أنا بقارئ» . على رواية « ماذا أقرأ » التي أثبتها ابن اسحاق في السيرة .

والقراءة في القرآن وفي الحديث استعملت بمعنى التلاوة ، وإن دعوة أيننا إبراهيم وإسماعيل إذ يرفعان القواعد من البيت وما في سورة الإسراء يوضح هذا المعنى : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .. » (٢) . وفي سورة الإسراء : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث » (٣) . فتارة يستعمل القرآن الكريم

(٣) الإسراء آية ١٠٦

(٢) آل عمران ١٦٦

(١) الانعام ٧

التلاوة وتارة يستعمل القراءة ويقصد في الحالتين التلاوة ولا شك .

واختلف المفسرون والإخباريون فيما إذا كانت النبوة والرسالة مقترنين أم أن النبوة قد بدأت بنزول « اقرأ باسم ربك الذي خلق » . ثم كانت فترة الوحي مدة تتراوح بين ثلاث سنين وستين ونزول « يأيها المدثر » . فكانت الرسالة بناء على أن الرسالة كانت بيأيها المدثر .

صرح بعضهم بأن الله سبحانه وتعالى نبأه بقوله : اقرأ باسم ربك . وأرسله بقوله : يأيها المدثر ، قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . وأن بينهما فترة الوحي ، وعليه أكثر الروايات . ولو أن بعضهم أكد أن أكثر الروايات على ذلك فلم آخذ بهذا الرأي ، بل أخذت بالرأى القائل بأن جبريل قال له صراحة : أنا جبريل وأنت محمد رسول الله . وإلا لما دعا خديجة وبناته إلى الإسلام ، ولما دعا على بن أبي طالب وزيد بن حارثة وأبا بكر وأوائل الصحابة قبل أن يؤمر بذلك .

كانت الدعوة سرا منذ قال له جبريل إنه رسول الله ، وقد أمره الله سبحانه وتعالى بالجهر بالدعوة لما نزلت : « واصدع بما تؤمر » (١) .

واختلف المفسرون في أول ما نزل من القرآن ، فقد رأى بعضهم أن البسملة أول ما نزل ، ويؤيدون ذلك بما كان بين محمد - صلى الله عليه وسلم - وبين خديجة يوم أن كان في الغار وسمع صوتا يناديه فانطلق إليها مرعوبا يقول : إني إذا

خلوت سمعت نداء ! فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا .
فقلت له خديجة : معاذ الله ! ما كان الله ليفعل بك . فوالله إنك
لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث . فعاد إلى القار
وثبت بعد نصيحة ورقة له ، فلما ناداه الملك : يا محمد : قل بسم
الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ... حتى بلغ ولا
الضالين » .

قال بهذا القول البيهقي والواحدى والحديث الذى اعتما
عليه مرسل ، بينا حديث صحيح البخارى يؤكد أن أول ما نزل
على الرسول - صلى الله عليه وسلم - من القرآن هو مطالع
العلق ، ومطالع المدثر . ومما يثبت تأخر نزول فاتحة الكتاب أن
بعض المفسرين قالوا إنها مدنية . أى أنها تأخرت إلى ما بعد
الهجرة . وقال بعضهم إنها مكية ، وأراد بعضهم الآخر أن يوفق
بين الرأيين فقال إنها نزلت مرتين مرة في مكة ومرة في المدينة !
وعند الأكثرين هى مكية من أوائل ما نزل من القرآن وليست
أول ما نزل منه . فهى أنسب للعبادة وصيغة المتكلم الجع فيها
تفيد أنها نزلت في وقت كان الإسلام فيه قد عرف طريقه إلى
قلوب جماعة تقول : نعبد ونستعين واهدنا بصيغة الجع .
وقيل إن أول ما نزل من القرآن سورة « المدثر » استنادا
إلى ما قاله جابر بن عبد الله الأنصارى لما سأله سلسة بن
عبد الرحمن : أى القرآن أنزل قبل ؟ قال : بأبيها المدثر . قال
سلسة : أو اقرأ باسم ربك ؟ قال جابر : أحدثكم ما حدثنا
رسول الله - صلى الله عليه وسلم . قال رسول الله - صلى الله
عليه وآله وسلم : دعوة إبراهيم

عليه وسلم : « إني جاورت بحراء شهرا ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستنبت بطن الوادى ، فنوديت فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى ثم نظرت فى السماء فإذا هو على الفرس فى الهواء — يعنى جبريل — فأخذتنى رجفة فأتيت خديجة فامرتهم فدثرونى ثم صبوا على الماء ، فأنزل الله على : « يَايها المدثر . قم فأنذر . » .

وهذا ليس بمخالف للقول بأن « اقرأ » أول ما نزل من القرآن ؛ وذلك أن جابرا سمع من النبى صلى الله عليه وسلم القصة الأخيرة ولم يسمع أولها ، فتوهم أن سورة المدثر أول ما نزل وليس كذلك ، ولكنها أول ما نزل عليه بعد سورة اقرأ . والذى يدل على ذلك حديث الزهرى عن جابر قال : سمعت النبى — صلى الله عليه وسلم — وهو يحدث عن فترة الوحي فقال فى حديثه : « فيينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء : فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى فى حراء جالسا على كرسى بين السماء والأرض ، فجثت منه رعبا ، فرجعت فقلت : زملونى .. زملونى ، فدثرونى فأنزل الله ياأيها المدثر » .

ومن هذا الحديث يتضح أن الوحي كان قد فتر بعد نزول « اقرأ باسم ربك » . ثم نزل « ياأيها المدثر » ، والذى يوضح ما قلنا إخبار النبى — صلى الله عليه وسلم — أن الملك الذى جاء بحراء جالس فدل على أن هذه القصة إنما كانت بعد نزول اقرأ .

وعلى ذلك تكون مطالع العلق أول ما نزل من القرآن فى

غار حراء . وتكون المذثر أول ما نزل في دار خديجة بعد الآيات
الخنس الأولى من سورة العلق . أما الفاتحة فقد تأخر نزولها
حتى ذاع الإسلام بين جماعة المسلمين الأوائل ليسألوا الله أن
يهديهم الصراط المستقيم في صلواتهم .

على أى صورة كان الوحي يأتي الرسول صلى الله عليه
وسلم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إن جبريل يأتيني فيكلمني
كما يأتي أحدكم صاحبه فيكلمه ويصره من غير حجاب . وفي
رواية : كنت أراه أحيانا كما يرى الرجل صاحبه من وراء
الغريال .

وقال صلى الله عليه وسلم : إن روح القدس نفث في روعي
أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها ورزقها . فاتقوا الله
وأجملوا في الطلب .

وسأل الحارث بن هشام - أخو أبي جهل - الرسول عليه
السلام : كيف يأتيك الوحي ؟ قال : أحيانا يأتيني مثل
صلصلة الجرس وهو أشد على فيفصم عني وقد وعيت ما قال .
وفي رواية : يأتيني أحيانا له صلصلة كصلصلة الجرس وأحيانا
يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعني ما يقول .

وكان - صلى الله عليه وسلم - يجد ثقلا عند نزول الوحي
ويتحور جبينه عرقا في البرد كأنه الجمان ، وربما غط كغطيط
البكر محمرة عيناه .

وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه : كان إذا نزل الوحي
على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثقل ذلك : ومرة وقع

فأخذه على فخذي فوالله ما وجدت شيئا أثقل من فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وربما أوحى إليه وهو على راحلته فترعد حتى يظن أن دراعها ينقص . وربما بركت . وجاءه أنه لما نزلت سورة المائدة عليه — صلى الله عليه وسلم — كان على ناقته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها .

وجاء على لسان محمد — عليه السلام — ما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسي تقبض مني . وعن أسماء بنت عميس : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا نزل عليه الوحي يكاد يغشى عليه . وذكر بعض العلماء أنه — صلى الله عليه وسلم — كان يؤخذ عن الدنيا .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا نزل عليه الوحي لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى ينتهي الوحي .

وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه : كان إذا نزل على رسول الله السور الشديدة أخذه من الشدة والكرب على قدر شدة السور ، وإذا أنزل عليه السور اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها .

وعن عمر رضي الله عنه : كان إذا نزل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم الوحي — يسمع عند وجهه كدوى النحل . وعن عائشة وابن مسعود رضي الله تعالى عنهما : أن النبي — صلى الله عليه وسلم — لم ينز جبريل على صورته التي خلقه الله

— ٢٩٣ —

عليها إلا مرتين : حين سأله أن يريه نفسه فقال : وددت أنى رأيتك في صورتك ، والأخرى ليلة الإسراء .

وعلى ذلك يكون الوحي بأن يرى النبي عليه الصلاة والسلام جبريل في صورة آدمي ، وقد جاءه في صورة دحية الكلبي وغيره ، أو بالنفث في الروح ، أو يأتيه أحيانا بصوت له صلصلة الجرس ، أو يراه على هيئة التي خلقه الله عليها . وما كان الله يكلم أنبياءه إلا وحيا أو من وراء حجاب : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » (١) .

وقد وجدت الرغبة في العلم بالغيب واستطلاع المجهول منذ أقدم العصور . وقد شاعت الكهانة في العرب وهى ادعاء علم الغيب بالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب . والأصل فيها استراق الجنى السمع من كلام الملائكة فيلقيه في أذن الكاهن ، والكاهن لفظ يطلق على العراف والذي يضرب بالحصى والمنجم .

والعرب تسمى كل من أذن بشيء قبل وقوعه كاهنا . وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية فيهم لانقطاع النبوة فيهم . وعرف العرب العرافة وصاحبها عراف . وهو الذى يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعى معرفتها بها : كالزجر والطرق بالحصى . وقد جاء في الحديث الشريف : « من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول . فقد كفر بما أنزل على محمد » .

وقد أطلال ابن خلدون في مقدمته عندما تكلم عن الكهانة

(١) التوبة ١٠١

فقال : وأما الكهانة فهي أيضا من خواص النفس الإنسانية ، وذلك أن للنفس البشرية استعدادا للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها ، وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشر في صنف الأنبياء بما فطروا عليه من ذلك ، وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشيء من المدارك ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاما أو حركة ، ولا بأمر من الأمور ، إنما هو انسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة في لحظة أقرب من لمح البصر . وإذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجودا في الطبيعة البشرية فيغنى التقسيم العقلي أن هناك صنفا آخر من البشر ناقصا عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل ، لأن عدم الاستعانة في ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه وشتان ما بينهما ! فإذا أعطى تقسيم الوجود أن هناك صنفا آخر من البشر مفطورا على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عندما يعيها النزوع لذلك وهي ناقصة عنه بالجيلة ، فيكون لها بالجيلة عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة : كالأجسام الشفاقة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنج من طير أو حيوان . فيستديم ذلك الإحساس أو التخيل مستعينا به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده ويكون كالمشيع له . وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الإدراك هي الكهانة ، ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها في الجزئيات أكثر من الكلّيات ، ولذلك تكون المخيلة فيهم في

غاية القوة لأنها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذا تاما في نوم أو يقظة ، وتكون عندها حاضرة عديدة تحضرها بالمخيلة ، وتكون لها كالمرأة تنظر فيها دائما ، ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات لأن وحيه من وحي الشيطان . وارتفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذى فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ، ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص فيهبس في قلبه في تلك الحركة . والذى يشيعها من ذلك الأجنبى ما يقذفه عن لسانه . فربما صدق ووافق وربما كذب لأنه يتم نقصه بأمر أجنبى عن ذاته المدركة ، ومباين لها غير ملائم ؛ فيعرض له الصدق والكذب جميعا ولا يكون موثوقا به .

وربما يفرع إلى الظنون والتخمينات جرحا على الظفر بالإدراك بزعمه وتمويها على السائلين . وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لأنه أرفع سائر أصنافهم . وقد قال النبى - صلى الله عليه وسلم - فى مثله : هذا من سجع الكهان . فجعل السجع مختصا بهم بسقضى الإضافة . وقد قال لابن صياد (١) حين سأله كاشفا عن حاله بالاختبار : كيف يأتىك هذا الأمر ؟ قال ابن صياد : يأتينى صادق وكاذب . فقال : خلط عليك الأمر . يعنى أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعترها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات النبى بالملأ الأعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبى .

(١) رجل من اليهود عده شىء من الكهانة والحر .

والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه إلى الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلة في إدراكه والتبست بالإدراك الذى توجه إليه فصارت مختلطا بها ، وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة ، وإنما قلنا أن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لأن معنى السجع أخف من سائر المغيبات من المرئيات والمسموعات ، وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والإدراك والبعد فيه عن العجز بعض الشيء .

وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدى البعثة ، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع فى القرآن ، والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ، ولا يقوم من ذلك دليل لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضا كما قررنا ، وأيضا فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا ما سوى ذلك ، وأيضا فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدى النبوة فقط . ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه وهذا هو الظاهر ، لأن هذه المدارك كلها تخمد فى زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرر عند وجود الشمس ، لأن النبوة هى النور الأعظم الذى يخفى معه كل نور ويذهب . وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدى النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت لأن وجود النبوة لا بد له من وضع فلكى يقتضيه ، وفى تمام ذلك

الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها . وتقض ذلك الوضع عن التسام يقتضى وجود طبيعه من ذلك النوع الذى يقتضيه ناقصة . وهو معنى الكاهن على ما قررناه . فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضى وجود الكاهن إما واحدا أو متعددا . فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبی بكماله وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شيء بعد . وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكى يقتضى بعض أثره وهو غير مسلم . فلعل الوضع إنما يقتضى ذلك الأثر بهيئته الخاصة ، ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضى شيئا لا أنه يقتضى ذلك الأثر ناقصا كما قالوه .

ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاشروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق النبی ودلالة معجزته لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة . ولا يصددهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب إلا قوة المطامع في أنها نبوة لهم فيقعون في العناد كما وقع لأمية بن أبى الصلت فإنه كان يطمع أن يكون نبيا . وكذا وقع لابن الصياد ولمسيلة وغيرهم . فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الأمانى آمنوا أحسن إيمان كما وجب لطليحة الأسدي^(١) وسواد ابن قارب وكان لهما من الفتوحات الإسلامية ما شهد بحسن الإيمان .

(١) هو طليحة بن غويلد بن نوفل بن فضلة الأسدي ، كان بعد بالف فارس

ثم نبأ ثم أسلم وحسن إسلامه .

وقال الأصفهاني في كتاب الذريعة : « الكهانة مختصة بالأُمور المستقبلية ، والعرافة بالأُمور الماضية » . وعرفها بعضهم بقوله : « العرافة الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية بالمناسبة أو المشابهة الخفية التي تكون بينهما ، أو الاختلاط أو الارتباط على أن يكونا معلولي أمر واحد ، أو أن يكون ما في الحال علة لما في الاستقبال ، وشرط كون الارتباط المذكور خفيا لا يطلع عليه إلا الأفراد ، وذلك إما بالتجارب أو بالحالة المودعة في أنفسهم عند الفطرة » .

وأما الزجر فهو الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام ما غاب عنهم . وقال ابن خلدون : وأما الزجر فهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان والفكر فيه بعد مغيبه . وهي قوة في النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئى أو مسموع . وتكون قوته المخيلة قوية فيبعثها في البحث مستعينا بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما كما تفعله القوة المتخيلة في النوم ، وعند ركود الحواس تتوسط بين المحسوس والمرئى في يقظة فتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا .

قال الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « مطلع النور أو طوابع البعثة المحمدية » : من قديم الزمن وجدت الرغبة في العلم بالغيب واستطلاع المجهول ، ووجدت لذلك علامات كثيرة يتفق عليها الناس عامة من قبيل زجر الطير والتقاؤل

بالكلام المسوع والمناظر التى تبشر بالخير والنجاح ، أو تنذر بالشر والخيبة .

هذه العلامات العامة كانت معرفة شائعة بين الناس لا يختص بها أحدهم دون غيره ، فكل ما عرفه الناس قديما من علامات التفاؤل أو علامات التشاؤم فهو ميراث الجماعة يتناقلونه على وتيرة واحدة من الآباء إلى الأبناء .

لكن الرغبة فى استطلاع الغيب ومواجهة المجهول لم تكن كلها من هذا القبيل . ولا سيما المجهول الذى يعرفه الآلهة وحدهم ولا يكشفونه لغير المقرين من عبادهم . وهم خدام معابدهم والأمناء على مشيتهم والمترقبون لوحيمهم فى ليالهم ونهارهم . فربما عرض للقبيلة عارض جسيم لا تعرف وجهتها فيه ولا يدلها على هذه الوجهة طير يراه فرد من أفرادها على صورة من الصور أو كلمة يسمعها من غابر طريق يستوحى منها البشارة أو الإنذار ، فإن شئون الفرد غير شئون القبيلة ، وليس لفرد من عامة أفرادها أن يدعى لنفسه القدرة على سؤال أربابها والفهم عنهم فى معابدهم ومحاريبهم مع وجود الكاهن الذى انقطع لخدمة الأرباب وورث هذه الخدمة من آباءه وأجداده فى أكثر الأحوال ، ولا مع وجود الكاهن الذى تربى من صباه فى مهد العبادة ليقرب من الأرباب المعبودين ويفقه عنهم من إشاراتهم ومضامين وحيمهم ما يخفى على سواه .

ومن قديم الزمن أيضا وجد الكاهن « المختص » ووجد « الرائي » الملهم الذى يختاره الإله للنطق بلسانه والجهر

بوعده ووعيده ، ولم يكن بين عمل الكاهن وعمل الرائي تناقض في مبدأ الأمر لأن كلام الرائي كان يحتاج إلى تفسير الكاهن وحل رموزه وتفى « النفاية » من خلطه واضطرابه . إذ كان الغالب على الرائيين أنهم قوم تملكهم حالة « الوجد » أو « الجذبة » أو « الصرع » فيتدققون بالوعد والوعيد وينذرون الناس بالويل والثبور ويقولون كلاما لا يذكرونه وهم مفيقون ، فيحسب السامعون أن الوثن المعبود يجرى هذا الكلام على ألسنتهم للموعظة والتبصرة ، وسمى الصرع من أجل هذا بالمرض الإلهي في الطب القديم .

وكان اليونان يسمون الرائي ماتى Manotos ، ويسمون المعبر عنه أو المفسر لكلامه Prophet أى المتكلم بالنبأية عن غيره قبل أن تطلق هذه الكلمة على النبی بمعناها المأثور في الأديان الكتابية ، ولكن الفرق بين الرائي والكاهن لم يزل ملحوظا في الأزمنة المتأخرة كما كان ملحوظا في الأزمنة الغابرة ، فالكهانة وظيفة والرؤية طبيعة . والكاهن يقصد ما يقوله والرائي يساق إليه ، وقد تشترك الكهانة والرؤية في شخص واحد ويظل العمالان مختلفين ، فما يقوله الكاهن قصدا غير ما يقوله وهو « راء » ينطق لسانه بما يعيه وما لا يعيه .

ويصطدم العمالان كثيرا بعد ارتقاء الديانة وامتزاجها بالفضائل الأخلاقية والفرائض الأدبية ، فإن الكهان في هذه الحالة يجبدون أحيانا على المراسم والشعائر ويحافظون على مناصبهم بالتماس الحظوة عند ذوى السلطان في بلادهم .

ويومئذ يختلف عمل الكاهن المرسوم وعمل الرائي المتطوع ،
فيثور الرائي على الكاهن ويتهمه في أمانته وإيمانه ويحدث
بينهما ما حدث بين « أمصيا » كاهن بيت إيل و « عاموس »
الرائي « أيها الرائي اذهب .. اهرب إلى أرض يهود وكل هناك
خبزا وكن هناك نبيا ، وأما بيت إيل فلا تعد تتنبأ فيها بعد ،
لأنها مقدس الملك وبيت الملك » .

وقد وجدت الكهانة والرؤية بين العبرانيين من أقدم
عصورهم كما وجدت في سائر الأمم ، ولم يسموا الرائي عندهم
باسم النبي إلا بعد اتصالهم بالعرب في شمال الجزيرة .. إذ
وجدت كلمة النبوة في اللغة العربية غير مستعارة من معنى آخر ،
لأن اللغة العربية غنية جدا بكلمات العرافة والعيافة والكهانة
وما إليها من الكلمات التي لا تلتبس في اللسان العربي بمعنى
النبوة كما تلتبس في الألسنة الأخرى .

والعبريون قد استعاروها من العرب في شمال الجزيرة بعد
اتصالهم بها . لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء ،
وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائي والناظر .
ولم يفهموا من كلمة النبوة في مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار ..
وقد أشارت التوراة إلى ثلاثة أنبياء من العرب غير ملكي صادق
الذي لقيه الخليل عند بيت المقدس ... وهم : يشرون (شمعيا)
وبلعام وأيوب .. ويعزز هذا الرأي ما جاء في مؤسوعة الكلمات

اللاهوتية A Theological Word Book of The Bible, edited

by Richardson في التوراة عن عالمين من أكبر علماء التاريخ

العبرى وهما هولشر وشيدت ، فإنهما يرجحان أن كلمة النبوة مما استفاده العبريون من أهل كنعان بعد وفودهم على فلسطين . ويقول الأستاذ العقاد فى كتابه : « عرف الأقدمون من العرب والعبريين كلمة النبوة قبل مبعث موسى عليه السلام ، ولكنها لم ترتفع بينهم إلى مكاتبتها الجليلة التى نعهدا اليوم دفعة واحدة ، وغبر عليهم دهر طويل وهم يخلطون بينها وبين كل علاقة بالغيب ويتتظرون منها الكذب كما ينتظرون منها الصدق شأنها فى ذلك كشأن غيرها من الدلالات على المجهول ، فخلطوا بينها وبين الجنون كما خلطوا بينها وبين السحر والكهانة والتنجيم والشعر . وأضعف من شأن النبوة عند بنى إسرائيل خاصة أن الأنبياء بينهم كثروا وتعددت نبوءاتهم فى وقت واحد ، فتناقضوا وأشار بعضهم بما ينهى عنه الآخرون فأصبح الأنبياء عندهم فريقين يتشابهون فى المسلك والمظهر ويختلفون بالصدق والكذب ، ولا سبيل إلى معرفة الصادق والكاذب بغير امتحان الحوادث التى تأتى أحيانا بعد نسيان ما تقدم من النبوءات .

وغلبت عليهم عقيدة شائعة بذهول النبى وغيبابه عن الوعى فى جميع أيامه وفى الأيام التى يملكه فيها الوجد الإلهى على الخصوص ، كأنهم يرون أن الغيبوبة والاتصال بالغيب شيء واحد ، وكأنهم يحسبون أن الانقطاع عن شواغل الدنيا آية على صدق النبى وإقباله بجملته على الله .

ولعل الكتاب الغربيين الذين تناولوا حياة نبى الإسلام

كانوا متأثرين بصورة النبوة في التوراة وبوصف الأنبياء الذي جاء في سفر صمويل : « إنه يكون عند مجيئك إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من الأكمة وأمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون ، فيحل عليك روح الرب فتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر » . فحسبوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم مثل أنبياء بنى إسرائيل المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج . فاتهموه بالكذب والخداع . وراحوا يؤكدون أن الوحي الذى ينزل عليه إن هو إلا مرض من الأمراض وصفه أغلبهم بأنه الصرع وقال آخرون إنه الملاريا . كأنما الصرع والملاريا أو نحوهما من الأمراض ترفع من شأن الإنسان حتى يصير نبيا أو مشرعا ذا سلطان .

وقد انبرى ر.ف. بودلى في كتابه (الرسول . حياة محمد) (١) لدحض افتراءات الغربيين على رسول رب العالمين - صلى الله عليه وسلم ، فقال في تقديم الكتاب عند الحديث عن سير الرسول التى كتبها الغربيون والشرقيون على السواء : « جميع هذه السير ينقصها شيء » . إنها غير كاملة وقد أخفقت في عرض موضوعها من كل الزوايا . فإن محمدا يظهر عادة كصورة محددة على جائط أبيض ، قد تكون الصورة روحية أو مادية أو مخيبة للآمال . وأيا كانت الصورة فإنها منغزلة ، فمن النادر أن نجد الظلال والبيئة ، وإن الصورة لتبدو

(١) ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار .

صوره باهتة ألصقت على ورق مقوى ملطخ ، وما كان محمد سهلا منبسطا فقد كانت له أبعاد كثيرة ، وما كان هناك شيء لا لون له في حياته .

قرأت ما كتبه مؤلف عن محمد فكان من الجلي أنه لم يغادر نيو إنجلند أبدا حيث كان يعمل راعي كنيسة ، كانت آسيا وإفريقية أبعد عنه من الجنة والنار ، وبرغم ذلك سود ثلاثمائة صفحة استعرض خلالها حياة الرسول استعراضا وثيقا . كان أسلوبه مشرقا وكان يعرف الكتب المقدسة معرفة رائعة ويلم باللغة العربية إماما سطحيا ولكنه كشف عن جهل فاضح ، فما كان يدري كيف كان محمد يعيش ولا ما جاء به .

وما كان يدعو محمدا في كتابه إلا باسم « الدجال » دون أن يوضح لنا كيف أن الدجال المزعوم قد دفع أتباعه المباشرين لفتح مساحة من الدنيا تبلغ رقعتها ثلاثة أمثال الولايات المتحدة ، وكيف أتاح للبشرية حضارة ما زالت حتى اليوم قائمة .

وإن جورج سيل الذي ترجم القرآن ترجمة طيبة في أوائل القرن الثامن عشر ، والذي كان من الواجب أن يعرف محمدا معرفة أفضل ، صدر ترجمته بالآتي :

أخبرنا المؤرخون أن المدن الشهيرة المميّزة على جميع المدن الأخرى في التجارة والآداب تنازعت فيما بينها أيها كان لها شرف أن تكون مسقط رأس هوميروس .. وإن مثل هذا النزاع ليستحق الثناء لأنه يدل على رقى فكر رجال ذلك

العصر . ولكن لما فحصت عن شخصية محمد فحسا دقيقا ألفيت الصورة فظيعة معيبة حتى إنه لمن الغريب أن مكان منبته لم تسدل عليه سدول النسيان ، إن أى قطر ليخجل من إنجاب مثل هذا المجرم ، ومع ذلك فقد كان توقيير العرب لهذا المخاثل الكبير عميقا حتى إنهم لم يدعوا المكان الذى تنفس فيه أول ما تنفس يكتنفه رية أو غموض .

واستمر هكذا ، وإن التعليق الوحيد على ذلك هو أن تستعير الألفاظ من صفحات قصة محمد التى كتبها راعى كنيسة نيو إنجلند الذى ذكرناه آنفا :

« كيف استطاع مثل هذا المجرم ، مثل هذا المخاثل الكبير أن تأخذ فى الزوال كما حدث لكثير من ديانات العالم فإنها اليوم أقوى مما كانت ، ويزداد معتقوها يوما بعد يوم ؟! » .
 لم يبدأ سوء فهم المسيحيين للإسلام حتى أواخر أيام الرسول ، بل بدأ فى صورة جدية فى الحروب الصليبية الأولى : وازداد سوء الفهم منذ ذلك الحين حتى إن لفظة « محمد » أصبحت بمعنى الكفر بالله . وتطورت لفظة « المحمدية » فى أذهان معاصرى شكسبير حتى أصبحت بمعنى أية ديانة مزيفة وعلى الأخص الديانة التى تعبد الأصنام ، وأصبحت لفظة « محمد Mamets » تستعمل بمعنى أصنام ، واشتقت كلمة Mahomerie ثم كلمة Mummetry بمعنى مجوف من نفس المصدر .

(دعوة ابراهيم)

وظهر محمد في شهر القرن الثاني عشر كأثير من أمراء الإقطاع يتلقى الأوامر المسيحية المقدسة ، وأنه خلق ليكون كردنالا ، فلما أخفق في أن ينصب نفسه بابا ثار لنفسه بأن ابتدع دينا جديدا .

وكانوا يعتقدون حتى زمن قريب أن نعش محمد معلق بين السماء والأرض ، وقال المؤرخون دون خجل إن قبر محمد في مكة ، وقال آخرون إنه مات من السكر وإن الخنازير أكلت جسده ، في حين أن محمدا حرم لحم الخنزير وحرم الخمر على نفسه وعلى أتباعه . قد رقدت الأخيرة في المدينة مذ ثلاثة عشر قرنا مضت .

وقد يصادف المرء أحيانا كتابا من طراز جون سلون الذي أجهد نفسه في دراسة دين العرب . فقد قال ذلك الكاتب الذي عاش في القرن السابع عشر : « إنهم يطلقون على الأوثان لفظة محمد Mammetts وعلى عبادة الأوثان « المحمدية Mammetry فصار محمد والمحمدية أسماء بغيضة ، في حين أن العالم أجمع يعرف أن الترك (يقصد المسلمين) يحرمون الأوثان في دياتهم » .

كنت أحسب أن الافتراءات على محمد - صلى الله عليه وسلم - قد خفت بعض الشيء بعد أن كتب بعض الكتاب الغربيين السيرة النبوية في تفهم وإنصاف ، وكنت أحسب أن الألفاظ النابية والصفات الذميمة للرجال العظام لم تعد تستعمل في

عصر العلم واحترام آراء الأغيار ، ولكنى عندما كنت أقرأ فى كتاب الصرع للدكتور لينوكس الأمريكى :

Epilepsy By Wiliam G. Lonnox.

صدمتنى عبارات نائية ما كنت أتوقع أن تصدر عن طبيب المفروض فيه أنه يبحث عن الحقيقة للحقيقة فى القرن العشرين . لقد كان الدكتور لينكس أشد ضراوة فى عداوته لنبى الإسلام من راعى كنيسة نيو إنجلند الذى سخر منه بودلى ، بل وأبداً منه عبارة ، ففى الجزء الثانى من كتابه الفصل ٣١ تحت عنوان « صرع ذوى القدرة والشهرة » راح يربط بين الصرع ومشاهير الرجال ويقرر فى إعجاب أن أرسطو كان أول من اهتدى إلى العلاقة بين الصرع والنبوغ ، وأنه قد وضع قائمة بأساء النوايع الذين كانوا مصابين بالصرع ، وقال الطبيب المؤلف بالحرف الواحد ... وإلى هذه القائمة أضيف قيصر

وكاليجولا ومحمد البغيض The detestable Mahomets
وكاننا أراد أن يؤكد ما وقر فى أذهان شائى محمد من صلته بالأوثان فلم يكتب اسمه محمداً Mohamed كما فعل فيما بعد ، بل كتبه Mahomets لتثبيت فكرة عبادته للأوثان فى الأذهان !

وبهذا التقديم أهدر الدكتور نزاهة العلم وكرامة العلماء ، وأظهر حقاً دفيناً على نبى الإسلام يبعده عن حياذ الباحثين عن جوهر الحقيقة . ومن خطئ الرأى أن يصنف طبيب

رسولا يؤمن به ملايين البشر ويحبونه بكل قلوبهم ذلك الوصف البذىء فى عام ١٩٦٠ ، ومن الأغرب أن أطباءنا العرب الذين يتخذون هذا الكتاب مرجعا لهم لم يحركوا ساكنا ولم يبعثوا إلى الدكتور الذى استهوته فكرة فيلسوف بما يصححون به وجه الحقيقة ، لا تعصبا لنبي الإسلام بل حبا فى الحقيقة ذاتها .

التقط الدكتور لينوكس فكرة أرسطو القائلة بوجود علاقة بين الصرع والنبوغ فراح يسخر جهوده العلمية لتأكيد الفكرة ، فلم يبدأ محايدا كما يختم العلم التجريدى بل بدأ مؤمنا بها لوى كل أبحاثه لإثباتها ، فتعلق بأوهى الأحداث وأضعف الروايات لتدعيم ما آمن به مسبقا ، فجاء بحثه مغرضا غير مبرأ عن الهوى وهذا أسوأ ما يوصم به بحث علمى ، فما بالك برأى طبيب يشخص الأمراض على مجموعة من الافتراضات والأوهام .

راح الدكتور لإثبات ما آمن به يعد الفلاسفة والمؤلفين والمعلمين والفنانين والموسيقيين والشعراء والأنبياء الذين يتدعوا خيرا ما أتجوه فى لحظة الصرع ، ولم يعتمد فى نسبة الصرع إلى العباقة القدماء إلى أبحاث أطباء قدامى بل على ما أورده أفلاطون فى محاوراته ، كأنما كان أفلاطون يقيس بالأجهزة الحديثة ذبذبات المخ ويرسمه رسما كهربيا ، أو لكأنما قد حقن أفلاطون هؤلاء المشاهير حقنة قادرة على إحداث النوبة !

— ٣٠٩ —

أكد البروفسور أن جميع العباقرة الذين عرفهم التاريخ مصابون بالصرع بناء على أقوال فلاسفة كأرسطو أو مؤرخين كهيرودوت قالوا في وصف هؤلاء المشاهير إنهم أصيبوا ذات يوم بصداع أو بإغماء أو بنشاط غير عادي في معركة .

وتراقص الآن على قلبي كلمة نائية أصف بها فعل الطبيب الكبير ولكن يمنعني عن تسطيرها ديني الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله ليغرس في النفوس مكارم الأخلاق ، فقد علمنا رسول الله أن نجادل الناس بالتى هى أحسن ، « وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه مؤثلاً » (١) .

تحدث الدكتور عن القادة الدينيين فأكد أن بولص الرسول كان مصابا بالصرع ، ثم ثنى بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال : « أما عن محمد (٥٦٩ — ٦٣٢) فيقول السير وليم مور « في حياة محمد » إنه أصيب بإغماء مرتين : الأولى وهو في الثانية من عمره مما دعا حاضنته إلى ترك رعايته والسر عليه » . وقرر وودز (١٩١٣) أن محمدا كان يعاني نوبات صرع خفيفة ، وقد ظهرت الأعراض عليه وهو في الثالثة من عمره واستمرت طوال حياته ، وتبعاً لما قاله جابوسينيوس Gabuscinius فقد حول محمد قلقه واضطرابه لمصلحته ، فعندما كانت زوجته في ضيق من مرضه قال لها :

— عندما أنوء بوحى السماء أحسن صداعا وترتجف بوادري

- ٣١٠ -

وهذا من شدة الوحي على الأنبياء ، وإنى أرجو أن أكون منهم .

فنظرت إليه على أنه مبعوث السماء ووثقت به وأيدته بكل أموالها .

ويقول وودز : وذات يوم بينما كان يتجول بالقرب من مكة وقد خطر له أن يتردى من شواحق الجبال (لانقطاع الوحي عنه) سمع صوتا ونظر فإذا بجبريل قد ملا القضاء يقول له : أنت رسول الله حقا ، فذهب إلى بيته ترتجف بواده ثم اتابته النبوة ، فصبوا عليه الماء ولما أفاق رتل : « يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر ^(١) » . وكان يتبع الأعراض أحيانا هبوطا في الروح المعنوية وصفيها في الآذان وصلصلة أجراس أو دويا كدوى النحل عند رأسه ، وارتجافا في شفتيه ولكن هذه الحركة كانت إرادية ثم تثبت عيناه وتصبح حركة رأسه تلقائية ، وبعد دقائق قليلة تنتهي القيوبة وترتجف العضلات وبذلك تنتهي الأزمة . وفي بعض الأحيان عندما تكون النبوة شديدة يسقط مغشيا عليه ويروح في غيوبة ويحتقن وجهه ويضطرب نفسه ، ويستمر بعض الوقت على هذا الحال .

هذا ما أخذه الدكتور لينوكس من مور وودز ليثبت به أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان مصابا بالصرع ككل المباقرة ومشاهير الرجال ، محاولا أن ينفي الإلهام أو النفث

في الروح أو الوحي ، وقد قصد بحالة الصرع الأولى التي اتتبعته وهو في الثانية من عمره على رأى مور أو الثالثة من عمره على رأى وودز حادثة شق الصدر وعودة حليلة به إلى أمه ، وقد ناقشت بإسهاب موضوع شق الصدر في الجزء السادس من السيرة وخلصت منها إلى أن الله سبحانه وتعالى قادر على تطهير قلب رسوله دون حاجة إلى إجراء عملية جراحية ، وقد ضعفت كل الأحاديث التي روت حادثة شق صدره في صباه أو في شبابه أو قبل أن يوحى إليه أو قبل أن يسرى به .

وقصد بحالة الصرع الثانية لما فتر الوحي فترة حتى حزن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنا حزنا غدا منه مرارا كى يتردى من رؤوس شواهد الجبال : فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقا . فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع . فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل وقال له مثل ذلك . وهذه رواية الطبري اعتمد عليها سير وليم مور وتلقفها الدكتور لينوكس ليؤكد بها أن محمدا حاول الانتحار وهو في نوبة من نوبات الصرع . ورواية الطبري لا يعول عليها لأن أحد رواةها وهو النعمان بن راشد - ضعيف ، ضعفه القطان والنسائي وابن معين وأدخله البخاري في كتب الضعفاء وقال عنه إنه مضطرب الحديث روى مناكير .

ولو وضعنا هذا الحديث على مقياس العقل لرفضناه بداهة .
دون حاجة إلى تضعيف أحد رواته ، فما يعقل أن يهيم موعود
برسالة السماء ، بل من كلثم الروح الأمين وأمره بأن يقرأ
قرآن ربه أن يحاول الانتحار لا لسبب إلا أن الوحي قد فتر
عنه مدة .

وقبل أن أناقش الدكتور لينوكس في هذا الموضوع سأورد
ملخصاً عن مرض الصرع كتبه كل من الدكتورين الفاضلين محمد
عبد القادر أحمد وسعد الدين حشمت جادو بناء على طلبى :

« الصرع حالة مرضية متكررة تتميز فسيولوجيا باضطراب
في النشاط الكيميائى الكهربائى للمخ ، مما يؤدي إلى إرسال
شحنات عصبية غير طبيعية ، وتظهر هذه الشحنات على شكل
أعراض كإغماء المريض أو اضطرابات في إحساسه أو إتيانه
بحركات لا إرادية ومعاناته من اضطرابات عاطفية ونفسية قد
تصل إلى حالة الهياج .

وترجع أسبابه إلى عيوب خلقية ، أو أمراض أصابت الجنين
أثناء وجوده في بطن أمه ، أو إصابات أثناء الولادة المتعسرة ،
أو إصابته بأمراض معدية بعد ولادته ، أو إصابة المخ بأورام أو
اضطرابات في الدورة الدموية .

وتنقسم نوبات الصرع إلى :

١ - نوبات مخية موضعية وينتج عنها : نوبات حركية

جسمانية ونوبات حسية ونوبات لا إرادية ونوبات عاطفية أو نفسية .

٢ - نوبات مخية نتيجة لإصابة الجزء العلوى لجذر المخ وينتج عنها : نوبة الصرع الخفيفة ونوبة الصرع الشديدة ونوبات نفسية حركية .

وهناك أمراض أخرى ينجم عنها الصرع وأعراضه ، منها الأورام التى تصيب المخ ، وزيادة الضغط فى السائل النخاعى بالمخ ، والالتهاب السحائى ، وبعض الأمراض الخلقية التى تصيب المخ ، والزهرى إذا أصاب المخ ، وإصابات عظام الجمجمة التى تؤثر على المخ ، وحدوث نزيف فى الأوعية الدموية للمخ ، وأمراض تصيب الأعصاب ، وحالات التسمم بالكحول والرباض ، وبعض الحميات التى تصيب الأطفال ، وتسمم البولينا ، وحالات الاحتباس البولى ، والهبوط المفاجئ لوظائف الكبد ، ونقص وظائف بعض الغدد الصماء .

وتظهر النوبات الحركية الجسمانية على هيئة حركات معينة فى اللسان أو زاوية الفم أو إبهام القدم ، أو تبدأ فى جزء من هذه الأجزاء ثم تنتشر فى الجسم كله ، ثم تنتهى بإصابة عامة للجسم وقد تأخذ صورة شلل عام يستمر زمنا بعد انتهاء النوبة .

وقد يتصلب الجسم والأطراف أحيانا مع فقدان الشعور .
أما النوبات الحية فتصيب حاسة من الحواس الخمس مثل
(دعوة إبراهيم)

النظر ، فقد يشعر المريض بعدم وضوح الرؤية . وقد تصل إلى عدم الرؤية إطلاقا . أو يشعر المريض بتخدير في جزء من جسده ، أو يشعر بطنين في أذنيه . أو إحساس بالدوار ، أو شم رائحة غير موجودة .

أما النوبات اللاإرادية فلا يتحكم فيها المريض ، وقد تصحب النوبات الحركية أو النوبات الحسية وخاصة النوبات النفسية وقد يحدث عنها التبول اللاشعورى أو اضطرابات في المعدة .

وفي حالة النوبات النفسية يهذى المريض أو يشعر بالغربة وهو بين أهله ، وتصدر عنه تصرفات غريبة ويقول أقوالا لا يعنها ، ويصاب بحالة نسيان لفترة معينة ، وقد تحدث هذه النوبة أيضا بعد وقوع النوبة العصبية .

نوبة الصرع الخفيفة : تتميز بمفاجأة المريض وتدوم فترة قصيرة ، ولا تصحبها دلائل قبل وقوعها اللهم إلا اختلاج في العينين ، وقد تحدث يوميا أو على فترات بين الفترة والأخرى شهور أو سنين ، وقد تختفى في سن البلوغ .

وعند حدوثها تتحرك الأطراف أو يحدث ارتخاء في عضلات الجسم ، ويسقط المريض على الأرض فاقد الوعي لمدة يستيقظ بعدها ولا يتذكر ما حدث .

نوبة الصرع الشديدة : وتظهر فجأة في صورة تشنجات متجانسة ، وهذه مراحلها :

(١) تخيلات وهمية يشعر بها المريض وجده ، وهى الإنذار

بحدوث النوبة وتقع قبل حدوث التشنجات مباشرة أو مصاحبة لها . وهى على هيئة هذيان أو شمم رائحة غير موجودة أو سماع أصوات غريبة كطين في الأذن أو آلام في المعدة .

(ب) ثم تحدث تشنجات وتكون مستمرة ومتجانسة لفترة ثوان ثم متقطعة . وقد تبدأ بصراخ ثم يروح في غيبوبة لا يشعر في أثناءها المريض بنفسه .

(ج) ثم تأتى فترة ما بعد التشنجات وانتهاء النوبة . فلا يعود المريض إلى حالته الطبيعية مباشرة بل يظل نائماً أو فاقد الوعي مدة قد تستد إلى ساعة من الزمن . وقد يصحبها صداع أو قىء أو آلام بالعضلات .

وقد يبدو أن المريض قد استرد وعيه إلا أنه يأتى بحركات غريبة ينسأها تماماً بعد أن يسترد وعيه فعلاً ، بل ينكر حدوثها ولا يعرف ذلك إلا من هم حوله وقت وقوع النوبة . وقد تنتاب المريض حالة هياج بعد فترة التشنجات ، أو يقوم بخلع ثيابه أو العبث فيما حوله أو الاعتداء على من حوله ، ولا يتذكر إطلاقاً ما حدث من هذه التصرفات .

وقد يصاب المريض بشلل عام نتيجة إرهاق أعصابه . ويستمر ذلك ٢٤ ساعة يعود بعدها إلى حالته الطبيعية .

ويتأثر وعى المريض في النوبات النفسية الحركية ، وإن ظهرت منه حركات غريبة يظن أنها متعمدة وهى في الواقع غير ذلك ، ويقل فيها الإحساس ويصاب المريض بحالة نسيان وتعميره تأثيرات عاطفية مثل الخوف أو الفرح أو البكاء .

هذه هى أسباب المرض وأعراضه ومقدمات النوبة ورواسب ما بعد النوبة ، ولو أن الدكتور لينوكس قد جزم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم - كان مصابا بالصرع الخفيف الذى جاء فى أعراضه أن النوبة تدوم فترة قصيرة ولا تصحبها دلائل قبل وقوعها إلا اختلاج العينين والتي يسقط فيها المريض فاقد الوعي لمدة يستيقظ بعدها ولا يتذكر ما حدث . ولو أن دحض هذا الزعم ميسور بتأكيد أن محمد - صلى الله عليه وسلم - كان يتذكر كل ما جاء به الوحي . بل كان يحسن كأنما حفر فى قلبه ، كان يملئ على كتاب الوحي عقب انقضاء الوحي عنه مباشرة ما جاء به جبريل الأمين ، إلا أننى سأناقش كل ما ذكره الدكتور فى كتابه عن أسباب الصرع وأعراضه وسأحاول أن أطبقها على أطوار حياة محمد - صلى الله عليه وسلم - منذ أن حملت به أمه آمنة بنت وهب حتى أن لحق بالرفيق الأعلى :

يقول الدكتور لينوكس : إن من أسباب مرض الصرع عيوباً خلقية تصيب الجنين وهو فى بطن أمه أو من أثر ولادة متعسرة . وقد روت آمنة بنت وهب أنها لم تجد حملاً أيسر من حملها بمحمد عليه السلام ، وكانت ولادته ميسرة على الرغم من أنه ابنها البكر ، فإما أن نصدقها كما صدق الدكتور لينوكس روايات ضعيفة ساقها السير وليم مور فى كتابه «حياة محمد» وودز ، وإما أن نكذبها ونكذب فى نفس الوقت الروايات المتهافنة التى اعتمد عليها فى سوق حججه على إصابة محمد بالصرع . وشب محمد قويا فى بادية بنى سعد ، وقالت حليمة السعدية

إنه كان ينمو ويغلب أكثر من كل من كانوا في مثل سنه وأنه مشى ولم يتم من عمره سنة ، وتكلم بلسان فصيح وهو ابن ستين ، موفور الصحة لم يشك مرضا قط ، بل كان يتسلق الجبال وهو في الرابعة . وحديث حليلة إن كشف فإنما يكشف عن طفل قوى البنية ، أما حديث شق الصدر الذي جعل الدكتور لينوكس يؤكد إصابة محمد بالصرع في طفولته فقد سبق أن ضعفته في الجزء السادس من هذا الكتاب ، وقلت إنه وضع عن حسن نية لتفسير قوله تعالى : ألم نخرج لك صدرك .

قال الدكتور لينوكس إن الصرع الذي أصاب محمدا - صلى الله عليه وسلم - من الصرع الخفيف . وقال إن هذا الصرع قد يختفى في سن البلوغ ، فإذا كان هذا الصرع قد أصابه وهو في الثانية أو الثالثة من عمره فلماذا لم يختف لما وصل محمد عليه السلام إلى سن البلوغ ؟ إن الدكتور لينوكس يفترض أنه استمر معه وأنه هاجمه وهو في غار حراء ، وراح يعدد صور الوحى ليؤكد ما وصل إليه فقال : إنه أراد أن ينتحر . وأنه سمع صوتا فإذا بوجهه يصور له أنه رأى جبريل ، وأنه كان يسمع صلصلة أجراس أو دويا كدوى النحل عند رأسه .

هذه هى الأعراض التى استند إليها لينوكس لتأكيد أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - كان مصابا بالصرع . ولم يأت بجديد في عام ١٩٦٠ فكل شائى محمد عليه السلام من الغربيين قالوا بهذا الافتراء . أما أن محمدا - صلوات الله عليه وسلامه -

فكر في الانتحار لما فترعنه الوحي وأنه كلما هم بأن يتردى من شواهق الجبال ظهر له جبريل وقال له : أنت رسول الله حقا ، فالحديث الذى روى ذلك منكر ، وقول لينوكس بأن محمدا كان يسمع دويا كدوى النحل عند رأسه قول غير صحيح ، فالذين كانوا يسمعون دوى النحل هم الذين كانوا عند الرسول عندما ينزل عليه الوحي . فقد قال عمر رضى الله عنه : « إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي يسمع عند وجهه كدوى النحل » فهل من أعراض الصرع أن يسمع من حول المريض أصواتا كدوى النحل ؟ !

وقال — صلى الله عليه وسلم — إن الوحي يأتيه في صوت كصلصلة الجرس أحيانا ، فصلصلة الجرس صفة للصوت الذى يوحى إليه ، فيا ترى كيف كان الله يوحى إلى موسى ؟ ألم يكن الصوت من صور الوحي الذى نزل على كليم الله ؟ ! وبماذا يريد الدكتور لينوكس أن يوحى الله إلى أنبيائه إن لم يكن بصوت من الأصوات أو بإلهام من الإلهامات أو بنفث في الروح ؟

لو أن الدكتور لينوكس قد أنكر الوحي كلية لما فكرنا في عتابه ، ولكنه عندما كان يذكر العظماء المصابين بالصرع لم يذكر موسى عليه السلام مع أن التوراة تؤكد أن موسى خر صعقا لما سأل الله أن يتجلى عليه ، فإن كان الدكتور قد أقر بنزول الوحي على موسى فلماذا ينكر نزوله على محمد — صلى الله عليه وسلم ؟ لو كان الدكتور عالما مجردا عن الهوى وسلم

- ٣١٩ -

بنزول الوحي على موسى - عليه السلام - أو أى من الرسل الذين يؤمن بهم لوجب عليه أن يسلم بنزول الوحي على محمد - صلى الله عليه وسلم - فالحقيقة لا يمكن تجزئتها ولا يعقل أن نعترف بها مرة وننكرها مرة أخرى .

إننا أمام حالة من حالتين : فإما أن الدكتور لينوكس يؤمن بالوحي وبنزوله على موسى عليه السلام وفي هذه الحالة لا مفر من اعترافه بنزوله على نبي الإسلام ، وإما أنه لا يؤمن بالوحي ولم يذكر موسى عليه السلام بين المتساين بالصرع خشية من يهود أمريكا . فهو في كلتا الحالتين أهدر نزاهة العلم وكرامة العلماء .

وأحب أن أسأل الدكتور لينوكس : لماذا لم يتعرض لصور الوحي الأخرى التي ذكرها محمد - صلى الله عليه وسلم ؟ لأنها لا تخدم غرضه ، وهل من الأمانة العلمية سرد بعض صور الوحي دون بعض ؟ قال صلى الله عليه وسلم : وإن جبريل ليأتيني فيكلمني كما يأتى أحدكم صاحبه . إنه كان يكلمه ويبصره بغير حجاب ولا غيوبة ، وكان يأتيه على صورة دحية الكلبي أو على صورة غيره . وإن ظهر جبريل بصورة رجل كان تأنيسا لمن يخاضبه .

قال عمر رضى الله عنه : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر . لا يرى عليه أثر السر ، ولا يعرفه منا

أحد ... وقد عُرِف بعد انصراف الرجل أنه جبريل . فهل كان كل الجالسين مصابين بالصرع ؟

ويقول بودلى : « وقد أُمليت كل كلمة من كلمات القرآن عقب صفاء ذهنه من أثر الوحي ، ويؤكد الأطباء أن المصاب بالصرع لا يفيق منه وقد ذخر عقله بأفكار رائعة ، وأنه لا يصاب بالصرع من كان في مثل الصحة التي يتستع بها محمد » .

إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - في جميع غزواته كان القوى الذي يقرع الخطوب لا المتهافت الذي يسقط على الأرض منشيا عليه ، وإنه في غزوة تبوك وقد تجاوز الخمسين وكانت في الحر الشديد تحمل متاع الطريق والحر والعطش وكان أكثر حيوية من كثير من الشباب الذين كانوا في الجيش ، فهل يحصل أن يكون ذلك الذي تخفق الصحة بين جنبه مصابا بالصرع ؟ !

ويقول بودلى : « ما كان الصرع ليجعل من أحد نبيا أو مشرعا ، وما رفع الصرع أحدا إلى مراكز التقدير والسلطان يوما . وكان من تتنابه مثل هذه الحالات في الأزمنة الغابرة يعتبر مجنونا أو به مس من الجنون ، وإر كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد » .

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد : « لقد مات عبد الله وآمنة ولما يجاوزا الخامسة والعشرين . ولا يكون الموت في هذه السن إلا علامة على الضعف والهزال إن لم يكن من مرض يستنفد الأجل في عنفوان الشباب » .

فهل كان محمد عليه السلام سليل أبوين ضعيفين هزيلين ؟
إن لم تكن غرابة الالتقاء بين الأبوين على هذا الضعف
كافية لوضع هذا الظن ، فلا حاجة إلى دافع له غير حياة الوليد
بما استوفته من قوة الروح وقوة الجشان .

وقد سأل أناس من كتاب الغرب هذا السؤال وخيل إليهم
أنهم وجدوا جوابه في قصة الصرع المزعوم قبل الفطام ، وفيما
كان يعروه من برحاء الوحي التي وصفها الأقربون منه وأيسرها
أنه كان عليه السلام يرعد ويضطرب ويتقاطر منه في اليوم
الشاتي عرق كحبه الجمان .

وعجيب أن يصاب الإنسان بصرع لا يعروه غير مرة واحدة
في سن الرضاع ، ثم لا يعاوده مرة أخرى إلى قرابة الأربعين .
وأعجب منه أن يصاب به بعد الأربعين في حال واحدة : حين
يتلقى الوحي ، ثم لا يصاب به مرة في غير تلك الحال .

ولكن ليس بالعجيب أن تجيش بنية اللحم والدم من أعماقها
في غاشية كفاشية الوحي كأننا ما كان قوام البدن الذي تغشاه .
ولا نعلم أن أحدا من الأنبياء وصف لنا كما وصف محمد
عليه السلام في كل لحظة من لحاته وفي كل حركة من حركاته
وفي يقظته ورقاده وفي حديثه وصيته وفي جلوسه وسيره وفي
ركوبه وارتحاله ، فلم تكن له صفة قط في كل أولئك غير صفة
البنية السوية والخلق القويم .

كان باتفاق واصفيه فوق المربوع ، بعيد ما بين المنكبين ،
غزير الشعر ، تلمس جمته شحمة أذنيه ، شثن الكفين والقدمين .

ضخم الكراديس - أى ملتقى العظام - ولم يكن بالمطهَّم ولا
بالمكثَّم (١) . أدعج العينين : أهدب الأشفار ، إذا مشى تفلح
كأننا ينحط من سبب ، ذريع الخطوة سائل الأطراف .

والنطق أبين عن حالات الصرع من سائر الصفات ، وما
وصف منطق النبی بشيء ينم على اضطراب فى عصب أو فى
عضل أو ينبىء عن عرض من الأعراض غير سليم أو قويم :
كان ضليع الفم يتكلم بكلام بين فصل مفسر ، إذا أشار أشار
بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها - أى
صحب كلامه بما يوافقها من حركتها - وإذا غضب أعرض
وأشاح : وإذا فرح غص طرفه . جل ضحكه التبسيم ، ليس
بصخاب ولا يرتفع له صوت فى غير دعاء .

وهذه صفات كلامه من أكثر من عشرين مصدرا جمعتها
أبو عيسى الترمذى صاحب الشئائل المحمدية ، ولم يأت بين
ثنائهاها مسانح اشتباه فى عرض من أعراض خلل الصرع
والاضطراب ، بل هى كلها توكيد للمنطق السليم والخلق
القويم .

وفقرة انقطاع الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -
خير دليل على صدق الرجل ، فلو كان الرسول الكريم غير
صادق مع نفسه لأخفى عن الناس جميعا هذه الحقيقة ، ولو

(١) المطم : التفتيح الوجه ، والمكثَّم : الدور ، والاعذب : طويل أعذاب العين
مع انعطافه .

كان القرآن من عنده فما الذى جعله يفرع لغياب جبريل عنه !
ولماذا احتل سخرية شنائيه ؟ لو كان الأمر بالبساطة التى
يصورها الكتاب الغرييون لعكف محمد - عليه السلام - فى
داره ليلة أو بعض ليلة وألف قرآنه ، ولو فر على نفسه المحنة
التى احتلها لما غاب عنه الوحي .

وقيل إن مدة فترة انقطاع الوحي كانت أربعين يوما وقيل
خمسة عشر يوما وقيل اثني عشر يوما . وجزم ابن إسحاق بأنها ثلاث
سنين ، وقال السهيلي : إن مدة هذه الفترة كانت سنتين ونصف
سنة . وقد أخذت بالقول الذى حددها بأربعين يوما لأن
ذلك هو المشهور وحسب بل لأن أبا سفيان قد خرج إلى اليمن
فى تجارة قريش قبل البعثة وعاد منها بعد خمسة أشهر فوجد
أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - يعذبون . فلو كان
حديث أبى سفيان صحيحا فلا يجوز أن تطول مدة انقطاع الوحي
عن المدة التى استغرقها أبو سفيان فى ذهابه إلى اليمن وعودته
منها .

وتعود بعض المؤرخين الغربيين الذين يقرءون التوراة فلا
يجدون فيها ذكرا للجنة والنار أن يسخروا من الجنة التى وعد
الله بها المتقين فى الإسلام ومن النار التى أعدت للمجرمين ،
ونسوا أن التوراة التى بين أيديهم قد كتبها اليهود فى المنى
بعد أن أحرق بختنصر جميع نسخ التوراة الأصلية . وكانوا
متأثرين بالديانة البابلية التى تقول إن الذين يسوتون يذهبون
إلى الأرض التى لا رجعة منها .

قالوا: إن النعيم السماوى كما وصفه القرآن من النقائص التى تقدر فى العبادة التزهية ، متناسين أنه ما من دين سماوى خلا من مبدأ الثواب والعقاب ، بل وما من دين من أديان الوثنيين إلا وقد وعد المؤمنين براحة بعد الموت أو بحياة دنيوية سعيدة أو بعذاب حتى فى الأرض التى لا رجعة منها أو بعذاب فى الدنيا ، فليس من العدل ولا من النزاهة التسوية بين الصالحين والطلحين والمصلحين والمفسدين .

إن العبادة التزهية هى عبادة الله وحده ، إله عادل لا فرق عنده بين أمة وأمة ، ليس إله شعب دون شعب ، ولا فرق بين أسود وأبيض أمام عدالته فهو رب الناس جميعا ، إله الناس جميعا ، لا ينظر إلى ألوان عباده ولا إلى عصبية عباده ، فهو إله البشر جميعا يحاسبهم على أعمالهم . وهذا هو الإله الذى دعا محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى عبادته ، وهذا هو دين الإنسانية الذى أنزله الله جل شأنه على رسوله عليه السلام ، وهذه هى نزاهة العبادة فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) . « وما أرسلناك إلا كافة للناس » (٢) . « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٣)

وحاولت أن أهتدى فى ترتيب أحداث السيرة بعد الرسالة بترتيب نزول الآيات ، فلما عدت إلى المصحف الشريف الذى

بين أيدينا ورتبت السور حسب نزولها اعتمادا على ما ورد فيه وجدت أن أول سورة نزلت هي اقرأ : ثم المزمل ، ثم المدثر ، ثم ن والقلم ، الفاتحة ، فالمسد . فالتكوير ، فالأعلى ، فالليل ، فال فجر . فالضحى ، فالشرح ، فالعصر ، فالعاديات ، فالماعون . فالكافرون ، فالقيل ، فالفلق ، فالناس ، فالإخلاص . فالنجم ، فعبس . فالقدر ، فالشمس ، فالبروج . فالتين ، فقريش ، فالقارعة ، فالقيامة ، فالهمزة ، فالمرسلات ...

فلما اتبعت ذلك الترتيب وجدت أن الضحى تأخرت كثيرا عن زمنها التاريخي ، فقد قال الناس : إن ربه - صلى الله عليه وسلم - قد قلاه لما فتر الوحي عنه ، فلما نزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم - بعد فترة الوحي قال كتاب السيرة إنه نزل عليه بسورة الضحى بعد المزمل والمدثر لتأكيد أن ربه ما ودعه وما قلاه . ورأيت أن كتاب السيرة على حق في ذلك القول فرجعت إلى مصحف ابن عباس فوجدته قد رتب السور في مصحفه على النحو الآتي : اقرأ ، ن والقلم ، والضحى ، المزمل ، المدثر ، الفاتحة ، تبت ، كورث ، الأعلى ، الليل ، والفجر ، ألم نشرح ، الرحمن ، والعصر ، الكوثر ، التكاثر . الدين ، القيل . الكافرون ، الإخلاص ، النحل ، الأعلى ، القدر ... فاسترحت إلى ترتيب ابن عباس ، فلما نزلت آية الإنذار «وأندر عشيرتك الأقربين»^(١) وهي في سورة الشعراء رجعت إلى ترتيب التزويل في المصحف ، فوجدت أن ترتيب نزولها متأخر جدا عن أحداث السيرة ، فهي

بعد ق ، والبلد ، والقمر ، وص ، والأعراف ، والجن ، ويس ،
والفرقان ، وفاطر ، ومريم ، وطه ، والواقعة ، وعبدت إلى
مصحف ابن عباس فوجدت أن ترتيب « الشعراء » بعد
والشس ، البروج ، التين ، قریش ، القارعة ، القيامة ، الهمزة ،
والمرسلات ، ق ، البلد ، الطارق ، القمر ، ص ، الأعراف ،
الجن ، يس ، الفرقان ، الملائكة ، مريم ، طه ، الشعراء ،
فأكدت أن ترتيب السور حسب النزول في المصحف أو في
مصحف ابن عباس لن يفيدني في ترتيب أحداث السيرة ، فإن
أردت أن يكون نزول القرآن مرشدي في سرد وقائع السيرة
العطرة ، فعلى أن أرتب الآيات حسب نزولها ولكن ذلك شيء
عسير ، فالقرآن نزل منجما ولم ينزل جملة واحدة ، يشرع
للناس ويتابع الأحداث : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق
وأحسن تفسيراً » . « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على
مكث ونزلناه تنزيلاً » (٢) .

وقد استنكر أعداء الإسلام أن ينزل القرآن منجما وقالوا :
« لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » وكان جواب الله تبارك
وتعالى : « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه تنزيلاً » (٣) « أي
جعلناه بعضه في إثر بعض » .

وكان النضر بن الحارث يستهزئ القرآن ، وكلما جاء فيه
ذكر عاد وثمود قال : أساطير الأولين ، قاصدا بذلك أن ما يروي

(٢) الإسراء ١٠٦

(١) الفرقان ٣٢

(٣) الفرقان ٢٢

عن عاد وثمود إننا هو حديث خرافة كالأحاديث التي يرويها عن رستم واسفنديار التي جاء بها من الحيرة وبلاد الفرس . وعدم تصديق ما جاء به القرآن عن عاد وثمود قد يعود إلى أن التوراة التي بين أيدي الناس سكنت عن الحديث عن هؤلاء الأقوام ، وسبب سكوتها قد يرجع إلى المنافسة الشديدة التي كانت بين بنى إسرائيل وبنى إسمايل في الوقت الذي أعاد اليهود فيه كتابة التوراة في المنفى ، فاليهود كانوا مشردين بينما كانت دولة بنى إسمايل مزدهرة في أرض النبط - وكانت عاصمتهم البتراء تنافس بابل ودمشق ومنف بل وروما ، فلا يعقل أن اليهود لم يعرفوا العرب قوم عاد وثمود . وقد ذكر بطليموس في أطلسه مواقع عاد وثمود . إن الحاقدين على الإسلام حاولوا بكل ما وسعهم الجهد أن ينكروا أن عادا وثمودا كانتا حقيقة واقعة لتجريح القرآن والتشكيك فيه ، ولكن عادا وثمودا قد أقر بوجودهما التاريخ القديم والتاريخ الحديث على السواء والأطالس التي وضعت قبل الإسلام بمئات السنين . وإن كل المحاولات التي بذلت والتي ستبذل لأهون من أن تنال من الكتاب المبين .

القاهرة في ٥ / ٣ / ١٩٦٨

المراجع

- القرآن الكريم
الكتاب المقدس
صحيح البخارى
السيرة النبوية
اسباب النزول
الطبقات الكبرى
الروض الآنف
تاريخ الامم والملوك
العقد الفريد
الآغاني
بلوغ الأرب
نهاية الأرب
الملل والنحل
السيرة الحلبية
أحياء علوم الدين
الشفاء في تعريف حقوق المصطفى
وفاء الوفا باخبار دار المصطفى
الرسول . حياة محمد
مطلع النور
البداية والنهاية
ايران في عهد الساسانيين
معاوية
أخبار قریش
تفسير سورة العلق
مقدمة ابن خلدون
- لابن هشام
للواحدى
لابن سعد
للسهيلي
للطبرى
لابن عبد ربه
لابى الفرج الاصفهاني
للأوسى
للتويرى
للشهر ستانى
لعلى برهان الدين الحلبي
للغزالي
للقاضى عياض
للسمهودى
بودلى ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد السحار
لعباس محمود العقاد
لابن كثير
لكريستينس - ترجمة يحيى الخشاب
ابراهيم الايبارى
الزبير بن بكار

Epilepsy, by William G. Lennox.

A Theological Word Book of the Bible, by Richardson.

Islam and Theory of Interest, by Anwar Eqbal Quershi.

الدكتور م . جمال الدين عباد

رقم الإيداع ٣٥٥٩ / ٧٧ الترميم الدولى لا - ١٤٨ - ٣١٦ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه